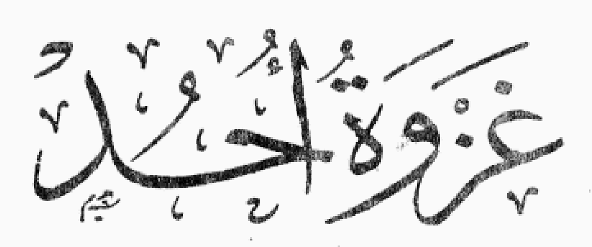
السيرة النبوية





عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين * إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين * ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾

(قرآن كريم)

١

اختلف المسلمون فى الخروج من المدينة والمقام بها ، وكره — صلى الله عليه وسلم — الخروج لما علم أن قريشا قد أقبلت لحربه ، ثم خرج على مضض ، ثم ندم القوم الذين أشاروا بالخروج وقالوا :

— ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم إليك .

فقال — صلى الله عليه وسلم — :

— قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولا ينبغى لنبى إذا لبس لأمته[1] أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .

ثم قال لهم :

— انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم .

وجاء جُعيل بن سراقة وهو يتنفس مكروبا فقال :

— يا رسول الله قيل لى إنك تُقتل غدا .

فضرب النبي — صلى الله عليه وسلم — بيده إلى صدره وقال :

— أليس الدهر كله غدا ؟

ثم دعا بثلاثة رماح فعقد ثلاثة ألوية ، فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حُضَير ، ودفع لواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر بن جموح ، ودفع لواء المهاجرين إلى على بن

---

(١) المراد عدة القتال .

أبى طالب ، ثم دعا بفرسه فركبه وتقلد القوس وأخذ بيده قناة والمسلمون متلبسون السلاح قد أظهروا الدروع فهم مائة دارع . فلما ركب — ﷺ — خرج السعدان أمامه يعدوان : سعد بن معاذ وسعد بن عبادة كل واحد منهما دارع ، والناس عن يمينه وشماله حتى سلك على البدائع ، ثم زقاق الحُسنى ، حتى أتى الشيخين ، وهما أطمان كانا فى الجاهلية فيهما شيخ أعمى وعجوز عمياء يتحدثان ، فسمى الأطمان الشيخين .

وانتهى — ﷺ — إلى رأس الثنية فسمع جلبة وأصواتا مرتفعة ، فالتفت فقال :

— ما هذه ؟

— هذه حلفاء ابن أبىّ من اليهود .

— إسلموا ؟

— لا .

— إنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك .

— يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود ؟

— لا حاجة لنا فيهم .

وردهم رسول الله — ﷺ — ، وأحس عبد الله بن أبىّ بن سلول مهانة وطفق يفكر فى ذلك الرد وتراوده فكرة أن ينخذل برجاله عن الجيش احتجاجا على ما فعله رسول الله عليه السلام بحلفائه !

ومضى رسول الله — ﷺ — وعرض عسكره بالشيخين ، فعرض عليه غلمان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وأسامة بن زيد والنعمان بن بشير وزيد بن أرقم والبراء بن عازب وأسيد بن ظهير

وعرابة بن أوس وأبو سعيد الخدرى وسُمرة بن جندب ورافع بن خديج ، فردهم رسول الله — صلى الله عليه وآله — فالتفت ظهير بن رافع إلى رافع بن خديج ثم قال :

— يا رسول الله إنه رام يعيننى .

وجعل رافع يتطاول وعليه خفان له ، فأجازه رسول الله — ﷺ — .

فلما أجازه قال سُمرة بن جندب لمرى بن سنان الحارث وهو زوج أمه :

— يا أبيه ، أجاز رسول الله — ﷺ — رافع بن خديج وردنى وأنا أصرع رافعا !

فقال مرى :

— يا رسول الله رددت ابنى وأجزت رافع بن خديج وابنى يصرعه !

فقال رسول الله — ﷺ — :

— تصارعا .

فصرع سمرة رافعا فأجازه رسول الله — ﷺ — .

وأقبل ابن أبىّ فنزل ناحية العسكر ، فجعل حلفاؤه ومن معه من المنافقين يقولون لابن أبىّ :

— أشرت عليه بالرأى ونصحته وأخبرته أن هذا رأى من مضى من آبائك ، وكان ذلك رأيه مع رأيك فأبى أن يقبله وأطاع هؤلاء الغلمان الذين معه .

فصادفوا من ابن أبىّ نفاقا وغشا . وغابت الشمس فأذن بلال بالمغرب فصلى رسول الله — ﷺ — ، ثم أذن بالعشاء فصلى رسول الله — ﷺ — ورسول الله عليه السلام نازل فى بنى النجار ، واستعمل على الحرس محمد بن مسلمة فى خمسين رجلا يطيفون بالمعسكر ، حتى إذا كان

آخر الليل سار .

ورأى المشركون رسول الله — ﷺ — حيث أدلج ونزل بالشيخين ، فجمعوا خيلهم وظهرَهم واستعملوا على حرسهم عكرمة بن أبي جهل فى خيل من المشركين . وباتت صاهلة خيلهم لا تهدأ تدنو طلائعهم حتى تلصق بالحرة فلا تصعد فيها حتى ترجع خيلهم ويهابون موضع الحرة ومحمد بن مسلمة .

وكان السحر فقال رسول الله ﷺ :

— أين الأدلاء ؟ من رجل يدلنا على الطريق ويخرجنا على القوم من كثب ؟

فقام أبو خثيمة الحارثى فقال :

— أنا يا رسول الله .

فخرج برسول الله — ﷺ — وركب فرسه فسلك به فى بنى حارثة ، ثم أخذ فى الأموال حتى مر بحائط(١) مربع بن قيظى وكان أعمى البصر منافقا. فلما دخل رسول الله — ﷺ — حائطه قام يحثى التراب فى وجوه المسلمين ويقول :

— إن كنت رسول الله فلا تدخل حائطى فلا أحله لك .

فضربه سعد بن زيد الأشهلى بقوس فى يده فشجه فى رأسه فنزل الدم ، فغضب له بعض بنى حارثة ممن هو على مثل رأيه فقال :

— هى عداوتكم يا بنى عبد الأشهل لا تدعونها أبدا .

فقال أسيد بن خضير :

---

(١) حديقة .

ـــ لا والله ولكن نفاقكم . والله لولا أني لا أدرى ما يوافق النبى ـــ ﷺ ـــ لضربت عنقه وعنق من هو على مثل رأيه .

ونهاهم النبى ـــ ﷺ ـــ عن الكلام فأُسكتوا .

ومضى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ،فبينا هو فى مسيره إذ ذب فرس أبى بردة بن نيار بذنبه فأصاب كلاب سيفه فسل سيفه . فقال رسول الله ﷺ :

ـــ يا صاحب السيف شِمْ (اغمد) سيفك ، فإنى إخال السيوف ستسل اليوم فيكثر سلها .

ولبس رسول الله ـــ ﷺ ـــ من الشيخين درعا واحدة ، حتى انتهى إلى أحد فلبس درعا أخرى ومغفرا وبيضة فوق المغفر . فلما نهض رسول الله ـــ ﷺ ـــ من الشيخين زحف المشركون على تعبية . ونزل رسول الله والذين معه بالشوط حائط بين المدينة وأحد . وحانت الصلاة وهو يرى المشركين فأمر بلالا فأذن، وأقام وصلى بأصحابه الصبح صفوفا .

وقام عبد الله بن أبى، بن سلول فى قومه وقال :

ـــ أطاعهم وعصانى . ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟

ورجع ابن سلول وتبعه ثلثمائة من قومه من أهل النفاق والريب ، فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام فقال :

ـــ أذكركم الله ودينكم ونبيكم وما شرطتم لله أن تمنعوه مما تمنعون منه أنفسكم وأولادكم ونساءكم .

ـــ لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال .

وإن أطعتنى يا أبا جابر لترجعن فإن أهل الرأى والحجى قد رجعوا ، ونحن ناصروه فى مدينتنا وقد خالفنا وأشرت عليه بالرأى فأبى إلا طواعية

الغلمان .

فلما أبى عبد الله بن أبىّ أن يرجع ودخل هو وأصحابه أزقة المدينة ، قال لهم أبو جابر :

— أبعدكم الله ! إن الله سيغنى النبى والمؤمنين عن نصركم .

فلما رجع عبد الله بن أبىّ بمن معه قالت بنو حارثة من الأوس :

— نقتلهم .

وقالت بنو سلمة من الخزرج :

— لا نقتلهم .

وهما أن يقتتلا فأنزل الله تعالى : ﴿فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾(١) . ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾(٢) .

وبقى مع رسول الله — ﷺ — سبعمائة رجل ، ولم يكن مع المسلمين يومئذ إلا فرسان : فرس لرسول الله — ﷺ — وفرس لأبى بردة . ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد وبات به ليله ، وحانت صلاة الصبح والمسلمون يرون المشركين ، فأذن بلال وأقام رسول الله بأصحابه ، ثم خطب خطبة حثهم فيها على الجهاد :

« أيها الناس أوصيكم بما أوصانى به الله فى كتابه من العمل بطاعته ، والتناهى عن محارمه . وإنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذى عليه ثم

---

(١) النساء ٨٨ .
(٢) آل عمران ١٢٢ .

وطن نفسه على الصبر واليقين والجد والنشاط ، فإن جهاد العدو شديد كربه ، قليل من يصبر عليه إلا من عزم له على رشده .

إن الله مع من أطاعه وإن الشيطان مع من عصاه ، فاستفتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد . والتمسوا بذلك ما وعدكم الله . وعليكم بالذى آمركم به فإنى حريص على رشدكم .

إن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف ، وهو ما لا يحبه الله ولا يعطى عليه النصر والظفر .

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة إلا صبيا أو امرأة أو مريضا أو عبدا مملوكا . ومن استغنى عنها استغنى الله عنه والله غنى حميد . ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم من النار إلا وقد نهيتكم عنه . وإنه قد نفث وألقى فى روعى الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها ولا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربكم وأجملوا فى طلب الرزق لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصيه الله . والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد إذا اشتكى تداعى إليه سائر الجسد والسلام عليكم » .

وجعل رسول الله ظهر جيشه إلى أحد وقال :

ـــ لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال .

وانصرف عبد الله بن عمرو بن حزام من عند عبد الله بن أبيّ بن سلول وقد يئس من رجوعه ومن معه لمؤازرة رسول الله عليه السلام ، وظل يعدو حتى لحق برسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو يسوى الصفوف .

وسرحت قريش الإبل والخيل فى زروع كانت بقرب أحد ، فقال رجل من الأنصار حين نهى رسول الله ـــ ﷺ ـــ عن القتال :

ـــ أترعى زروع بني قيلة(١) ولما نضارب !

وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل ومعهم مئتا فرس قد قادوها إلى جنوبهم ، فجعلو على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل ، وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية ، وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة وكانوا مائة رام ، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة ، وصاح أبو سفيان :

ـــ يا بني عبد الدار نحن نعرف أنكم أحق باللواء منا وأنا أُتينا يوم بدر من اللواء . وإنما يؤتى القوم من قبل لوائهم فالزموا لواءكم وحافظوا عليه وخلوا بيننا وبينه ، فإنا قوم مستميتون موتورون نطلب ثأرا حديث عهد .

ولم يجد كلامه قبولا فجعل يقول :

ـــ إذا زالت الألوية فما قوام الناس وبقاؤهم بعدها ؟

فغضبت بنو عبد الدار وقالوا :

ـــ نحن نسلم لواءنا ؟ لا كان هذا أبدا . وأما المحافظة عليه فسترى .

ثم أسندوا الرماح إليه وأحدقت به بنو عبد الدار وأغلظوا لأبي سفيان بعض الإغلاظ . فقال أبو سفيان :

ـــ فنجعل لواء آخر .

ـــ نعم ولا يحمله إلا رجل من بني عبد الدار لا كان غير ذلك أبدا !

وجعل رسول الله ـــ ﷺ ـــ يمشي على رجليه يسوي تلك الصفوف ويبوئ أصحابه مقاعد للقتال ، ويقول :

---

(١) بنو قيلة هم الأوس والخزرج ، وقيلة أم من أمهات الأنصار نسبوه إليها .

— تقدم يا فلان وتأخر يا فلان .

حتى إنه ليرى منكب الرجل خارجا فيؤخره فهو يقومهم كأنما يقوم القداح ، حتى إذا استوت الصفوف سأل :

— من يحمل لواء المشركين ؟

— عبد الدار .

— نحن أحق بالوفاء منهم ، أين مصعب بن عمير ؟

كان مصعب من عبد الدار وكان لواء قريش فيهم قبل الإسلام ، فلما سمع مصعب بن عمير قول رسول الله عليه السلام قال :

— هأنذا .

— خذ اللواء .

فأخذه مصعب فتقدم به بين يدى رسول الله — ﷺ — .

ونظر علىّ إلى مصعب بن عمير إذا به يذكر ذلك اليوم الذى كانوا فيه جلوسا مع رسول الله — ﷺ — ، إذ طلع عليهم مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة مرقعة بفرو . فلما رآه رسول الله — ﷺ — بكى للذى كان فيه مصعب من النعمة ثم قال :

— كيف بكم إذا غدا أحدكم فى حلة وراح فى أخرى ووضعت بين يديه صحفة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ؟

قالوا :

— يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم : نكفى المؤنة ونتفرغ للعبادة .

— بل أنتم خير منكم يومئذ .

وأقبل خالد بن الوليد ومعه عكرمة بن أبى جهل . بعث رسول الله

الزبير بن العوام وقال له :

— استقبل خالد بن الوليد .

وأمر على الرماة عبد الله بن جبير وكانوا خمسين رجلا ، وقالوا له :

— انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا واثبت مكانك إن كان لنا أو علينا ، إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا ظهرنا على القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا .

ودنا عبد الله بن جحش من رسول الله — ﷺ — وقال :

— يا رسول الله ، إن هؤلاء القوم قد نزلوا بحيث ترى ، فقد سألت الله فقلت : اللهم أقسم عليك أن نلقى العدو غدا فيقتلونى ويبقروا بطنى ويمثلوا بى ، فتقول لى : فيم صنع بك هذا ؟ فأقول : فيك .

وأنا أسألك يا رسول الله أخرى ، أن تلى تركتى من بعدى .

— نعم .

وتصـاف القوم للقتال ، وجلس رسول الله — ﷺ — تحت راية مصعب بن عمير .

٢

كان مخيريق اليهودى من أحبار يهود ، فقال يوم السبت ورسول الله — ﷺ — بأحد :

— يا معشر يهود والله إنكم لتعلمون أن محمدا نبى ، وأن نصره عليكم حق .

فقالوا :

— ويحك ! اليوم يوم السبت .

— لا سبت .

ثم أخذ سلاحه وقال :

— إن أصبت فأموالى لمحمد يضعها حيث أراه الله فيه .

وخرج مخيريق خير يهود إلى أحد ، فإذا بهند بنت عتبة قد قامت أمام صفوف المشركين فى النسوة اللاتى معها وأخذن الدفوف يضربن بها وقالت :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الأدبار

ضربا بكل بتار

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق[1]

---

(١) وامق : محب .

ثم رجع النسوة ليكن إلى مؤخر الصف ، وتقدم أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان فى الأحابيش وعبدان أهل مكة فنادى :

— يا معشر الأوس أنا أبو عامر .

كان أبو عامر الفاسق خرج من المدينة إلى مكة مباعدا لرسول الله — ﷺ — ومعه خمسون غلاما من الأوس ، وكان يعد قريشا أن لو قد لقى قومه لم يختلف عليه منهم رجلان . وهو يتقدم الآن ليثبت لقريش أنه لا يزال الراهب الذى تتعلق به أفئدة قومه ، وأن محمد بن عبد الله إن كان قد أطلق عليه اسم « الفاسق » فإنما كان ذلك حسدا منه . وبلغ نداء أبى عامر مسامع قومه فقالوا :

— فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق .

فلما سمع ردهم عليه قال :

— لقد أصاب قومى بعدى شرا .

واستأذن حنظلة بن أبى عامر رسول الله — ﷺ — فى قتل أبيه الفاسق فنهاه عن قتله ، فتراموا بالحجارة هم والمسلمون حتى تراضخوا بها ساعة إلى أن ولى أبو عامر وأصحابه .

مر وحشى ومعه مزاريق بهند بنت عتبة فقالت له :

— إيه أبا دُسْمة ! اشف واستشف .

وكان قُزمان من المنافقين وكان قد تخلف عن أحد ، فلما أصبح عيره نساء بنى ظفر فقلن :

— يا قُزمان قد خرج الرجال وبقيت ! استحى يا قزمان ألا تستحيى مما صنعت ؟

وطاف بذهنه أن رسول الله — ﷺ — إذا ذكره قال من أهل النار ،

فوطن النفس على عدم الخروج وأعرض عما تقول له النسوة ، ولكنهن ألحفن فى تعييره فقلن :

— ما أنت إلا امرأة ، خرج قومك وبقيت فى الدار .

فثار لكرامته فدخل بيته فأخرج سهمه وجعبته وسيفه وخرج يعدو حتى انتهى إلى رسول الله — ﷺ — وهو يسوى صفوف المسلمين ، فجاء من خلف الصف حتى انتهى إلى الصف الأول فكان فيه ، وكان أول من رمى بسهم من المسلمين ، جعل يرسل نبلا كأنها الرماح وإنه ليصيح صياح الجمل ، ثم صار إلى السيف ففعل الأفاعيل والمسلمون مشدوهين وفى رءوسهم استفسار : أهذا الذى يفعل الأعاجيب من أهل النار ؟!

وأخرج رسول الله عليه السلام سيفا وكان مكتوب فى إحدى صفحتيه :

فى الجبن عار وفى الإقبال مكرمة
والمرء بالجبن لا ينجو من القدر

وقال :

— من يأخذ هذا السيف بحقه ؟

فقام إليه على بن أبى طالب ليأخذه ، فقال له عليه السلام :

— اجلس .

وقام عمر فأعرض عنه ، وطلبه الزبير بن العوام ثلاث مرات كل ذلك ورسول الله يعرض عنه ، حتى قام إليه أبو دجانة وقال :

— وما حقه يا رسول الله .

— تضرب به فى وجه العدو حتى ينحنى .

— أنا آخذه بحقه .

كان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب إذا كانت ، وكان إذا أُعْلِم بعصابة له حمراء فاعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل . فلما أخذ السيف من يد رسول الله — ﷺ — أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه ، وحين رآه رسول الله — ﷺ — يتبختر بين الصفين قال :

— إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن .

ونادى أبو سفيان :

— يا معشر الأوس والخزرج خلو بيننا وبين بنى عمنا وننصرف عنكم .

فشتموه أقبح شتم ولعنوه أشد اللعن .

وخرج رجل من المشركين على بعير له فدعا للبراز فأحجم عنه الناس حتى دعا ثلاثا ، فقام إليه الزبير فوثب حتى استوى معه على البعير ثم عانقه فاقتتلا فوق البعير ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— الذى يلى حضيض الأرض مقتول .

وكتمت الأنفاس ومدت العيون إلى ذلك العراك الدائر فوق البعير ، فوقع المشرك فوقع عليه الزبير بن العوام فذبحه ، فأثنى عليه رسول الله — ﷺ — وقال :

— لكل نبى حوارى وإن حوارى الزبير .

ثم التفت عليه السلام إلى من حوله وقال :

— لو لم يبرز إليه الزبير لبرزت إليه .

وخرج طلحة بن أبى طلحة وبيده لواء المشركين وطلب المبارزة مرارا ، فلم يخرج إليه أحد فقال :

— يا أصحاب محمد زعمتم أن قتلاكم إلى الجنة وأن قتلانا إلى النار ،

فهل أحد منكم يعجلنى بسيفه إلى النار أو أعجله بسيفى إلى الجنة ؟ كذبتم واللات والعزى لو كنتم تعلمون ذلك حقا لخرج إلى بعضكم .

وخرج إليه على بن أبى طالب ورسول الله — ﷺ — جالس تحت الراية عليه درعان ومغفر وبيضة ، فالتقيا فحمل طلحة على علىّ عليه السلام فضربه بالسيف فاتقاه بالدرقة فلم يصنع شيئا ، وحمل علىّ عليه السلام وعلى طلحة درع ومغفر فضربه بالسيف فقطع ساقيه ، ثم أراد أن يجهز عليه فسأله طلحة بالرحم ألا يفعل فتركه ولم يجهز عليه .

وسر رسول الله وكبر تكبيرا عاليا وكبر المسلمون ، ثم شد أصحاب رسول الله — ﷺ — على كتائب المشركين فجعلوا يضربون وجوههم وهم ينادون بشعارهم :

— أمت .. أمت .

كان الزبير بن العوام قد وجد فى نفسه حين سأل رسول الله — ﷺ — السيف فمنعه وأعطاه أبا دجانة وقال :

« أنا ابن صفية عمته ومن قريش ، وقد قمت إليه فسألته إياه قبله فأعطاه إياه وتركنى ، والله لأنظرن ما يصنع » .

وراح الزبير يقاتل وهو يتبع أبا دجانة ، فإذا بأبى دجانة يقاتل ويمعن فى الناس لا يلقى أحدا إلا قتله ، وكان فى المشركين رجل لا يدع للمسلمين جريحا إلا أجهز عليه فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعا الزبير الله أن يجمع بينهما فالتقيا فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه . فضربه أبو دجانة فقتله . فأيقن الزبير أن أبا دجانة قد أخذ سيف رسول الله عليه السلام بحقه ، وذهب ما كان فى نفسه من وجد عليه .

ثم حمل لواء المشركين بعد طلحة أخوه عثمان بن أبى طلحة فارتجز يقول :

إن على رب اللواء حقا أن تخضب الصعدة أو تندقا

فتقدم باللواء والنسوة خلفه يحرضن ويضربن بالدفوف فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فضربه بالسيف على كاهله فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مؤتزره فبدت رئته ، فرجع حمزة وهو يقول :

ـ أنا بن ساق الحجيج .

والتقط لواء المشركين أخو عثمان وأخو طلحة وهو أبو سعيد بن أبى طلحة ، فقامت النساء خلفه يقلن :

ضربا بنى عبد الدار ضربا حماة الأدبار

ضربا بكل بتار(١)

فحمل عليه سعد بن أبى وقاص فقطع يده اليمنى . فأخذ اللواء بيده اليسرى فضربه على يده اليسرى فقطعها ، فأخذ اللواء بذراعيه جميعا وضمه إلى صدره وحنى عليه ظهره ، فأدخل سعد سية القوس بين الدرع والمغفر فرمى به وراء ظهره ، ثم ضربه حتى قتله وأخذ يسلبه درعه ، فنهض إليه سبيع بن عوف ونفر معه فمنعوه سلبه ، وكان سلبه أجود سلب رجل من المشركين : درع فضفاضة ومغفر وسيف جيد .

وحمل لواء المشركين مسافع بن طلحة بن أبى طلحة فرماه عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح ، فراح يترنح وهو فى النفس الأخير حتى وصل إلى أمه سلافة وكانت مع النسوة خلف الجيش . فوضع رأسه فى حجرها فقالت له :

---

(١) البتار : السيف .

— من أصابك ؟

— سمعت رجلا حين رمانى يقول خذها وأنا ابن أبى الأفلح .

— أفلحى والله ! هو من رهطى .

وكانت من الأوس وكان عاصم بن ثابت منهم .

ثم حمل لواء المشركين أخو مسافع الحرث بن طلحة فرماه عاصم فقتله ، فحمل إلى أمه سلافة وهى مع النساء بأحد فقالت فى فزع :

— من أصابك ؟

— سمعت رجلا يقول خذها وأنا ابن أبى الأفلح .

فملأ الغيظ قلب سلافة فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم قاتل ابنيها أن تشرب فيه الخمر ، ثم قامت تنادى فى المشركين :

— من جاء برأس عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح فله مائة من الإبل .

فحمل اللواء أخو مسافع وأخو الحرث وهو كلاب بن طلحة فقتله قُزمان ، فراح بعض المسلمين يرنو إلى قزمان وهو يعجب أهذا من أهل النار ؟!، فحمله أخوهم وهو الجلاس بن طلحة فانقض عليه طلحة بن عبيد الله انقضاض الصاعقة فضربه ضربة أزهقت روحه ، فسقط لواء المشركين بعد أن قتل آخر أبناء طلحة . وعند ذلك حمله أرطاة بن شرحبيل ، فإذا بعلى بن أبى طالب يمشى إليه وقد أطل من سيفه المنون ويضربه ضربة يتركه بعدها كأمس الدابر .

ونظر ضرار بن الخطاب إلى خالد بن الوليد وقال له :

— كر على القوم .

فقال له خالد فى ضيق :

— وترى وجها نكر فيه !

كان ضرار بن الخطاب يقول بعد بدر :

ــ من قتل أبا الحكم ؟

فيقال :

ــ ابن عفراء .

ــ من قتل أمية بن خلف ؟

ــ خبير بن بساف .

ــ من قتل عقبة بن أبى معيط ؟

ــ عاصم بن ثابت .

ــ من أسر سهيل بن عمرو ؟

ــ مالك بن الدخشم .

فلما خرجوا إلى أحد كان يقول :

ــ إن قاموا فى صياصيهم فهى منيعة لا سبيل لنا إليهم نقيم أياما ثم نصرف ، وإن خرجوا إلينا من صياصيهم أصبنا منهم فإن معنا عددا أكثر من عددهم ونحن قوم موتورون خرجنا بالظعن يذكرننا قتلى بدر ، ومعنا كراع ولا كراع معهم وسلاحنا أكثر من سلاحهم .

فلما التقى الجمعان وقلب ضرار بن الخطاب ينبض بالحقد على الأنصار ولاحت الهزيمة لقريش ، قال ضرار فى نفسه :

ــ هذه أشد من وقعة بدر .

وانطلقت الهتافات من حناجر المسلمين :

ــ أمت .. أمت .

ونادى المشركون :

ــ يا للعزى .. يا لهبل ..

والتقط شريح بن قانط لواء المشركين فصار هدفا لصناديد المسلمين وما أسرع أن قتل ، ثم حمله صواب غلام ابن عبد الدار ، فانطلق قزمان إليه فحمل عليه فقطع يده اليمنى ، فاحتمل اللواء باليسرى فقطع اليسرى ، فاحتضن اللواء بذراعيه وعضديه وحنى عليه ظهره وقال :

— يا بني عبد الدار هل اعتذرت ؟

فحمل عليه قزمان فقتله كما قتل طلحة كبش الكتيبة من قبل ، وخرج عبد الرحمن بن أبي بكر فقال :

— من يبارز ؟

فنهض إليه أبوه أبو بكر شاهرا سيفه ، فقال له رسول الله — ﷺ — :

— شِم سيفك وارجع إلى مكانك ومتعنا بنفسك .

وحملت خيل المشركين على المسلمين فاستقبلهم الرماة بالنبل فارتد الفرسان متفرقين ، وحمل المسلمون على المشركين فأضعفوهم قتلا ، وراحت هند بنت عتبة والنسوة اللائى معها يضربن بالدفوف خلف الرجال ويقلن :

نحن بنـــات طارق	نمشى على النمارق[1]
مشى القطا النوازق[2]	والمسك فى المفـــارق
والـــدر فى المخانـــق	إن تقبلـــوا نعانـــق
ونفـــــرش النمارق	أو تدبـــروا نفـــارق

فراق غير وامق

---

(١) النمارق : جمع نمرقة وهى البساط ، كناية عن الشرف .

(٢) الخفاف .

وكان حنظلة بن أبى عامر تزوج جميلة بنت عبد الله بن أُبى بن سلول فأدخلت عليه فى الليلة التى فى صبيحتها قتال أُحد ، وكان قد استأذن رسول الله — ﷺ — أن يبيت عندها فأذن له ، فلما صلى الصبح غدا يريد النبى — ﷺ — ، فلزمته جميلة فعاد فكان معها فأجنب منها ، ثم أراد الخروج وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه قد دخل بها ، فقد رأت فى منامها كأن السماء فرجت فدخل فيها ثم أُطبقت ففطنت إلى أنها الشهادة ، فأشهدت عليه أنه دخل بها حتى إذا ما علقت منه ثبتت بنوة الوليد .

وأخذ حنظلة بن أبى عامر سلاحه فلحق برسول الله — ﷺ — بأُحد وهو يسوى الصفوف ، فلما انكشف المشركون اعترض حنظلة لأبى سفيان بن حرب فضرب عرقوب فرسه فاكتسعت الفرس ووقع أبو سفيان إلى الأرض ، فجعل يصيح :

— يا معشر قريش أنا أبو سفيان بن حرب !

وحنظلة يريد ذبحه بالسيف ، فأسمع الصوت رجالا لا يلتفتون إليه من الهزيمة ، حتى عاينه الأسود بن شعوب فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه ، ومشى حنظلة إليه فى الرمح فضربه ثانية فقتله وهرب أبو سفيان يعدو على قدميه فلحق ببعض قريش فنزل عن صدر فرسه وردف وراءه أبا سفيان .

وكان الشيخان حسيل بن جابر ورفاعة بن وقش شيخين كبيرين قد رفعا فى الآطام مع النساء ، فقال أحدهما لصاحبه :

— لا أبا لك ! ما نستبقى من أنفسنا ! فوالله ما نحن إلا هامة اليوم أوغد وما بقى من أجلنا قدر ظمء[1] دابة ، فلو أخذنا أسيافنا فلحقنا

---

(١) يقال : ما بقى منه إلا ظمء دابة أى لم يبق من عمره إلا اليسير .

برسول الله — ﷺ — ، لعل الله يرزقنا الشهادة .

فلحقا برسول الله — ﷺ — وقد حمى وطيس القتال فراحا يصولان ويجولان فى صفوف قريش يقتلان من يلتقيان به وقد استبشرا بنصر الله ، وإذا بسيف من سيوف المشركين يقضى على رفاعة بن وقش الشيخ الذى خرج يلتمس الشهادة فرزقه الله الشهادة ليكون فى عليين مع الأنبياء والشهداء والصالحين .

وراح أبو دجانة يضرب بسيف رسول الله عليه السلام العدو حتى انحنى وصار كأنه منجل والزبير بن العوام يرقبه فى إعجاب . ورأى أبو دجانة إنسانا يحمس الناس حمسا شديدا ويوقد الحرب ويثيرها فعمد إليه ، فلما حمل عليه بالسيف ولول فعلم أنه امرأة ، فأكرم سيف رسول الله — ﷺ — أن يضرب به امرأة . إنها كانت هند بنت عتبة تشجع قريش على القتال ليثأروا لقتل أبيها وعمها وأخيها يوم بدر .

وأقبل رجل من المشركين مقنعا بالحديد يقول :

— أنا ابن عويف .

فتلقاه رشيد الأنصارى الفارسي فضربه على عاتقه فقطع الدرع وقال :

— خذها وأنا الغلام الفارسى .

ورسول الله — ﷺ — يرى ذلك ويسمعه ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— ألا قلت خذوها وأنا الغلام الأنصارى ؟

فعرض لرشيد أخو ذلك المقتول يعدو كأنه كلب وهو يقول :

— أنا ابن عويف .

فضربه رشيد على رأسه وعليه المغفر ففلق رأسه وقال :

— خذها وأنا الغلام الأنصارى .

فتبسم رسول الله — ﷺ — وقال :

— أحسنت يا أبا عبد الله .

وغدا قزمان يلعب بالسيف يقطع به الرقاب وصوت النسوة يدوى فى أذنيه : « ما أنت إلا امرأة ، خرج قومك وبقيت فى الدار » . فتثور دماؤه فى عروقه فيغوص فى صفوف قريش يضرب منهم كل بنان لعل أصوات النسوة الساخرة تصمت عن أن تدوى فى عين ذاته ذلك الدوى الذى كان أقسى على نفسه من كل أهوال القتال .

وحاول خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل وفرسان قريش أن يحملوا على المسلمين ولكن الرماة الذين أسندوا ظهورهم إلى أُحد راحوا يصوبون إليهم النبال ، فصهلت الخيل ولوى الفرسان أعنتهم فارتدوا فى الوادى متفرقين لا يلوون على شىء .

ووقف وحشى خلف شجرة وفى يده حربته يرصد حركات حمزة وسكناته وصوت جبير بن مطعم يداعب خياله : « إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق » . إنها رمية من حربته تستقر فى قلب حمزة ثم يسترد بعدها حريته ، فطفق يتبع حمزة بعينيه فى كره وفره ، إنه يحصد الناس بسيفه ويمشى إليهم كالأسد قد كشر عن أنيابه ، ينقض على فريسته وإن هى إلا ضربة واحدة فيتركه كأمس الدابر وهو يقول :

— أنا أسد الله . أنا ابن عبد المطلب .

وضرب حمزة رجلا ضربة أطاحت برأسه فانكمش وحشى وهو فى مكمنه . فحمزة قتل ثلاثين من قريش وحده ، ولو التفت ناحية الشجرة

وخطر له أن يتربص به لانقض عليه انقضاض الصاعقة وقتله قبل أن يستمتع بحريته .

وهز وحشي الحربة في يده وصوبها إلى حمزة ، وقبل أن يطلقها كان حمزة قد التفت إلى سباع بن عبد العزى فقال له :

ـــ أقبل يا بن مقطعة البظور .

كانت أمه أم أنمار مولاة شريق والد الأخنس ختانة بمكة ، وكان سباع يعادى الله ورسوله وكان من المكذبين . فشد حمزة عليه ورفع سيفه وهوى به فإذا بسباع في مثل لمح البصر يسقط على الأرض وقد سالت دماؤه يلفظ آخر الأنفاس .

وتقاصرت نفس وحشي فقد كان سباع تمام واحد وثلاثين قتلهم حمزة ، إنه يقاتل بين يدى ابن عمه محمد بن عبد الله بسيفين ويقول :

ـــ أنا أسد الله .

وملأ الخوف قلب وحشي وبات يخشى أن تنتهى المعركة بهزيمة قريش دون أن ينال من حمزة فيظل يرسف في العبودية ، فجعل يرصده في غدواته وروحاته بين صفوف المشركين لعل فرصة تسنح له يقتل فيها حمزة ويسترد حريته .

وكر خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وفرسان قريش على المسلمين مرة أخرى فإذا بالنبال تتطاير من الرماة الذين أسندوا ظهورهم إلى جبل أُحد لتستقر في أعين الخيل أو في رقاب الفرسان وصدورهم ، فانجفل الفرسان مرتدين ليتفرقوا في الوادى وليصبحوا هدفا لأسياف حمزة وعلى والزبير وأبي دجانة وصناديد المسلمين .

وارتفعت الأصوات تجلجل عند أُحد ، المسلمون يهتفون :

— أمت .. أمت .

وقد استبشروا بنصر الله ، والمشركون يهتفون :

— يا للعزى يا لهبل !

والنسوة من قريش يحمسن الرجال بالدفوف . وأقبل حمزة بن عبد المطلب وقد شهر سيفه ليقاتل بين يدى رسول الله ويقول :

— أنا أسد الله .

فبينا هو كذلك إذ عثر عثرة وقع منها على ظهره فانكشفت الدرع عن بطنه ، فلاحت لوحشى الفرصة التى كان يرصدها مذ نشب القتال فى بطن أُحد ، فهز حربته ثم دفعها عليه فإذا بها تنفذ من تحت سرته لتخرج من بين رجليه .

وندت من حمزة صرخة مكتومة ونظر فرأى وحشى خلف الشجرة فحمل نفسه حملا لينطلق إليه يريد أن يقتل ذلك العبد الحبشى الذى غدر به ، ولكنه عجز عن مواصلة السير فوقع على الأرض وهو يلهث .

ورفع رأسه لينظر فإذا بجبل أحد يدور فى الفضاء ، وإذا بالمدينة البعيدة يطبق عليها الظلام ، وإذا بأصوات المسلمين التى كانت تدوى كالرعد : أمت .. أمت تخفت . ولم يعد يرى بعينيه ولكنه كان يرى ببصيرته أول يوم أعلن فيه إسلامه ، يوم أن ذهب إلى أبى جهل وشجه بقوسه وهو فى مجلسه عند الكعبة لما سمع أن أبا جهل قد أساء إلى ابن أخيه ، وكان يرى صناديد قريش يوم بدر لما كانوا يتهاوون جثثا هامدة تحت ضربات سيفه البتار . وغاب عن الدنيا بينما كانت أصوات عذبة تنسحب فى أذنيه تبشره بجنات عرضها السموات والأرض ، فإذا بأساريره تنبسط وإذا بروحه تعود إلى ربها آمنة مطمئنة .

وجاءه وحشي وقد سكن روعه فأخذ حربته ثم انتحى إلى العسكر ولم يكن له فى شيء حاجة غيره .

واشتد القتال بين المشركين وحاول الرجال الفرار ، فخفف النسوة إلى كل من هم بأن يولى الأدبار وقدمن إليه مكحلا ومرودا مما كان معهن وقلن له :

ـــ إنما أنت امرأة .

فكان الرجل يعود فيقاتل خوفا من العار . ولم تنفع الدفوف ولا المكاحل ولا المراود للرجال فقد ولوا منهزمين ونجوا على متون خيلهم ، وجعلت النسوة يتبعن الرجال على أقدامهن فجعلن يسقطن فى الطريق ، وقعدت هند بنت عتبة وكانت امرأة ثقيلة خاشية من الخيل ما بها مشي ومعها امرأة أخرى ، وقد لاح فى وجه هند الفزع والانكسار .

٣

أقبل وهب بن قابوس المزنى ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس بغنم لهما من جبل مزينة ، فوجدا المدينة خلوا فسألا :

— أين الناس ؟

— بأُحد . خرج رسول الله — ﷺ — يقاتل المشركين من قريش .

فقالا :

— لا نبتغى أثرا بعد عين .

فخرجا حتى أتيا النبى — ﷺ — بأُحد ، فيجدان القوم يقتتلون والدولة لرسول الله — ﷺ — وأصحابه ، فأغارا مع المسلمين ، وكان المشركون قد خلفوا العبيد والنساء فى العسكر بعد أن صاح أبو سفيان فى الناس :

— يا معشر قريش خلو غلمانكم على متاعكم يكونوا هم الذين يقومون على رحالكم .

فجمع العبيد الرحال بعضها إلى بعض وعقلوا الإبل ، وانطلق القوم على تعبئتهم ميمنة وميسرة . وألبس العبيد الرحال الأنطاع وراحوا يرقبون المعركة الدائرة بين ساداتهم وبين المسلمين ، وإذا أصحابهم منهزمون واللواء قد سقط على الأرض بعد أن قتل أصحابه واحدا بعد واحد ، قد ولوا لا يلوون على شىء ونساؤهم يدعون بالويل بعد فرحهن وضربهن بالدفوف ، وألقين بالدفوف وقصدن الجبل كاشفات سيقانهن يرفعن

ثيابهن والمسلمون يتبعون أعداءهم يضعون فيهم السلاح وقد دخلوا معسكر قريش يقتلون وينهبون .

كان العبيد وبعض النسوة فى الرحال فأحدق المسلمون بهم وقد استسلم العبيد والنساء للأمر ، وراح المسلمون ينتهبون العسكر وإذا برجل من المسلمين ينقض على أحد العبيد يقول له :

ــ أين مال صفوان بن أمية ؟

فقال العبد :

ــ ما حمل إلا نفقة فى الرحل .

فخرج المسلم يسوق العبد حتى أخرج النفقة من العيبة خمسين ومائة مثقال ذهبا .

وولى رجال قريش وأيس من كان فى العسكر من نصرتهم . وانحاش النساء فهن فى حجرهن سلمٌ لمن أرادهن . ووجد عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح منطقة فى العسكر فيها خمسون دينارا فشدها على حقويه من تحت ثيابه ، ووجد عباد بن بشر صرة فيها ثلاثة عشر مثقالا فألقاها فى جيب قميصه وفوقها الدرع وقد حزم وسطه . وراح قزمان ينتهب العسكر أقبح انتهاب . وغدا المسلمون يأخذون ما تصل إليه أيديهم فصار النهب فى أيدى المسلمين .

ورأى الرماة إخوانهم المسلمين ينتهبون عسكر المشركين فقال بعضهم لبعض :

ــ لم تقومون ها هنا فى غير شىء ؟ قد هزم الله العدو وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم .

فقال بعضهم :

— ألم تعلموا أن رسول الله — ﷺ — قال لكم : « احموا ظهورنا وإن غنمنا فلا تشركونا » ؟

فقال الآخرون :

— لم يرد رسول الله — ﷺ — هذا وقد أذل الله المشركين وهزمهم ، فادخلوا العسكر فانتهبوا مع إخوانكم .

واختلفوا فقام أميرهم عبد الله بن جبير يخطبهم وكان يومئذ معلما بثياب بيض ، فحمد الله وأمرهم بطاعة رسوله وألا يخالف أمره . فعصوه وانطلقوا فلم يبق معه إلا نفير ما يبلغون العشرة منهم الحارث بن أنس بن رافع يقول :

— يا قوم ، اذكروا عهد نبيكم إليكم وأطيعوا أميركم .

فأبوا وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون وخلوا الجبل . فنظر خالد ابن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله فكر بالخيل وتبعه عكرمة بالخيل فانطلقا إلى موضع الرماة فحملوا عليهم ، فرماهم القوم حتى أصيبوا ، ورمى عبد الله بن جبير حتى فنيت نبله ، ثم طاعن بالسيف حتى انكسر ثم كسر جفن سيفه فقاتل حتى قتل ، وأفلت جعيل بن سراقة وأبو بردة بن نيار بعد أن شاهدا قتل عبد الله بن جبير .

ودخل الرماة العسكر وجاءوا إلى النهب قد تأبطوا قسيهم وجعابهم ، وقد صار كل واحد منهم فى يديه أو حضنه شيء قد أخذه ، ونظر ضرار بن الخطاب إلى الجبل الذى كان عليه الرماة فوجده خاليا فقال لخالد بن الوليد :

— يا أبا سليمان انظر وراءك .

فعطف عنان فرسه وكر وكروا معه فانتهوا إلى الجبل فلم يجدوا

عليه أحدا له بال ، وجدوا نفيرا فأصابوهم ، ثم دخلوا العسكر فلم يكن أحد يردهم وقد وجدوا المسلمين آمنين فوضعوا فيهم السيوف .

واختلط المسلمون وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضا وما يشعرون بما يصنعون من الدهش والعجل ، وجرح أسيد بن حضير جرحين ضربه أحدهما أبو بردة بن نيار وما يدرى ، يقول :

ـــ خذها وأنا الغلام الأنصارى .

وكر أبو زعنة فى حومة القتال فضرب أبا بردة ضربتين ما يشعر أنه هو ، يقول :

ـــ خذها وأنا أبو زعنة .

والتفت على حسيل بن حابر الشيخ الذى لحق برسول الله ـــ ﷺ ـــ طمعا فى الشهادة سيوف المسلمين وهم لا يعرفونه حين اختلطوا وابنه حذيفة يقول :

ـــ أبى ! أبى !

وظلوا به حتى قتل ، فقال حذيفة :

ـــ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ما صنعتم !

وكسر قزمان جفن سيفه وجعل يقول :

ـــ الموت أحسن من الفرار . يا للأوس ! قاتلوا على الأحساب واصنعوا مثل ما أصنع .

ودخل بالسيف وسط المشركين فقال المسلمون :

ـــ قد قتل .

وسرعان ما طلع يقول :

ـــ أنا الغلام الظفرى .

ثم عاد ليغوص فى صفوف المشركين وغاب مدة فقال الناس :

— قد قتل .

وما لبث أن طلع يصيح :

— أنا الغلام الظفرى .

وأصاب كعب بن مالك الجراح ، فلما رأى المشركين يمثلون بالمسلمين أشد المثل وأقبحها قام فتنحى عن القتلى ، فإنه لفى موضعه أقبل خالد بن الأعلم العقيلى يحوش المسلمين يقول :

— استوسقوا (اجتمعوا) كما يستوسق جُرْب الغنم .

وهو مدجج فى الحديد يصيح :

— يا معشر قريش لا تقتلوا محمدا ، إئسروه أسرا حتى نعرفه ما صنع .

ويصمد له قزمان فيضربه بالسيف ضربة على عاتقه حتى يرى منه سحره[1] ثم أخذ سيفه وانصرف . فطلع عليه من المشركين فارس ما يرى منه إلا عيناه فحمل عليه قزمان فضربه ضربة جزله اثنين ، فإذا هو الوليد بن العاص بن هشام المخزومى .

وأقبل عبد الله بن شهاب الزهرى يقول :

— دلونى على محمد ، فلا نجوت إن نجا .

وإن رسول الله — ﷺ — إلى جنبه ما معه أحد ، ثم جاوزه ، ولقى عبد الله بن شهاب صفوان بن أمية فقال له صفوان :

— ترِحت ! هل ضربت محمدا فقطعت هذه الشافة فقد أمكنك الله منه .

— وهل رأيته ؟

---

(١) السحر : الرئة .

ـــ نعم أنت إلى جنبه .

ـــ والله ما رأيته . أحلف بالله إنه لممنوع . خرجنا أربعة تعاقدنا وتعاهدنا على قتله فلم نخلص إلى ذلك .

وقتل قزمان من قريش سبعة وأصابته الجراحة وكثرت فيه ، فوقع فمر به قتادة بن النعمان فقال له :

ـــ أبا الغيداق .

قال قزمان :

ـــ لبيك .

ـــ هنيئا لك الشهادة .

ـــ إنى والله ما قاتلت يا أبا عمرو على دين ، ما قاتلت إلا على الحِفاظ ، أن تسير قريش إلينا فتطأ سعَفنا .

فآذته الجراحة فأخذ سهما من كنانته فقتل به نفسه ، وصدق رسول الله عليه السلام فإنه كان يقول إذا ذكر له قزمان : إنه من أهل النار .

وأقبل الحباب بن المنذر بن الجموح يصيح :

ـــ يا آل سلمة !

فأقبلوا يقولون :

ـــ لبيك داعى الله ! لبيك داعى الله .

فضرب الحباب بن المنذر جبَّار بن صخر ضربة فى رأسه مثقلة وما يدرى .

ورأى المسلمون أن يظهروا شعارهم بينهم حتى لا يضرب بعضهم بعضا فجعلوا يصيحون :

ـــ أمت .. أمت !

فكف بعضهم عن بعض ثم تفرقوا فى كل وجه وتركوا ما انتهبوا وخلوا الأسرى وألقوا ما حملوا من غنائم . فإذا بالذهب قد تناثر فى عسكر قريش وإذا بالنفائس تكسو الأرض .

ولم يزل لواء المشركين ملقى على الأرض حتى أخذته عمرة بنت علقة ورفعته لهم فاستداروا به واجتمعوا عنده .

وكانت عمارة المازنية زوج زيد بن عاصم قد خرجت يوم أُحد لتنظر ما يصنع الناس ومعها سقاء فيه ماء تسقى به الجرحى ، فانتهت إلى رسول الله — ﷺ — وهو فى أصحابه والريح للمسلمين . فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله فقامت تباشر القتال وتذب عنه بالسيف وترمى عن القوس . وولى الناس عن رسول الله فأقبل ابن قميئة يقول :

— دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا .

فاعترضت له هى ومصعب بن عمير فضربها ابن قميئة ضربة على عاتقها فأصابها وضربته ضربات ولكن كان عليه درعان فلم تنفذ إليه الجراح .

والتفت رسول الله إلى ابن عمارة ، فقال :

— يا بن عمارة .

— نعم .

— ارم .

فرمى بين يديه رجلا من المشركين بحجر وهو على فرس ، فأصيبت عين الفرس حتى وقع هو وصاحبه ، وجعل يعلوه بالحجارة حتى كاد يغطيه والنبى — ﷺ — ينظر إليه ويتبسم ، فنظر عليه السلام إلى جرح بأمه على عاتقها فقال :

ـــ أمك .. أمك .. اعصب جرحها بارك الله عليكم من أهل بيت .

فقالت أم عمارة :

ـــ ادع لنا الله يا رسول الله أن نرافقك فى الجنة .

ـــ اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة .

وكان قد تعاقد من قريش على قتل رسول الله ـــ ﷺ ـــ عبد الله بن شهاب الزهرى وابن قميئة أحد بنى الحارث بن فهر وعتبة بن أبى وقاص وأبىّ بن خلف الجمحى ، فرمى عتبة بن أبى وقاص رسول الله ـــ ﷺ ـــ بحجر فكسر رباعيته .

وأقبل ابن قميئة وهو يقول :

ـــ دلونى على محمد ، فوالذى يحلف به لئن رأيته لأقتلنه .

فوصل إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فعلاه بالسيف ، ورماه عتبة بحجر فأدمى شفتيه . وشجه ابن قميئة فى وجهه حتى غاب حلق المغفر فى وجنته . وكان عليه السلام فارسا وهو لابس درعين مثقل بهما فوقع رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى حفرة كانت أمامه فأصيبت ركبتاه ، جحشتا (خدشتا) لما وقع فى تلك الحفرة ، وكانت هناك حفر حفرها أبو عامر الفاسق كالخنادق للمسلمين ، وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ واقفا على بعضها وهو لا يشعر . ولم يفعل سيف ابن قميئة شيئا .

وتوارى رسول الله عليه السلام فى الحفرة فجاء إليه طلحة وعلى بن أبى طالب فراح طلحة يحمله من ورائه وعلى بن أبى طالب يأخذ بيديه حتى استوى قائما والدم يسيل من الشجة التى فى جبهته حتى أخضل لحيته .

وخف سالم مولى أبى حذيفة يغسل الدم عن وجهه ورسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول :

— كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله تعالى ؟

فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾[1] .

وحرص سعد بن أبي وقاص على قتل أخيه عتبة حرصا ما حرص على شيء قط ، فراح يتخرق صفوف المشركين يطلب أخاه ليقتله ، ولكنه راغ منه روغان الثعلب . فراح سعد يتخرق صفوف المشركين مرة ثانية وعتبة بن أبي وقاص يفر من أمامه فلما كانت المرة الثالثة قال له رسول الله — ﷺ — :

— يا عبد الله ما تريد ؟ أتريد أن تقتل نفسك ؟

فكف سعد عن طلب أخيه .

وأقبل أبو بكر يسعى إلى رسول الله — ﷺ — فإذا حلقتان من المغفر قد دخلتا فى وجهه — ﷺ — وإذا أبو عبيدة بن الجراح يقول لأبى بكر :

— أسألك بالله يا أبا بكر إلا تركتنى فأنتزعه من وجه رسول الله — ﷺ — ؟

فتركه أبو بكر فأخذ أبو عبيدة بثنيته حلقة المغفر فنزعها وسقط على ظهره وسقطت ثنية أبى عبيدة ، ثم أخذ الحلقة بثنيته الأخرى ، فصار أبو عبيدة فى الناس أثرم .

فعل بنو زهرة أخوال النبى الأفاعيل برسول الله — ﷺ — ، فقد حركهم أبو سفيان وهاجهم على الشر لأنهم رجعوا يوم بدر من الطريق إلى

---

(١) آل عمران ١٣٨ .

مكة فلم يشهدوها ، فاعترض عيرهم ومنعهم عنها وأغرى بهم سفهاء أهل مكة فعيروهم برجوعهم ونسبوهم إلى الجبن وإلى موالاة محمد — ﷺ — ، فأرادوا أن يعلنوا على الملأ أنهم ليسوا بجبناء وأنهم على مثل رأى قريش فى محمد عليه السلام .

وأقبل عبد الله بن حميد بن زهير حين رأى رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — قد سقط من ضربة ابن قميئة يركض فرسه مقنعا فى الحديد يقول :

— أنا ابن زهير . دلونى على محمد فوالله لأقتلنه أو لأموتن دونه .

فتعرض له أبو دجانة فقال :

— هلم إلى من يقى نفس محمد — صلى الله عليه وآله وسلم — بنفسه .

فضرب فرسه فعَرْقَبها[1] فاكتسعت ، ثم علاه بالسيف وهو يقول :

— خذها وأنا ابن خرشة .

وقتل عبد الله بن حميد ورسول الله ينظر ويقول :

— اللهم ارض عن ابن خرشة كما أنا عنه راض .

وصاح ابن قميئة :

— إن محمدا قد قتل .

وانهزمت طائفة من المسلمين إلى جهة المدينة ولم يدخلوها ، وقال رجال من المسلمين حيث قتل رسول الله عليه السلام :

---

(١) عرقبها : ضرب عرقوبها ، والعرقوب من رجل الناقة بمنزلة الركبة فى يدها .

— ارجعوا إلى قومكم يؤمنوكم .

وقال آخرون :

— إن كان رسول الله — ﷺ — قد قتل أفلا تقاتلون على دين نبيكم وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله شهداء ؟

وقال ثابت بن الدحداح :

— يا معشر الأنصار إن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يموت ، قاتلوا على دينكم فإن الله مظفركم وناصركم .

فنهض إليه نفر من الأنصار فحمل بهم على كتيبة فيها خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب . فحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فقتله وقتل من كان معه من الأنصار .

وقال جماعة :

— ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي ليأخذ لنا أمانا من أبي سفيان : يا قوم إن محمدا قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم ويقتلوكم .

وقال رجال من المنافقين :

— لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا .

وقال بعضهم :

— لو كان نبيا ما قتل فارجعوا إلى دينكم الأول .

وبينا عمر بن الخطاب فى رهط من المسلمين قعود مر بهم أنس بن النضر ابن ضمضم عم أنس بن مالك فقال :

— ما يقعدكم ؟

قالوا :

— قتل رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — .

— فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه .

ثم قام فجالد حتى قتل وبه سبعون ضربة فى وجهه .

ومر مالك بن الدخشم على خارجة بن زيد بن زهير وهو قاعد فى أمعائه ثلاثة عشر جرحا كلها قد خلصت إلى مقتل ، فقال له مالك :

— أعلمت أن محمدا قد قتل ؟

قال خارجة :

— فإن كان محمد قد قتل فإن الله حى لا يقتل ولا يموت ، وإن محمدا قد بلغ رسالة ربه فاذهب أنت فقاتل عن دينك .

ومر مالك بن الدخشم على سعد بن الربيع وبه اثنا عشر جرحا كلها قد خلصت إلى مقتل ، فقال :

— أعلمت أن محمدا قد قتل !

— أشهد أن محمدا قد بلغ رسالة ربه ، فقاتل أنت عن دينك فإن الله حى لا يموت .

وثبت — ﷺ — لما تفرقت عنه أصحابه وصار يقول :

— أنا رسول الله .

فما يعرج إليه أحد والنبل يأتى إليه من كل ناحية ، وقد ثبت معه طلحة ابن عبيد الله يدور حول النبى — ﷺ — يترس بنفسه لا يدرى أيقوم من بين يديه أو من ورائه أم عن يمينه أم شماله ، فيذب بالسيف عنه ههنا وههنا .

وحمل مصعب بن عمير اللواء وثبت به قبل ابن قميئة ، وكان ابن قميئة فارسا فضرب يد مصعب فقطعها ، فقال مصعب :

ـــ ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾[1] .

وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنى عليه ، فضربه فقطع اليسرى فضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول :

ـــ « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » .

ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه واندق الرمح ووقع مصعب وسقط اللواء ، فخف رجلان من المسلمين من بني عبد الدار هما سويبط بن حرملة وأبو الروم لالتقاط اللواء ، فأخذه أبو الروم وطفق يدافع عنه .

وأنثل طلحة كنانته بين يدى النبى ـــ ﷺ وكان فيها خمسون سهما ، وجعل يصيح :

ـــ نفسي دون نفسك يا رسول الله !

فلم يزل يرمى بها سهما سهما ورسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول له :

ـــ ارم يا أبا طلحة .

ويطلع رأسه من خلف أبي طلحة بين أذنه ومنكبه ، ينظر إلى مواقع النبل ، وأبو طلحة يقول :

ـــ نحرى دون نحرك .

وجاء سعد بن أبي وقاص وعاصم بن ثابت والسائب بن عثمان بن مظعون والمقداد بن عمرو وزيد بن حارثة وحاطب بن أبي بلتعة وعتبة بن غزوان وخرامش بن الصمة وقطبة بن عامر وبشر بن البراء بن معرور وأبو نائلة سلكان بن سلامة وقتادة بن النعمان لينضموا إلى طلحة وليذودوا عن الرسول ـــ عليه صلوات الله وسلامه ـــ .

وراح طلحة يرمى بنبله ورسول الله يقول :

---

(١) آل عمران ١٤٤ .

ـ لقد أوجب .

وأقبلت فرقة من المشركين تريد رسول الله ـ ﷺ ـ :

فقال عليه السلام :

ـ من لهذه الفرقة ؟

فقال وهب بن قابوس :

ـ أنا يا رسول الله .

فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا . ثم طلعت فرقة أخرى فقال رسول الله ـ ﷺ ـ :

ـ من لهذه الكتيبة ؟

فقال المزنى :

ـ أنا يا رسول الله .

فقام فذبها بالسيف حتى ولت ثم رجع ، وطلعت كتيبة أخرى فقال النبى ـ ﷺ ـ :

ـ من يقوم لهؤلاء ؟

فقال المزنى :

ـ أنا يا رسول الله .

ـ قم وأبشر بالجنة .

فقام المزنى مسرورا يقول :

ـ والله لأقيل ولا أستقيل .

فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف ورسول الله ـ ﷺ ـ ينظر إليه والمسلمون حتى خرج من أقصى الكتيبة ، ورسول الله ـ ﷺ ـ يقول :

— اللهم ارحمه .

ثم رجع إليهم ، فما زال كذلك وهم محدقون به حتى اشتملت عليه أسيافهم فقتلوه .

ورمى مالك بن زهير الجشمي بسهم يريد رسول الله — ﷺ — وكانت لا تخطىء رميته ، فاتقى أبو طلحة بيده عن وجه رسول الله — ﷺ — فأصاب خنصره فشل .

وجعل رسول الله — ﷺ — يذمر الناس ويحضهم على القتال ، وكان رجال من المشركين قد أوجعوا المسلمين بالرمى منهم حيان بن العرفة وأبو أسامة الجشمي ، فجعل النبى — ﷺ — يقول لسعد بن أبى وقاص :

— ارم فداك أبى وأمى !

فرمى فوقع السهم فى ثغرة نحر حيان ، فقال — ﷺ — لسعد :

— أجاب الله دعوتك ، وسدد رميتك .

وكان مالك بن زهير الجشمي أخو أبى أسامة الجشمي قد رمى المسلمين رميا شديدا ، وكان هو وريان بن العِرفة قد أسرعا فى أصحاب رسول الله — ﷺ — وأكثروا فيهم القتل يستتران بالصخر ويرميان ، فبينا هم على ذلك أبصر سعد بن أبى وقاص مالك بن زهير من وراء صخرة قد رمى وأطلع رأسه ، فرماه سعد فأصاب السهم عينه حتى خرج من قفاه ، فهب قائما ثم رجع فسقط جثة هامدة .

كان مع رسول الله نفير لا يتممون عشرة ، وأم عمارة المازنية وأبناؤها وزوجها بين يديه يذبون عنه والناس يمرون عنه منهزمين . ورأى رسول الله أم عمارة ولا ترس معها ورأى رجلا موليا معه ترس فقال عليه السلام :

ــ يا صاحب الترس ألق ترسك إلى من يقاتل .

فألقى ترسه فأخذته أم عمارة فجعلت تترس به عن النبى ــ ﷺ ــ وقد فعل بهم الأفاعيل أصحاب الخيل ، فأقبل رجل على فرس فضربها فترست له فلم يصنع سيفه شيئا وولى ، وضربت عرقوب فرسه فوقع على ظهره فجعل النبى ــ ﷺ ــ يصيح :

ــ يا بن عمارة . أمك أمك !

فخف ابنها يعاونها حتى قضيا عليه .

وراح ابنها عبد الله يصول ويجول حتى ضربه رجل من المشركين ولم يعرج عليه ومضى عنه ، وجعل الدم ينزف من عضده اليسرى لا يرقأ .

فقال رسول الله ــ ﷺ ــ :

ــ اعصب جرحك .

فأقبلت أمه إليه ومعها عصائب فى حقويها قد أعدتها للجراح فربطت جرحه والنبى ــ ﷺ ــ واقف ينظر ، ثم قالت :

ــ انهض يا بنى فضارب القوم .

فجعل رسول الله ــ ﷺ ــ يقول :

ــ ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟

وأقبل الرجل الذى ضرب ابنها عبد الله فقال رسول الله ــ ﷺ ــ :

ــ هذا ضارب ابنك .

فاعترضت له فضربت ساقه فبرك ، فتبسم رسول الله ــ ﷺ ــ حتى بدت نواجذه ثم قال :

ــ استقددت يا أم عمارة .

ثم أقبلوا يعلونه بالسلاح حتى أتوا على نفسه ، فقال النبي — ﷺ — :

— الحمد لله الذى أظفرك وأقر عينك من عدوك وأراك ثأرك بعينك !

وجاء على بن أبى طالب يدافع عن رسول الله عليه السلام ، فلما التف حوله عليه السلام بعض أصحابه قصدته كتيبة من بنى كنانة ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— يا على اكفنى هذه الكتيبة .

فحمل عليها وإنها لتقارب خمسين فارسا وهو عليه السلام راجل . فما زال يتضربها بالسيف حتى تفرقت عن رسول الله الحبيب . وقبل أن يلتقط على أنفاسه إذا بكتيبة من بنى عبد مناة بن كنانة تقصد رسول الله — ﷺ — فخف على إلى الفرسان وحمل عليهم فقتل خالد بن سفيان وأبا الشعثاء بن سفيان وأبا الحمراء بن سفيان وغراب بن سفيان ، فلما رأى القوم مقتل بنى سفيان بن عوف الأربعة وسيف على البتار تفرقوا عن رسول الله — ﷺ — وإذا بصوت يدوى فى المكان :

— لا سيْف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على !

وتترس(١) أبو دجانة دون رسول الله — ﷺ — فصار يقع النبل على ظهره وهو منحن حتى كثر فيه النبل .

وظل المسلمون يقاتلون وهم يحسبون أن رسول الله — ﷺ — قد قتل ، ورفع عباس بن نضلة صوته فقال :

— يا معشر المسلمين الله ونبيكم ! هذا الذى أصابكم بمعصية نبيكم ،

---

(١) كان بالنسبة له كالترس يتلقى الضربات .

وعدكم النصر فما صبرتم .

وكان معه خارجة بن أبى زهير وأوس بن أرقم بن زيد ، فنزع مغفره عن رأسه وخلع درعه وقال لخارجة بن زيد :

ــ هل لك فى درعى ومغفرى ؟

قال خارجة :

ــ لا ، أنا أريد الذى تريد .

فخالطوا القوم جميعا وعباس يقول :

ــ ما عذرنا عند ربنا إن أصيب نبينا وبنا عين تطرف ؟

فيقول خارجة لعباس بن نضلة المعروف بابن قوقل :

ــ لا عذر لنا والله عند ربنا ولا حجة .

وضرب عباس سفيان بن عبد شمس السلمى ضربتين فجرحه جرحين عظيمين ، ولكن سفيان طعنه طعنة أردته قتيلا . وأخذ خارجة بن زيد الرماح فجرح بضعة عشر جرحا ، فمر به صفوان بن أمية فعرفه فقال :

ــ هذا من أكابر أصحاب محمد وبه رمق فأجهز عليه .

وقتل أوس بن أرقم وراح صفوان بن أمية يمثل بخارجة ويقول :

ــ هذا ممن أغرى بأبى يوم بدر .

وغدا ينظر إلى ابن قوقل وإلى خارجة وابن أرقم وقد قتلوا فأحس أنه قد ثأر لمقتل أبيه أمية بن خلف يوم بدر ، فقال :

ــ الآن شفيت نفسى حين قتلت الأماثل من أصحاب محمد ، قتلت ابن قوقل وقتلت ابن أبى زهير وقتلت أوس بن أرقم .

وجعل سهل بن حنيف ينضح بالنبل عن رسول الله ــ ﷺ ــ فقال :

— نبلوا سهلا فإنه سهل .

ونظر رسول الله — ﷺ — إلى أبي الدرداء والناس منهزمون فى كل وجه ، فقال :

— نعم الفارس عويمر غير أنه لم يشهد أحدا .

وراح رسول الله — عليه السلام — يرمى بالنبل حتى فنيت نبله وانكسرت سية[1] قوسه ، وكان السائب بن مظعون والمقداد بن عمرو وزيد بن حارثة يرمون بالسهام دفاعا عن رسول الله — ﷺ — .

وأقبل رجل من بنى عامر بن لؤى يدعى شيبة بن المضرب يجر رمحه ، وهو على فرس أغر كميت مدججا فى الحديد يصيح :

— أنا أبو ذات الوذع ، دلونى على محمد .

فضرب طلحة عرقوب فرسه فسقطت به ، ثم تناول رمحه فما أخطأ به عن حدقته ، فخار كما يخور الثور ، فما برح واضعا رجله على خده حتى مات .

وراح مخيريق يقاتل مع رسول الله حتى قُتل ، فقال — ﷺ — :

— مخيريق خير يهود .

وأقبل من المسلمين بعد التولية قيس بن محرث مع طائفة من الأنصار وقد كانوا بلغوا بنى حارثة فرجعوا سراعا فصادفوا المشركين فى كرتهم ، فدخلوا فى حومتهم فما أفلت منهم رجل حتى قتلوا كلهم ، ولقى أبو سبرة ابن الحارث بن علقمة أحد المشركين فاختلفا ضربات ، كل ذلك يروغ أحدهما عن الآخر ، فنظر الناس إليهما كأنهما سبعان ضاريان يقفان مرة ويقتتلان أخرى ثم تعانقا فوقعا إلى الأرض جميعا ، فعلاه أبو سبرة فذبحه

---

(١) سية القوس : ما عطف من طرفيها .

بسيفه كما تذبح الشاة ولم يرتج المكان بالتكبير فقد كان المسلمون يدافعون عن أنفسهم دفاع المستميت وقد شغل كل منهم بنفسه . ونهض أبو سبرة عن الذبيح فأقبل خالد بن الوليد وهو على فرس أدهم أغر محجل يجر قناة طويلة ، فطعن أبا سبرة من خلفه فإذا بسنان الرمح يخرج من صدره ، ووقع أبو سبرة ميتا ، وانصرف خالد بن الوليد يقول :

ـــ أنا أبو سليمان !

وأقبل ضرار بن الخطاب على فرسه يجر قناة له طويلة ، وجعل يطلب الأكابر من الأوس والخزرج قتلة الأحبة فلا يرى أحدا ، ورأى عمر بن الخطاب فضربه بالقناة وقال :

ـــ يا بن الخطاب إنها نعمة مشكورة ، ما كنت لأقتلك .

فما هى إلا حلب ناقة حتى تداعت الأنصار بينها فأقبلت فخالطوا الكفار وهم فرسان ، وبذلوا أنفسهم حتى عقروا فرس ضرار بن الخطاب فترجل وغدا يدافع عن نفسه ، ولقى من رجل من المسلمين الموت الناقع حتى وجد ريح الدم والمسلم معانقه لا يفارقه حتى أخذته الرماح من كل ناحية .

وأقبل أمية بن أبى حذيفة بن المغيرة وهو دارع مقنع فى الحديد ما يرى منه إلا عيناه وهو يقول :

ـــ يوم بيوم بدر .

فيعرض له رجل من المسلمين فقتله أمية ، وصمد له على بن أبى طالب فضربه بالسيف على هامته وعليه بيضة وتحت البيضة مغفر فنبا سيفه وكان رجلا قصيرا . وراح أمية يضرب عليا بسيفه فيتقى بالدرقة[1] ، فلحج

---

(١) الدرقة : الوقاية تصنع من الصلب .

سيفه فضربه على وكانت درعه مشمرة فقطع رجليه فوقع ، وجعل يعالج سيفه حتى خلصه من الدرقة وجعل يناوش عليا وهو بارك حتى نظر على إلى فتق تحت إبطه فيحش فيه فمال فمات . وانصرف على ليقاتل أعداء الله وهو يصيح :

ــ أمت .. أمت .

وكانت نساء المسلمين قد رفعن فى الآطام ومعهن حسان بن ثابت وكان لا يشهد حربا ، فجاء نفر من يهود يرمون الأطم فقالت صفية بنت عبد المطلب أم الزبير بن العوام لحسان :

ــ دونك يا بن القريعة .

ــ لا والله لا أستطيع القتال .

وصعد يهودى إلى الأطم فقالت صفية لحسان :

ــ شد على يدى السيف ثم برئت .

ففعل فضربت عنق اليهودى ورمت برأسه إليهم ، فلما رأوه انكشفوا .

وكانت صفية فى الحصن فى أول النهار ترقب المعركة من بعيد . فرأت المزراق[1] يطير فى الهواء فقالت فى عجب :

ــ أوَمن سلاحهم المزاريق !

وما درت أنه هوى إلى أخيها حمزة ولا تشعر !

ثم خرجت آخر النهار لما عرفت انكشاف المسلمين برجوع حسان إلى أقصى الأطم ، فكان أول من لقيت على بن أبى طالب ابن أخيها فقال :

ــ ارجعى يا عمة فإن فى الناس تكشف .

---

(١) المزراق : رمح قصير .

— رسول الله — صلى الله عليه وسلم وآله ؟

— صالح .

— ادللني عليه حتى أراه .

فأشار إليه إشارة خفية فانتهت إليه وبه الجراحة .

وضرب ضرار بن الخطاب طلحة فى رأسه ضربتين ، ضربة وهو مقبل وضربة وهو معرض عنه ، وكان نزف منه الدم ، وجاء أبو بكر النبى — ﷺ — فقال عليه السلام :

— عليك بابن عمك .

فأتى طلحة بن عبيد الله وقد نزف الدم فجعل ينضح فى وجهه الماء وهو مغشى عليه ، ثم أفاق فقال :

— ما فعل رسول الله — ﷺ ؟

— خير ، هو أرسلنى إليك .

— الحمد لله . كل مصيبة بعده جلل[١] .

---

(١) قليلة .

٤

تفرق الناس لما صاح ابن قميئة :

— إن محمدا قد قتل .

فمنهم من ورد المدينة ، فكان أول من وردها يخبر أن محمدا قد قتل سعد بن عثمان أبو عبادة ، ثم ورد بعده رجال حتى دخلوا على نسائهم حتى جعل النساء يقلن :

— أعن رسول الله تفرون ؟

وكان رسول الله — ﷺ — خلف ابن أم مكتوم على المدينة يصلى بالناس وكان أعمى ، فجاء إلى الذين فروا يقول مؤنبا :

— أعن رسول الله تفرون ؟ دلونى على الطريق .

فدلوه ، فجعل يستخبر كل من لقى فى الطريق حتى لحق القوم وهو خائف أن يكون النبى — ﷺ — قد قتل حقا ، فلما اطمأن إلى سلامته عاد إلى المدينة ليصلى بالناس ويؤنب الذين فروا عن رسول الله .

وراحت الشمس تغيب خلف جبال أُحد ولم يزل المسلمون يحامون عن رسول الله — ﷺ — والمشركون يتكاثرون عليهم ويقتلون فيهم ، وكان أُبَى بن خلف على ظهر جواده يبحث بعينيه عن رسول الله — ﷺ — فقد كان أبَى يريد أن يقعد مع القاعدين لما خرجت قريش لقتال المسلمين يوم بدر لأنه سمع أن رسول الله — ﷺ — قال إنه سيقتله ، ولولا سخرية النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط ما خرج فى

ذلك اليوم . فلما افتدى من الأسر ببدر وأراد أن يفر من خوفه الذى يلاحقه قال : والله إن عندى لفرسا أعلفها كل يوم فرقا[1] من ذرة أقتل عليها محمدا .

ولمح أُبَى بن خلف جماعة من المسلمين فاندفع إليهم وهو يقول :

— أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا .

فاعترضه رجال من المسلمين فأمرهم رسول الله — ﷺ — أن يخلوا طريقه ، فأقبل وهو يقول :

— يا كذاب أين تفر ؟

وأخذ رسول الله — ﷺ — من الزبير بن العوام الحربة وانتفض بها انتفاضة شديدة ثم استقبله فطعنه فى عنقه ، فإذا بأُبَى بن خلف يكاد يموت من الرعب فقد تذكر أن محمدا قال إنه سيقتله وقد وقر فى وجدانه أن هذه الطعنة هى القاضية ، فقفل راجعا إلى صفوف قريش وفى قلبه خوف شديد وفى وجهه هلع .

وراح على بن أبى طالب يذب عن رسول الله فى ناحية وأبو دجانة فى ناحية يذب طائفة منهم ، وانفرد على بفرقة كثيرة السلاح فيها عكرمة بن أبى جهل فدخل وسطهم بالسيف فضرب به ، واشتملوا عليه حتى أفضى إلى آخرهم ثم كر فيهم الثانية حتى رجع من حيث جاء ، وكان الحباب بن المنذر بن الجموح يحوشهم كما تحاش الغنم وقد اشتملوا عليه حتى قيل :

— قد قتل .

ثم برز والسيف فى يده وافترقوا عنه ، وجعل يحمل على فرقة منهم وإنهم ليهربون منه إلى جمع منهم وصار الحباب إلى النبى — ﷺ — ، وكان

---

(١) الفرق : مكيال يسع اثنى عشر مدا من ذرة .

الحباب معلما بعصابة خضراء فى مغفره .

وأصيب عبد الرحمن بن عوف فى فيه فهتم وجرح عشرين جراحة فأكثر ، وجرح فى رجله فكان يعرج منها .

وراح الشماس بن عثمان يقاتل عن رسول الله وكان رسول الله — ﷺ — لا يأخذ يمينا ولا شمالا إلا رأى شماس بن عثمان فى ذلك الوجه يذب بسيفه عنه ، حتى غشى رسول الله — صلى الله عليه وسلم وآله — فترس من نفسه دونه حتى قتل .

وولى عثمان بن عفان والحارث بن حاطب وثعلبة بن حاطب وسواد بن غزية وسعد بن عثمان وعقبة بن عثمان وخارجة بن عمر وأوس بن فيظى فى نفر من بنى حارثة ، ولقيتهم أم أيمن فراحت تحثى فى وجوههم التراب وتقول لبعضهم :

— هاك المغزل فاغزل به .

وكان أنس بن النضر عم أنس بن مالك خادم النبى قد غاب عن بدر فشق عليه ذلك ، فلما كان يوم أحد ورأى انهزام المسلمين قال :

— اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع هؤلاء .

ونظر إلى صفوف الكافرين وقال :

— وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء .

وتذكر ما قاله لرسول الله — ﷺ : « يا رسول الله إنى غبت عن أول قتال وقع قاتلت فيه مع المشركين ، والله لئن أشهدنى الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع » .

فراح يقاتل فى ضراوة حتى إذا ما سمع قتل رسول الله قال لأصحابه :

— ما تصنعون بالحياة بعده ؟ موتوا على ما مات عليه رسول الله — ﷺ .

ثم استقبل القوم وقال لسعد بن معاذ :

— هذه الجنة ورب الكعبة أجد روحها دون أحد .

وراح يقاتل ويتلقى ضربات السيوف وطعنات الرماح ورميات السهام حتى خلصت إليه بضع وثمانون جراحة ، فاضت بعدها روحه ليلحق بالشهداء .

وكان عمرو بن الجموح رجلا أعرج ولكنه كان فى الرعيل الأول يذب عن رسول الله وهو يعرج فى مشيته ويقول :

— أنا والله مشتاق إلى الجنة .

كان له بنون أربعة يشهدون مع النبى — ﷺ — المشاهد أمثال الأسد ، وأراد قومه أن يحبسوه يوم أحد وقالوا :

— أنت رجل أعرج ولا حرج عليك ، وقد ذهب بنوك مع النبى — ﷺ — فقال :

— بخ ! يذهبون إلى الجنة وأجلس أنا عندكم !

وأخذ درقته وهو يقول :

— اللهم لا تردنى إلى أهلى .

فخرج ولحقه بعض قومه يكلمونه فى القعود ، فأبى وجاء إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إن قومى يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك ، والله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة .

— أما أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك .

فأبى ، فقال النبى — ﷺ — لقومه وبنيه :

— لا عليكم أن تمنعوه ، لعل الله يرزقه الشهادة .

وراح عمرو بن الجموح يقاتل عن نبيه عليه السلام وابنه يعدو فى أثره حتى رزقهما الله الشهادة وقتلا فى سبيل الله .

وخرجت عائشة فى نسوة تستروح الخبر حتى كانت بمنقطع الحرة وهى هابطة من بنى حارثة إلى الوادى ، لقيت هند بنت عمرو بن حزام أخت عبد الله بن عمرو بن حزام تسوق بعيرا لها عليه زوجها عمرو بن الجموح وابنها خلاد بن عمرو بن الجموح وأخوها عبد الله بن حزام وأبو جابر عبد الله فقالت لها عائشة :

ـــ عندك الخبر ، فما وراءك ؟

فقالت هند :

ـــ خير ، أما رسول الله عليه السلام فصالح وكل مصيبة بعده جلل ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء .

فقالت لها عائشة .

ـــ فمن هؤلاء ؟

ـــ أخى وابنى وزوجى قتلى .

ـــ فأين تذهبين بهم ؟

ـــ إلى المدينة أقبرهم بها .

وراحت تزجر بعيرها :

ـــ حلْ . حلْ .

فبرك البعير فقالت عائشة :

ـــ لثقل ما حمل .

قالت هند :

ـــ ما ذاك ، لربما حمل ما يحمله البعيران ولكنى أراه لغير ذلك .

فزجرته فقام ، فلما وجهت به إلى المدينة برك فتذكرت هند قول زوجها لما خرج :

« اللهم لا تردنى إلى أهلى » ، فوجهته راجعة إلى أحد فأسرع ، فرجعت إلى النبى ليقبره مع الشهداء .

وأقبل ثابت بن الدحداحة والمسلمون أوزاع[١] قد سقط فى أيديهم ، فجعل يصيح :

— يا معشر الأنصار إلىّ إلىّ . أنا ثابت بن الدحداحة ! إن كان محمد قد قتل فإن الله حى لا يموت ! قاتلوا عن دينكم فإن الله مظهركم وناصركم .

فنهض إليه نفر من الأنصار فجعل يحمل بمن معه من المسلمين وقد وقفت لهم كتيبة كثيرة السلاح فيها رؤساء المشركين : خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبى جهل وضرار بن الخطاب وجعلوا يناوشونهم . ثم حمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فطعنه فأنفذه فوقع ميتا ، وقتل من كان معه من الأنصار .

وعلم الذين بقوا من المسلمين أنه لا طاقة لهم بالمشركين فرأوا أن يصعدوا فى الجبل ليعتصموا به ، فانطلق رسول الله — ﷺ — والذين معه متوجهين إلى الشعب .

ورأى كعب بن مالك رسول الله فعرف عينيه تزهران من تحت المغفر ، فنادى بأعلى صوته :

— يا معشر المسلمين أبشروا . هذا رسول الله — ﷺ — .

فأشار إليه رسول الله — ﷺ — أن أنصت .

---

(١) أوزاع مشتتون .

وأقبل عثمان بن عبد الله بن المغيرة يعدو على فرس له أبلق يريد رسول الله — ﷺ — عليه لأمة كاملة وهو يصيح :

— لا نجوتُ إن نجوتَ !

فوقف رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — ، وعثر بعثمان فرسه فى بعض تلك الحفر التى حفرها أبو عامر للمسلمين فوقع الفرس لوجهه وسقط عثمان عنه . وخرج الفرس غائرا فأخذه بعض أصحاب رسول الله — ﷺ — ، ومشى الحارث بن الصمة إلى عثمان فاضطربا ساعة بالسيفين ، ثم ضرب الحارث رجله وكانت درعه مشمرة فبرك فأجهز عليه ورسول الله ينظر إلى قتالهما ، فسأل عن الرجل قيل :

— عثمان بن عبد الله بن المغيرة .

— الحمد لله الذى أحانه (أهلكه) .

وقد كان عبد الله بن جحش أسره من قبل ببطن نخلة حتى قدم به على رسول الله — ﷺ — فافتدى ورجع إلى قريش وغزا معهم أحدا ، ورأى مصرع عثمان عبيد بن حاجز العامرى أحد بنى عامر بن لؤى فأقبل يعدو كأنه سبع ، فضرب حارث بن الصمة ضربة على عاتقه فوقع الحارث جريحا حتى احتمله أصحابه ، وأقبل أبو دجانة على عبيد بن الحاجز فتناوشا وكل واحد منهما يتقى بالدرقة سيف صاحبه ، ثم حمل عليه أبو دجانة فاحتضنه ، ثم جلد به الأرض وذبحه بالسيف كما تذبح الشاة ، ثم انصرف ليلحق برسول الله .

وقال رسول الله — ﷺ — :

— من رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟

فقال رجل من الأنصار :

ـــ أنا أنظر يا رسول الله ما فعل .

فنظر فوجده جريحا فى القتلى وبه رمق[١] ، فقال له :

ـــ إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ أمرنى أن أنظر فى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟

ـــ أنا فى الأموات فأبلغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ منى السلام وقل له : إن سعد بن الربيع يقول : جزاك الله خيرا عنا ما جزى نبيا عن أمته ، وأبلغ قومك السلام عنى وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف .

فلم يبرح الأنصارى عنده حتى مات ، ثم جاء إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فأخبره فقال :

ـــ اللهم ارض عن سعد بن الربيع .

وانطلق رسول الله ـــ ﷺ ـــ ومن معه ليشتدوا فى الجبل وانتهى ومعه أبو بكر وعلى وطلحة والزبير والحرث بن الصمة إلى فم الشعب ، فخرج على بن أبى طالب حتى ملأ درقته ماء وغسل به عن وجه ابن عمه الدم ، وكان نساء المدينة قد خرجن وفيهم فاطمة بنت محمد عليه السلام ، فلما لقيت رسول الله اعتنقته وجعلت تغسل جراحاته وعلى يسكب الماء فتزايد الدم . فلما رأت ذلك أخذت شيئا من حصير فأحرقته بالنار حتى صار رمادا فأخذت ذلك الرماد وكدته حتى لصق بالجرح فاستمسك الدم .

وأراد رسول الله ـــ ﷺ ـــ ان يشرب من الماء الذى أحضره على بن أبى طالب فلم يستطع وقد كان عطشا ، ووجد ريحا من الماء كرهها

---

(١) رمق : بقية من روح .

فقال :

ـــ هذا ماء آجن .

فتمضمض منه للدم كان بفيه ثم مجه ، فخرج محمد بن مسلمة يطلب الماء مع النساء وكن أربع عشرة امرأة وقد جئن من المدينة يتلقين الناس يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ويسقين الجرحى ويداوينهم .

ولم يجد محمد بن مسلمة عند عائشة وأم سليم وحمنة بنت جحش ماء فقد فرغت القرب التى كانت على ظهورهن ، فذهب محمد بن مسلمة إلى قناة ومعه سقاؤه فجاء بماء عذب فشرب منه رسول الله ـــ ﷺ ـــ ودعا له بخير ، ثم قال :

ـــ لن ينالوا منا مثلها حتى نستلم الركن !

وكان أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى الجبل أوزاع يذكرون مقتل من قتل منهم ويذكرون ما جاءهم عن رسول الله ـــ ﷺ ـــ . وأراد رسول الله عليه السلام أن يعلو الصخرة التى فى الشعب ، فلما ذهب لينهض لم يستطع لكثرة ما خرج من دم رأسه ووجهه ، فقال له طلحة بن عبيد الله :

ـــ إن بى قوة فقم لأحملك .

فحمله حتى انتهى إلى الصخرة التى على فم شعب الجبل . فلما نظر المسلمون إليهم ظنوهم قريشا ، فجعلوا يولون فى الشعب هاربين منهم يظنونهم المشركين ، فجعل رسول الله ـــ ﷺ ـــ يبتسم إلى أبى بكر وهو على جنبه ويقول له :

ـــ ألح(١) إليهم .

---

(١) ألح : أمره أن يلوح لهم لعلهم يطمئنون ، .

فراح أبو بكر يليح إليهم وهم لا يعرجون حتى نزع أبو دجانة عصابة حمراء على رأسه فأوفى على الجبل ، فجعل يصيح ويليح فوقفوا حتى عرفوهم . ولقد وضع أبو بردة بن نيار سهما على كبد قوسه فأراد أن يرمى به رسول الله — ﷺ — وأصحابه . فلما تكلموا وناداهم رسول الله — ﷺ — أمسك . وفرح المسلمون برؤيته حتى لكأنهم لم تصبهم مصيبة ، وسروا لسلامته وسلامتهم من المشركين .

ورأى خالد بن الوليد وهو فى كتيبة خشناء عمر بن الخطاب وما معه أحد ، فالتفت إلى من معه ففطن إلى أنه ما عرفه منهم أحد غيره ، وخشى إن أغرى به من معه أن يصمدوا له ، فنظر إليه وهو متوجه إلى الشعب ليلحق برسول الله — ﷺ — وعف عن قتله ، فأم عمر حنتمة بنت هاشم بن المغيرة ابنة عم خالد .

وجعل رسول الله — ﷺ — يقول :

— ما فعل عمى ؟

وتذكر رسول الله ذكوان بن عبد قيس ذلك الرجل الشجاع الذى قام ليحرسه يوم بدر وحارب معه فى أحد ، فقال :

— من له علم بذكوان بن عبد قيس ؟

فقال على عليه السلام :

— أنا رأيت يا رسول الله فارسا يركض فى أثره حتى لحقه وهو يقول :

— لا نجوتُ إن نجوتَ .

فحمل عليه فرسه وذكوان راجل فضربه وهو يقول : خذها وأنا ابن علاج ! فقتله . فأهويت إلى الفارس فضربت رجله بالسيف حتى قطعتها من نصف الفخذ ، ثم طرحته عن فرسه فأجهزت عليه ، وإذا هو

أبو الحكم بن أخنس بن شريق بن علاج بن عمرو بن وهب الثقفى .

وجلس رافع بن خديج إلى جنب أبى مسعود الأنصارى وهو يذكر من قتل من قومه ويسأل عنهم ، فيخبر برجال منهم سعد بن الربيع وخارجة بن زهير وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون » ويترحم عليهم . وبعض المسلمين يسأل بعضا عن حيميه وذى رحمه فيهم ، يخبر بعضهم بعضا ، فبينا هم على ذلك إذا عدوهم فوقهم قد علوا وإذا كتائب المشركين بالجبل ، فنسوا ما كانوا يذكرون وندبهم رسول الله — ﷺ — وحضهم على القتال . وانتهى عمر إلى النبى — صلى الله عليه وسلم وآله — وهو يقول : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبل الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾[1] وأبو سفيان فى سفح الجبل ، فقال رسول الله — ﷺ — يدعو ربه :

— اللهم ليس لهم أن يعلونا .

فانكشفوا فقد كان أبو سفيان يحسب أن محمدا قد قتل وأن قتال الأوس والخزرج ومن بقى من المهاجرين سيكلفه شططا .

وجعل رسول الله — ﷺ — يتلفت باحثا عن عمه حمزة فلم يجده ، فقال :

— ما فعل عمى ؟ ما فعل عمى ؟

وسأل رسول الله — ﷺ — الحارث بن الصمة عن عبد الرحمن بن عوف ، فقال الحارث :

---

(١) آل عمران ١٤٤

— رأيته فى جنب الجبل .

وخرج الحارث بن الصمة يطلب حمزة بن عبد المطلب فالتقى بعبد الرحمن بن عوف فإذا بين يديه سبعة صرعى ، فقال له :

— ظفرت يمينك . أكل هؤلاء قتلت ؟!.

وألقى الله على المسلمين النعاس ، أمنة منه ، ما منهم رجل إلا يغط غطيطا حتى تناطحت التروس ، وسقط سيف بشر بن البراء بن معرور من يده وسقط سيف طلحة ، ثم فزعوا وكأنهم لم يصبهم من قبل نكبة .

٥

وصاح أبو سفيان :

ـــ يا معشر قريش ، أيكم قتل محمدا ؟

قال ابن قميئة :

ـــ أنا قتلته .

فقال له أبو سفيان وقد تهلل بالفرح :

ـــ نسورك كما تفعل الأعاجم بأبطالها .

وانتفخت أوداج ابن قميئة وانتظر فى لهفة لحظة التكريم . تلك اللحظة التى سيوضع فيها السوار حول معصمه اعترافا ببطولته . وراح أبو سفيان يطوف بأبى عامر الفاسق فى المعركة هل يرى محمدا بين القتلى ! فمر بخارجة بن زيد بن أبى زهير فقال :

ـــ يا أبا سفيان هل تدرى من هذا ؟

ـــ لا .

ـــ هذا خارجة بن زيد ، هذا أسيد بن الحارث بن الخزرج .

ومر بعباس بن عبادة بن نضلة إلى جنبه قال :

ـــ أتعرفه ؟

ـــ لا .

ـــ هذا ابن قوقل ، هذا الشريف فى بيت الشرف .

ثم مر بذكوان بن عبد قيس فقال :

ـــ هذا من ساداتهم .

ثم مر بابنه حنظلة بن أبى عامر وهـو مقتـول إلى جنب حمزة بن عبد المطلب وعبد الله بن جحش ، فلاح فى وجهه الأسى فقـال أبـو سفيان :

ـــ من هذا ؟

ـــ هذا أعز من ههنا على ، هذا ابنى حنظلة .

وراح أبو سفيان يضرب فى شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول :

ـــ ذق عُقَق(١) .

ومر الحليس سيد الأحابيش بأبى سفيان وهو يضرب فى شدق حمزة فاستنكر ما يفعل فقال :

ـــ يا بنى كنانة ، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحما .

ـــ ويحك اكتمها عنى فإنها كانت زلة .

ثم نظر أبو عامر إلى ابنه مليا فقال :

ـــ إن كنت أحذرك هذا الرجل من قبل هذا المصرع ، والله إن كنت لبرا بالوالد ، شريف الخلق فى حياتك ، وإن مماتك لمع سراة أصحابك وأشرافهم .

وألقى نظرة على حمزة ثم قال :

ـــ إن جزى الله هذا القتيل خيرا ، أو جزى أحدا من أصحاب محمد خيرا فليجزك .

ثم نادى :

ـــ يا معشر قريش حنظلة لا يمثل به ، وإن كان خالفنى وخالفكم .

---

(١) من العقوق : يقصد أن تنكر وتجاوز فى تنكره لقريش .

وقال أبو سفيان :

— ما نرى مصرع محمد ولو كان قتل لرأيناه ، كذب ابن قميئة !

ولقي خالد بن الوليد فقال :

— هل تبين عندك قتل محمد ؟

— لا . رأيته أقبل فى نفر من أصحابه مصعدين فى الجبل .

فقال أبو سفيان :

— هذا حق ، كذب ابن قميئة . زعم أنه قتله !

وجاء وحشى إلى هند بنت عتبة فقال لها :

— ماذا لى إن قتلت قاتل أبيك ؟

— سلنى .

فأخبرها أنه قتل حمزة فتهللت أساريرها فأعطته ثيابها وحليها ، وكان فى ساقيها خَدَمتان (خلخالان) من جزع ظفار (بلد باليمن) وأساور وخواتيم فى أصابع رجليها ثم قالت :

— إذا جئت مكة فلك عشرة دنانير .

ووقفت ترنو إلى وحشى فى نشوة ثم قالت :

— أرنى مصرعه .

فراحا يجوسان خلال الجثث التي ملأت أرض المعركة حتى إذا ما رأت حمزة قتيلا انقضت عليه وبقرت عن كبده فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها . وجاء نسوة قريش يمثلن بالقتلى . من أصحاب رسول الله ﷺ — ويجدعن الآذان والآنف حتى اتخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خَدَما (خلخالان) وقلائد ، ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها :

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سُعْر
ما كان عن عتبة لى من صبر ... ولا أخى وعمه وبَكْرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى ... شفيت وحشى غليل صدرى
فشكر وحشى على عمرى ... حتى ترم أعظمى فى قبرى

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب فقالت :

خَزِيت فى بدر وبعد بدر ... يا بنت وقاع عظيم الكفر
أفحمك الله غداة الفجر ... بالهاشميين الطوال الزهر
بكل قطاع حُسام يفرى ... حمزة ليثى وعلى صقرى
إذ رام شيب وأبوك غدرى ... فخضبا منه ضواحى النَّحر
ونذرك السوء فشر نذر

ولم يكن المسلمون يعلمون بمقتل حمزة ، فأرادت هند أن تعلنهم بالنبأ لتشفى غليل صدرها فصرخت بأعلى صوتها :

شَفَيت من حمزة نفسى بأحد ... حتى بقرت بطنه عن الكبد
أذهب ذاك عنى ما كنت أجد ... من لذعة الحزن الشديد المعتمد
والحرب تعلوكم بشؤبوب[1] برد ... تُقدم إقداما عليكم كالأسد

وأقبل أبو سفيان على فرس له حوراء فوقف على أصحاب النبى — ﷺ — وهم فى عرض الجبل . فنادى بأعلى صوته :

— أين ابن أبى قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ الحرب سجال ، حنظلة بحنظلة .

يعنى حنظلة بن أبى عامر بحنظلة بن أبى سفيان ، فقال عمر بن الخطاب :

---

(١) الشؤبوب : دفعة المطر الشديدة .

— يا رسول الله أجيبه ؟

— نعم فأجبه .

قال أبو سفيان :

— اعل هبل .

فقال رسول الله — ﷺ — لعمر :

— قل له : الله أعلى وأجل .

— إن لنا العزى ولا عزى لكم .

— الله مولانا ولا مولى لكم .

— ألا إن الأيام دول ، وإن الحرب سجال .

— ولا سواء ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار .

— إنكم لتقولون ذلك لقد جبنا إذا وخسرنا .

ثم قال :

— يا بن الخطاب قم إلىّ أكلمك .

فقام إليه فقال :

— أنشدك بدينك هل قتلنا محمدا ؟

— اللهم لا . وإنه ليسمع كلامك الآن .

— أنت عندى أصدق من ابن قميئة .

ثم صاح أبو سفيان ورفع صوته :

— إنكم واجدون فى قتلاكم عبثا ومُثْلا ، ألا إن ذلك لم يكن عن رأى سراتنا .

ثم أدركته حمية الجاهلية فقال :

— وأما إذا كان ذلك فلم نكرهه .

ولم يفكر أبو سفيان فى أن يصعد إلى الجبل ليقضى على محمد عليه السلام فالخيل لا تستطيع الصعود إليه ، وإن القوم إن صعدوا إليه رجالة لم يثقوا بالظفر به لأن معه أكثر أصحابه وهم مستميتون إن صعد القوم إليهم ، وإنهم لا يقتلون منهم واحدا حتى يقتلوا منهم اثنين أو ثلاثة لأنهم لا سبيل لهم إلى الهرب لكونهم محصورين فى قمة أحد ، فالرجل منهم يحامى عن خيط رقبته .

فقنع أبو سفيان والذين معه بما وصلوا إليه من قتل من قتل وأملوا يوما ثانيا يكون لهم فيه الظفر فنادى أبو سفيان :

ــ ألا إن موعدكم بدر الصفراء على رأس الحول .

فوقف عمر وقفة ينتظر ما يقول رسول الله ــ ﷺ ــ فقال له :

ــ قل نعم .

فانصرف أبو سفيان إلى أصحابه وأخذوا فى الرحيل ، فأشفق رسول الله ــ ﷺ ــ والمسلمون من أن يغيروا على المدينة فيهلك الذرارى والنساء ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ لسعد بن أبى وقاص :

ــ اذهب فأتنا بخبر القوم فإنهم إن ركبوا الإبل وجنبوا الخيل فهو الظعن إلى مكة ، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهو الغارة على المدينة ، والذى نفسى بيده إن ساروا إليها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم .

وتأهب سعد للانطلاق فى أثر القوم فقال له رسول الله ــ ﷺ :

ــ إن رأيت القوم يريدون المدينة فأخبرنى فيما بينى وبينك ولا تفت فى عضد المسلمين .

فتوجه سعد يسعى وأرصد فى نفسه إن أفزعه شىء رجع إلى النبى

— ﷺ — ، فخرج فى آثارهم حتى إذا كانوا بالعقيق[١] وهو بحيث يراهم ويتأملهم ركبوا الإبل وجنبوا الخيل ، فقال :

— إنه الظعن إلى بلادهم .

ثم وقفوا وقفة بالعقيق يتشاورون فى دخول المدينة فقالوا :

— بئس ما صنعنا ، قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشرذمة تركناهم . ارجعوا فاستأصلوهم .

فلما عزموا على ذلك ألقى الله تعالى فى قلوبهم الرعب فقالوا :

— لنا الغلبة ، فلو انصرفنا فإنه قد بلغنا أن ابن أبى انصرف بثلث الناس وقد تخلف الناس من الأوس والخزرج ، ولا نأمن أن يكروا علينا وفينا جراح وخيلنا عامتها قد عقرت من النبل .

وقال صفوان بن أمية :

— قد أصبتم القوم فانصرفوا ولا تدخلوا عليهم وأنتم كالون ولكم الظفر ، فإنكم لا تدرون ما يغشاكم ، فقد وليتم يوم بدر ، لا والله ما تبعوكم وكان الظفر لهم .

وانصرفوا إلى مكة فلما رآهم سعد منطلقين رجع إلى رسول الله — ﷺ — وهو كالمنكسر فقال :

— وجه القوم يا رسول الله إلى مكة . امتطوا الإبل وجنبوا الخيل .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— ما تقول ؟

— ما قلت يا رسول الله .

فخلا به فقال :

---

(١) موضع بالمدينة فيه عيون ونخيل .

ــ أحقا ما تقول ؟

ــ نعم يا رسول الله .

ــ فما بالى رأيتك منكسرا ؟

ــ كرهت أن آتى المسلمين فرحا بقفولهم إلى بلادهم .

فقال ــ ﷺ ــ :

ــ إن سعدا لمجرب .

وانطلقت قريش إلى مكة حتى إذا كانت بسرف على بعد بضعة أميال من مكة احتقن الدم فى عنق أُبَى بن خلف من أثر الرمح الذى صوبه إليه محمد ــ ﷺ ــ فقال :

ــ قتلنى والله محمد !

قالوا له :

ــ ذهب والله فؤادك ! والله إنْ بك من بأس .

ــ إنه قد كان قال : أنا أقتلك . فوالله لو بصق علىَّ لقتلنى .

ومات أُبَى بن خلف وهم قافلون به إلى مكة ، وصدق رسول الله ــ ﷺ ــ حين قال : أنا أقتله إن شاء الله .

٦

كان سعد بن مالك ممن ردهم رسول الله — ﷺ — من الشيخين(١) لم يجئ مع المقاتلة ، فلما كان من النهار بلغ المدينة مصاب رسول الله — ﷺ — وتفرق الناس عنه ، فجاء سعد مع غلمان بنى خُدرة يعرضون لرسول الله — ﷺ — ينظرون إلى سلامته فيرجعون بذلك إلى أهلهم ، فلقوا الناس متفرقين ببطن قناة ، فلم يكن لهم هِمَّة إلا النبى — ﷺ — ينظرون إليه .

فلما رأى النبى عليه السلام سعدا قال :

— سعد بن مالك ؟

— نعم بأبى أنت وأمى !

ودنا سعد من رسول الله — ﷺ — فقبل ركبته وهو على فرسه ، فقال عليه السلام :

— آجرك الله فى أبيك !

ثم نظر سعد إلى وجهه فإذا فى وجنتيه مثل موضع الدرهم فى كل وجنة ، وإذا شجة فى جبهته عند أصول الشعر ، وإذا شفته السفلى تَدمَى ، وإذا فى رباعيته اليمنى شَظيَّة ، وإذا على جرحه شىء أسود ، فسأل سعد بن مالك الناس :

---

(١) موضع بالمدينة استعرض فيه النبى — ﷺ — جيشه قبل أن يسير إلى أحد .

ــ ما هذا على وجهه ؟

ــ حصير محرق .

ــ من أدمى وجنتيه ؟

ــ ابن قميئة .

ــ فمن شجه فى وجهه ؟

ــ ابن شهاب .

ــ من أصاب شفتيه ؟

ــ عتبة بن أبى وقاص .

وكان حاطب بن أمية منافقا وكان ابنه يزيد بن حاطب رجل صدْق راح يحارب مع النبى ــ ﷺ ــ حتى حمل من المعركة جريحا وبه رمق ، فرجع به قومه إلى منزله فالتف حوله أهل الدار يبكون عنده ، فالتفت أبوه إليهم وقال :

ــ أنتم والله صنعتم هذا به .

ــ كيف ؟

ــ أغررتموه من نفسه حتى خرج فقتل .

فجعل المسلمون من أهل الدار من الرجال والنساء يقولون ليزيد :

ــ أبشر يا بن حاطب بالجنة .

فظهر الضيق فى وجه الشيخ فقال :

ــ بأى شىء تبشرونه ! أبجنة من حرمل (كفن) ! غررتم والله هذا الغلام من نفسه .

وكان رسول الله ــ ﷺ ــ يقول :

ــ ما فعل عمى ؟ ما فعل عمى ؟

فخرج الحارث بن الصِّمة فأبطأ ، فخرج علىّ عليه السلام يطلبه فيقول :

يا رب إن الحارث بن الصِّمهْ كان رفيقا وبنـا ذا ذمـهْ
قد ضل فى مهامه مهمـهْ يلتمس الجنـة فيها ثمهْ

حتى انتهى إلى الحارث ووجد حمزة مقتولا فاعتصر الحزن قلبه وطفرت الدموع إلى عينيه ، وإذا بالبطل الذى قال لزوجه فاطمة وهو يذهب ليأتى بماء ليغسل الدم عن وجه رسول الله عليه السلام : أمسكى هذا السيف غير ذميم . يجهش بالبكاء لا يدرى كيف يذهب بالنبأ الفاجع إلى رسول الله ، وكيف ينعى إليه حمزة أسد الله وأسد رسوله .

وعاد على وهو باسر الوجه يحمل نفسه حملا ، حتى إذا أقبل على رسول الله عليه السلام عرف الفاجعة فى وجهه فانقبض قلب الرسول ، وجعلت فاطمة تنظر إلى وجه زوجها فى حزن وإشفاق .

وأقبل رسول الله — ﷺ — حتى وقف على حمزة فوجده قد بقر بطنه ومثل به فجدع أنفه وقطعت مذاكيره ، فنظر — ﷺ — إلى شىء لم ينظر إلى شىء قط كان أوجع لقلبه منه وقال :

— لن أصاب بمثلك . ما وقفت موقفا أغيظ لى من هذا . رحمة الله عليك فإنك كنت ما علمتك فعولا للخيرات وصولا للرحم . أما والله لئن أظفرنى الله تعالى بقريش فى موطن من المواطن لأمثلن بسبعين منهم مكانك .

ووضعه فى القبلة ثم وقف على جنازته وانتحب حتى شهق ، وبلغ به الغشى وراح يقول :

— يا عم رسول الله وأسد الله وأسد رسول الله ، يا حمزة يا فاعل الخيرات ،

يا حمزة يا كاشف الكربات . يا حمزة يا ذاب عن وجه رسول الله .

ولما رأى المسلمون جزع رسول الله — ﷺ — على عمه قالوا :

— لئن أظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب .

وطلعت صفية فقال عليه السلام :

— يا زبير اغن عنى أمك .

فذهب الزبير إلى أمه وهو واله حزين وقال لها :

— يا أمه ، إن فى الناس تكشفا فارجعى .

— ما أنا بفاعلة حتى أرى رسول الله — ﷺ — .

وحال الأنصار بينها وبين رسول الله — ﷺ — فقال :

— دعوها .

فانطلقت إليه عليه السلام وقالت :

— أين ابن أمى حمزة ؟

فقال وهو حزين :

— هو فى الناس .

— لا أرجع حتى أنظر إليه .

ورأت صفية أخاها حمزة وقد مثل به فأحست بسكاكين تمزق أحشاءها ، وجلست عند رسول الله عليه السلام ، فجعل إذا بكت يبكى وإذا نشجت ينشج(١) . وجعلت فاطمة عليها السلام تبكى ، فلما بكت بكى رسول الله — ﷺ — ثم قال :

---

(١) النشيج : البكاء بصوت مرتفع .

ـــ لن أصاب بمثل حمزة أبدا .

وكفن حمزة رضى الله عنه بنَمِرة[١] كانوا إذا مدوها على رأسه انكشفت رجلاه وإن مدوها على رجليه انكشف رأسه ، فمدوها على رأسه وجعلوا على رجليه الإذخِر[٢] .

ونزل فى قبر حمزة على كرم الله وجهه والزبير وأبو بكر وعمر ورسول الله ـــ ﷺ ـــ جالس على حفرته .

وراح الناس يكفنون مصعب بن عمير الذى كان قبل الإسلام فتى مكة شبابا وجمالا ولباسا وعطرا ، إنه لم يترك إلا نمرة إذا غطوا بها رجليه خرج رأسه ، فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ غطوا بها رأسه واجعلوا على رجليه الإذخِر .

ونظر عليه السلام إلى مصعب بن عمير والحزن فى قلبه ثم قال :

ـــ لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حلة ولا أحسن لمة منك ، ثم أنت اليوم أشعث الرأس فى هذه البردة !

ثم أمر به فقبر ونزل فى قبره أخوه أبو الروم وعامر بن ربيعة وسويبطة بن عمرو بن حرملة .

وأمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن يدفن عبد الله بن عمرو بن حزام وعمرو بن الجموح فى قبر واحد لما كان بينهما من الصفاء فقال :

ـــ ادفنوا هذين المتحابيَّن فى الدنيا فى قبر واحد .

وقال لأهل القتلى :

ـــ احفروا وأوسعوا وأحسنوا وادفنوا الاثنين والثلاثة فى القبر وقدموا أكثرهم قرآنا .

---

(١) النمرة : شملة فيها خطوط .	(٢) الإذخر : الحشيش الأخضر .

أرخص لهم فى ذلك لما بالمسلمين من الجراح التى يشق معها أن يحفروا لكل واحد قبرا ، وجاء الناس يلتمسون قتلاهم ، ووجد بين القتلى عمرو ابن ثابت بن وقش جريحا ميتا ، فدنا منه قومه وهو بآخر رمق وقالوا فى دهش :

ــ ما جاء بك يا عمرو ؟

ــ الإسلام ، آمنت بالله ورسوله وأخذت سيفي وحضرت فرزقنى الله الشهادة .

ومات بين أيديهم بعد أن كان شاكا فى الإسلام وكان قومه يكلمونه فى الإسلام فيقول : لو أعلم ما تقولون حقا ما تأخرت عنه ، حتى إذا كان يوم أُحد بدا له الإسلام ورسول الله ــ ﷺ ــ بأُحد . فأخذ سيفه وأسلم وخرج حتى دخل فى القوم فقاتل حتى جرح وكتبت له الجنة ، ولم يصل لله تعالى سجدة .

وقال رسول الله ــ ﷺ ــ والدموع فى عينيه :

ــ لولا أن تجزع صفية ونساؤنا وتكون سنة من بعدى لتركنا حمزة ولم ندفنه حتى يحشر من بطون الطير والسباع .

وحمل أناس قتلاهم إلى المدينة فدفنوهم فى نواحيها ، فجاء منادى رسول الله ــ ﷺ ــ فقال :

ــ ردوا القتلى إلى مضاجعهم .

فأدرك المنادى واحدا لم يكن دفن فرُدَّ ، ومن دفن تركوه .

وجعل جابر بن عبد الله يبكى ويكشف الثوب عن وجه أبيه ، فجعل أصحاب النبى ــ ﷺ ــ ينهونه والنبى لم ينهه . ومر النبى ببشير بن عفراء وهو يبكى أباه فدنا منه وقال فى رقة :

— أما ترضى أن تكون عائشة أمك وأكون أنا أباك ؟

وجاءت امرأة من بني دينار تتلمس أهلها فى القتلى فقادوها إلى جثث مشوهة فقالت :

— من هذا ؟

— هذا أخوك .

— من هذا ؟

— هذا ابنك .

— من هذا ؟

— هذا زوجك .

— من هذا ؟

— هذا أبوك .

فلم تكترث بذلك بل صارت تقول :

— ما فعل رسول الله — ﷺ ؟

— أمامك .

فذهبت إليه حتى جاءته فأخذت بناحية ثوبه ثم جعلت تقول :

— بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لا أبالى إذ سلمت من عطب .

وأشرف رسول الله — ﷺ — على قتلى أحد وقال :

— أنا شهيد على هؤلاء وما من جرح يجرح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه ، اللون لون الدم والريح ريح المسك .

ثم تلا : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾[1] .

---

(١) آل عمران ١٦٩ .

وأراد — ﷺ — أن يتوجه إلى المدينة فركب فرسه وخرج المسلمون حوله عامتهم جرحى ومعه أربع عشرة امرأة ، فلما كانوا بأصل أحد قال — ﷺ — :

— اصطفوا حتى أثنى على ربى عز وجل .

فاصطف الرجال خلفه صفوفا وخلفهم النساء ، فقال :

— اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ولا هادى لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطى لمن منعت ولا مانع لمن أعطيت ولا مقرب لما أبعدت ولا مبعد لما قربت . اللهم إنى أسألك من بركتك ورحمتك وفضلك وعافيتك . اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول . اللهم إنى أسألك الأمن يوم الخوف والغناء يوم الفاقة ، عائذا بك اللهم من شر ما أعطيت ومن شر ما منعت . اللهم توفنا مسلمين . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم عذّب كفرة أهل الكتاب الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك . اللهم أنزل عليهم رجسك وعذابك إلـٰه الحق آمين .

ثم توجه — ﷺ — للمدينة فلقيته حَمْنة بنت جحش بنت عمته — ﷺ — فقال لها عليه السلام :

— احتسبى .

— من يا رسول الله ؟

— خالك حمزة .

— إنا لله وإنا إليه راجعون . غفر الله له ، هنيئا له الشهادة .

ثم قال لها :

— احتسبى .

— من يا رسول الله ؟

— أخاك عبد الله بن جحش .

— إنا لله وإنا إليه راجعون . غفر الله له ، هنيئا له الشهادة .

ثم قال لها :

— احتسبى .

— من يا رسول الله ؟

— زوجك مصعب بن عُمير .

— واحزناه !

وصاحت وولولت ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— إن زوج المرأة لبمكان ما هو لأحد .

واستمرت حمنة تولول على زوجها وتقول : واحزناه واحر قلباه .

فقال لها رسول الله — ﷺ — :

— لِم قلت هذا ؟

— تذكرت يتم بنيه فراعنى .

فدعا لها — ﷺ — ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم الخلف ، فتزوجت طلحة بن عبد الله فكان أوصل الناس لولدها .

٧

أقبل رسول الله — ﷺ — من أُحد على فرسه وقد أخذ بعنانها سعد ابن معاذ والمسلمون من حوله ، حتى نزل ببنى حارثة يمينا حتى طلع على بنى عبد الأشهل وهم يبكون على قتلاهم ، فقال :

— لكن حمزة لا بواكى له .

وبكى — ﷺ — فإذا بالعبرات تسيل على الخدود . وخرج النساء ينظرن إلى سلامة رسول الله — ﷺ — فخرجت إليه أم عامر الأشهلية وتركت النوْح ، فنظرت إليه وعليه الدرع كما هى فقالت :

— كل مصيبة بعدك جلل .

وخرجت كبشة بنت عُتبة بن معاوية بن بلحارث بن الخزرج تعدو نحو رسول الله — ﷺ — وهو واقف على فرسه وسعد بن معاذ آخذ بعنان فرسه ، فقال سعد :

— يا رسول الله أمى .

— مرحبا بها .

فدنت حتى تأملته فعزاها بابنها عمرو بن معاذ ، فقالت :

— أما إذ رأيتك سالما فقد اشتويتُ المصيبة (استقللتها) .

— يا أم سعد بشرى أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا فى الجنة جميعا وقد شفعوا فى أهليهم .

— رضينا يا رسول الله ، ومن يبكى عليهم بعد هذا ؟

ثم قالت :

— يا رسول الله ادع لمن خلَّفوا .

— اللهم أذهب حزن قلوبهم وآجر مصيبتهم وأحسن الخلف على من خلَّفوا .

ثم قال لسعد بن معاذ :

— حُلَّ يا أبا عمرو الدابة .

فحلَّ الفرس وتبعه الناس فقال :

— يا أبا عمرو إن الجراح فى أهل دارك فاشية ، فمن كان مجروحا فليقر فى داره وليداو جرحه ، ولا تبلغ معى بيتى عزمة منى .

فنادى فيهم سعد :

— عزمة من رسول الله — ﷺ — ألا يتبعه جريح من بنى الأشهل .

فتخلف كل مجروح وباتوا يوقدون النيران ويداوون الجراح وإن فيهم لثلاثين جريحا .

ومضى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة مع رسول الله — ﷺ — إلى بيته .

فلما جاء — ﷺ — بيته حمله السعدان وأنزلاه عن فرسه ، ثم اتكأ عليهما حتى دخل بيته .

ثم رجع سعد بن معاذ إلى نسائه فساقهن فلم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله — ﷺ — ليبكين حمزة .

وكان شماس بن عثمان المخزومى قد حمل إلى المدينة وبه رمق ، فأدخل على عائشة فقالت أم سلمة :

— ابن عمى يدخل إلى غيرى ؟

فقال رسول الله — ﷺ :

— احملوه إلى أم سلمة .

فحملوه إليها فمات عندها . فأمر رسول الله — ﷺ — أن يرد إلى أحد فيدفن هناك كما هو فى ثيابه التى مات فيها . وكان قد مكث يوما وليلة ولم يذق شيئا ، فلم يصل عليه رسول الله — ﷺ — ولا غسله .

وأمر أسيد بن حضير نساءه ونساء قومه أن يذهبن إلى بيت رسول الله — ﷺ — يبكين حمزة . وأذن بلال لصلاة المغرب فخرج رسول الله — ﷺ — يتوكأ على السعدين فصلى — ﷺ — بالناس ثم دخل بيته .

وغاب الشفق فأذن بلال بالعشاء فلم يخرج رسول الله — ﷺ — فلما ذهب ثلث الليل نادى بلال :

— الصلاة يا رسول الله .

فقام من نومه وخرج والنساء على باب المسجد يبكين حمزة رضى الله عنه ، فقال لهن :

— ارجعن رحمكن الله ، لقد واسيتن معى . رحم الله الأنصار فإن المواساة فيهم كما علمت قديمة .

ونهى نساء الأنصار عن النَّوح وقال له الأنصار :

— يا رسول الله بلغنا أنك نهيت عن النوح ، وإنما هو شىء نندب به موتانا ونجد فيه بعض الراحة فأذن لنا فيه .

— إن فعلن فلا يخمشن ولا يلطمن ولا يحلقن شعرا ولا يشقُقن جيبا .

وبات وجوه الأوس والخزرج تلك الليلة على بابه بالمسجد يحرسونه خوفا من قريش أن تعود إلى المدينة .

وراح ابن أُبى بن سلول والمنافقون معه يشمتون ويُسَرُّون بما أصاب

المسلمين ويظهرون أقبح القول ، ورجع عبد الله بن عبد الله بن أبى إلى أبيه وهو جريح ، فبات يكوى الجراحة بالنار حتى ذهب عامة الليل وأبوه يقول :

— ما كان خروجك مع محمد إلى هذا الوجه برأيى ، عصانى محمد وأطاع الولدان ! والله لكأنى كنت أنظر إلى هذا .

فقال ابنه :

— الذى صنع الله لرسوله وللمسلمين خير إن شاء الله .

وقال عمر بن الخطاب لحسان بن ثابت :

— يا أبا الفُريعة لو سمعت ما تقول هند ، ولو رأيت شرَّها قائمة على صخرة ترتجز بنا وتذكر ما صنعت بحمزة !

— والله إنى لأنظر إلى الحربة تهوى وأنا على فارع — أطمة — فقلت : والله إن هذه لسلاح ليس بسلاح العرب . وإذا بها تهوى إلى حمزة ولا أدرى ، ولكن أسمعنى بعض قولها أكفيكموها .

فأنشده بعض ما قالت ، فقال حسان يهجوها :

أشِرت لَكاعِ وكان عادتُها
لؤما إذا أشرت مع الكفر
وخرجت مَرقصةً إلى أُحد
فى القوم مقتبة على بَكر[1]
بَكر ثقال لا حراك به
لا عن معاتبة ولا زجر

---

(١) رقص البعير : أسرع فى سيره .

أخـــرجتِ ثائـــرة محاربـــة
بأبـــيك وابـــنك بعـــدُ فى بدر
وبعـــملكِ المتـــروك مُنجـــدلا
وأخيك معفريـــن فى الجفـــر[1]
فرجـــعتِ صاغـــرة بلا تِرة
منـــا ظفـــرت بها ولا وتـــر

وأظهرت اليهود القول السيئ وقالوا :

ــ ما محمد إلا طالب مُلك ، ما أصيب هكذا نبى قط فى بدنه وأصيب فى أصحابه .

وكان اليهود قد قالوا لما هزم الله المشركين يوم بدر :

ــ هذا والله النبى الأمى الذى بشرنا به موسى ونجده فى كتابنا بنعته وصفته ، وأنه لا ترد له راية .

فأرادوا تصديقه واتباعه ، ثم قال بعضهم لبعض :

ــ لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة له أخرى .

فلما كان يوم أُحد ونكب المسلمون شكوا وقالوا :

ــ لا والله ما هو به .

وكتب يهود المدينة إلى يهود العراق واليمن ومن بلغهم كتابهم من اليهود فى الأرض كلها : « إن محمدا ليس نبى الله فاثبتوا على دينكم وأجمعوا كلمتكم على ذلك » . فأجمعت كلمتهم على الكفر بمحمد ــ ﷺ ــ والقرآن . ففرحوا بذلك وقالوا :

ــ الحمد لله الذى جمع كلمتنا ولم نتفرق ولم نترك ديننا .

---

(١) الجفرة : سعة فى الأرض مستديرة .

وقالوا :

ــ نحن أهل الصوم والصلاة ونحن أولياء الله .

فأنزل الله فيهم : ﴿ ولا تحسبن الذين يفرحون بما أتَوْا ويُحِبُّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ﴾[1] .

وجعل المنافقون يخذلون عن رسول الله ــ ﷺ ــ ويأمرونهم بالتفرق عنه ، وقالوا لأصحاب النبي ــ ﷺ :

ــ لو كان ما قتل منكم عندنا ما قتل .

وسمع عمر بن الخطاب ذلك فى أماكن ، فمشى إلى رسول الله ــ ﷺ ــ يستأذنه فى قتل من سمع ذلك منهم من اليهود والمنافقين ، فقال له :

ــ يا عمر ، إن الله مظهر دينه ومعز نبيه ولليهود ذمة فلا أقتلهم .

ــ فهؤلاء المنافقون يا رسول الله يقولون .

ــ أليس يظهرون شهادة أن لا إلـه إلا الله وأنى رسول الله !

ــ بلى . وإنما يفعلون تعوذا من السيف وقد بان لنا أمرهم وأبدى الله أضغانهم عند هذه النكبة .

ــ إنى نهيت عن قتل من قال لا إلـه إلا الله محمد رسول الله يا بن الخطاب ، إن قريشا لن ينالوا ما نالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن .

وكان معاوية بن المغيرة قد انهزم يوم أُحد فمضى على وجهه فبات قريبا من المدينة ، فلما أصبح دخل المدينة فأتى منزل عثمان بن عفان وهو ابن عمه فضرب بابه . فقالت أم كلثوم زوجه :

ــ ليس هو ههنا .

---

(١) آل عمران ١٨٨ .

— ابعثي إليه ، فإن له عندي ثمن بعير ابتعته منه عام أول وقد جئته به ، فإن لم يجيء ذهبت .

فأرسلت إليه وهو عند رسول الله — ﷺ — يعتذر عن فراره ، فلما جاء قال لمعاوية :

— أهلكتني وأهلكت نفسك ! ما جاء بك ؟

— يا بن عم ، لم يكن أحد أقرب إلى ولا أمس رحما بي منك فجئتك لتجيرني .

فأدخله عثمان داره ، وصيره في ناحية منها .

ثم خرج إلى النبي — ﷺ — ليأخذ له منه أمانا ، فسمع رسول الله عليه السلام يقول :

— إن معاوية في المدينة وقد أصبح بها فاطلبوه .

فقال بعضهم :

— ما كان ليعدو منزل عثمان فاطلبوه به .

فدخلوا منزل عثمان فأشارت أم كلثوم إلى الموضع الذي صيره فيه فاستخرجوه ، فانطلقوا به إلى النبي — ﷺ — فقال عثمان حين رآه :

— والذي بعثك بالحق ما جئت إلا لأطلب له الأمان ، فهبه لي .

فوهبه له وأجله ثلاثا وأقسم لئن وجده بعدها يمشي في أرض المدينة وما حولها قتله .

وكان حُضير الكتائب ، والد أسيد بن حُضير جاء إلى بني عمرو بن عوف قبل قدوم رسول الله — ﷺ — إلى المدينة ، فكلم سويد بن الصامت وخوّات بن جُبير وأبا لُبابة بن عبد المنذر وسهل بن حُنيف فقال :

ــ هل لكم أن تزورونى فأسقيكم شرابا وأنحر لكم وتقيمون عندى أياما ؟

ــ نعم نحن نأتيك يوم كذا .

فلما كان ذلك اليوم جاءوا فنحر لهم جزورا وسقاهم خمرا وأقاموا عنده ثلاثة أيام ، وكان سويد بن الصامت يومئذ شيخا كبيرا فلما مضت الأيام الثلاثة قالوا :

ــ ما نرانا إلا راجعين إلى أهلنا .

فقال حُضير :

ــ ما أحببتم ، إن أحببتم فأقيموا وإن أحببتم فانصرفوا .

فخرج الفَتَيان بسويد بن الصامت يحملانه على جمل من السكر ، فمروا لاصقين بالحرة حتى كانوا قريبا من بنى عيينة فجلس سويد يبول وهو سكران ، فبصر به إنسان من الخزرج فخرج حتى أتى المجذّر بن زياد فقال :

ــ هل لك فى الغنيمة الباردة ؟

ــ ما هى ؟

ــ سُويد بن الصامت أعزل لا سلاح معه ، ثمل .

فخرج المجذر بن زياد بالسيف مصلتا ، فلما رآه الفتيان وهما أعزلان لا سلاح معهما وليا والعداوة بين الأوس والخزرج شديدة ، فانصرفا مسرعين وثبت الشيخ ولا حراك . فوقف المجذر بن زياد فقال :

ــ قد أمكن الله منك .

ــ ما تريد بى ؟

ــ قتلك .

ـ فارفع عن الطعام واخفض عن الدماغ ، فإذا رجعت إلى أمك فقل : إنى قتلت سُويد بن الصامت .

فقتله ، فكان قتله هو الذى هيج وقعة بُعاث .

فلما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة أسلم الحارث بن سويد بن الصامت وأسلم المجذر ولم ينس الحارث ثأره ، فشهدا بدرا فجعل الحارث ابن سويد يطلب المجذر فى المعركة ليقتله بأبيه فلا يقدر عليه يومئذ . فلما كان يوم أُحد وجال المسلمون تلك الجولة أتاه الحارث من خلفه فضرب عنقه وهو يحسب أن ما فعل سيطوى فى جوف الغيب .

٨

جاء عبد الله بن عوف صبيحة قدومه — ﷺ — من أُحد وأخبره أنه أقبل من أهله حتى إذا كان بمحل كذا إذا قريش قد نزلوا به ، فسمع أبو سفيان وأصحابه يقولون :

— ما صنعتم شيئا . قد بقى منهم رءوس يجمعون لكم فارجعوا نستأصل من بقى .

وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول :

— يا قوم لا تفعلوا فإنى أخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخزرج فارجعوا والدولة لكم ، فإنى لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم .

فقال — ﷺ — :

— أرشدهم صفوان وما كان يرشد .

فدعا رسول الله — ﷺ — أبا بكر وعمر وذكر لهما الخبر فقالا :

— يا رسول الله اطلب العدو لا يقتحمون على الذُّرية .

ورأى رسول الله — ﷺ — أن يخرج خلف قريش إرهابا للعدو وليبلغهم أنه — ﷺ — خرج فى طلبهم ليظنوا به قوة وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم ، فلما انصرف من صلاة الصبح ندب الناس وأمر بلالا ينادى أن رسول الله — ﷺ — يأمركم بطلب عدوكم ولا يخرج إلا من حضر القتال بالأمس .

وتهيأ رسول الله — ﷺ — للخروج ، فجاءه جابر بن عبد الله

فقال :

— يا رسول الله إنما تخلفت عن أُحد لأن أبى خلفنى على أخوات لى تسع وقال : « يا بنى إنه لا ينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ، ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله — ﷺ — لعل الله يرزقنى الشهادة فتخلف على أخواتك » . فاستخلفت عليهن واستأثر علىَّ بالشهادة ، فائذن لى يا رسول الله معك .

فأذن له رسول الله — ﷺ .

وكان عبد الله ورافع ابنا سُهيل بن رافع قد شهدا أُحدا فرجعا جريحين ، فلما أذن رسول الله — ﷺ — بالخروج فى طلب العدو قال عبد الله لأخيه رافع :

— أتفوتنا غزوة مع رسول الله — ﷺ — ! والله ما عندنا دابة نركبها ولا ندرى كيف نصنع ، انطلق بنا .

— لا والله ما بى مشى .

— انطلق بنا .

فخرجا يزحفان ، وكان عبد الله أيسر جراحا من رافع ، فكان إذا غلب رافع حمله عبد الله . واستأذن رسول الله فى الخروج رجال لم يحضروا القتال منهم عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين ، قال له :

— أنا راكب معك .

فأبى ذلك عليهم رسول الله — ﷺ — ودعا بلوائه وهو معقود لم يحل فدفعه إلى على بن أبى طالب واستخلف على المدينة . وركب رسول الله — ﷺ — فرسه المسمى بالسَّكب ، ولم يكن مع أصحابه فرس سواه وعليه الدرع والمغفر وما يرى إلا عيناه .

وخرج الناس بهم الجراحات ولم يعرجوا على دواء جراحاتهم فمنهم من كان به تسع جراحات وهو أُسيد بن حُضير وعقبة بن عامر ، ومنهم من كان به عشر جراحات وهو خراش بن الصِّمة ومنهم من كان به بضع وسبعون جراحة وهو طلحة بن عبيد الله ، ومنهم من كان به عشرون جراحة وهو عبد الرحمن بن عوف .

وخرج رسول الله — ﷺ — وهو مجروح فى وجهه أثر الحلقتين ومشجوج فى وجهه ومكسورة رباعيته وشفته السفلى قد جرحت من باطنها ، متوهن منكبه الأيمن لضربة ابن قميئة ، وركبتاه مجروحتان من وقعته فى الحفيرة . وتلقاه — ﷺ — طلحة بن عبيد الله فقال له :

— أبا طلحة ، أين سلاحك ؟

— قريب .

فذهب وأتى بسلاحه وبصدره وحده تسع جراحات من تلك الجراحات التى به ، وهو أهم بجراح رسول الله — ﷺ — منه بجراحه ، ثم أقبل على رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا طلحة ، أين ترى القوم ؟

— بالسقالة .

— ذلك الذى ظننت ، أما إنهم يا طلحة لن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله مكة علينا .

وكان الدليل فى السير ثابت بن الضحاك فسار بالمسلمين ورافع بن سهيل لا يقوى على السير فيحمله أخوه عبد الله متأخرا عن الركب .

وعسكر المسلمون بحمراء الأسد على بعد عشرة أميال من المدينة .

وجاء الليل وأوقد المسلمون خمسمائة نار حتى ترى من بعيد ، وذهب

صوت معسكرهم ونيرانهم فى كل وجه إرهابا للعدو . وظل رافع وأخوه عبد الله يجاهدان حتى انتهيا إلى ما انتهى إليه المسلمون من حمراء الأسد عند العشاء وألسنة النيران تتراقص ، فجاءتهما الحراس وكان على الحرس تلك الليلة عباد بن بشر مع طائفة ، فلما أتى بهما إلى رسول الله — ﷺ — قال لهما :

— ما حبسكما ؟

فأخبراه بغلبتهما ، فدعا لهما بخير وقال لهما :

— إن طالت بكما مدة كانت لكما مراكب من خيل وبغال وإبل ، وذلك ليس بخير لكم .

وأقام المسلمون بحمراء الأسد ثلاث ليال وكان عامة زادهم التمر ، وحمل سعد بن عبادة ثلاثين بعيرا حتى وافت حمراء الأسد وساق جزرا لتنحر فنحروا فى يوم اثنين وفى يوم ثلاثة .

ولقى مَعبد الخُزاعى رسول الله — ﷺ — وكانت خُزاعة مسلمهم وكافرهم تحبه — ﷺ — فقال :

— يا محمد ، والله لقد عز علينا ما أصابك فى نفسك وما أصابك فى أصحابك . ولوددنا أن الله تعالى أعلى كعبك وأن المصيبة كانت لغيرك .

ثم مضى معبد حتى كان بالرَّوْحاء ، فلما رأى أبو سفيان معبدا قال :

— هذا معبد وعنده الخبر ، ما وراءك يا معبد ؟

— تركت محمدا وأصحابه قد خرجوا لطلبكم فى جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج وتعاهدوا على أن لا يرجعوا حتى يلقوكم فيثأروا منكم

وغضبوا القوم مهم غضبا شديدا وندموا على ما فعلوا فيهم من الحنق[١] شيء لم أر مثله قط .

— ويحك ما تنزل ؟

— والله ما أرى أن نرتحل حتى أرى نواصي الخيل .

— فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم .

— فإني أنهاك عن ذلك .

— والله لقد حملني على ما رأيت أن قلت فيهم أبياتا من شعر .

— وما قلت ؟

— قلت :

كادت تُهد من الأصوات راحلتي
إذ سالت الأرض بالجُرد الأبابيل[٢]
تُردى بأُسد كرام لا تنابلة[٣]
عند اللقاء ولا ميل[٤] معازيل[٥]
فظَلْتُ عدوا أظن الأرض مائلة
لما سموا برئيس غير مخذول
فقلت ويل ابن حرب من لقائكم
إذا تغطمطت[٦] البطحاء بالجيل

---

(١) الحنق : الغيظ .

(٢) الجرد : الخيل . الأبابيل : الجماعات .

(٣) التنابلة : غير الكرام .

(٤) الميل : الذين لا يحسنون ركوب الخيل .

(٥) المعازيل : الذين لا سلاح لهم . (٦) تغطمطت : اهتزت وارتجت .

إنى نذير لأهل البَسْل[١] ضاحية
لكل ذى إربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وخش قنابله[٢]
وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه .

ومر بأبى سفيان ركب من عبد قيس فقال :

— أين تريدون ؟

— نريد المدينة .

— ولِم ؟

— نريد الميرة .

— فهل أنتم مبلغون عنى محمدا رسالة أرسلكم بها إليه وأحمل لكم هذه غدا زبيبا بعكاظ إذا وافيتموها ؟

— نعم .

— فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد جمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم .

فمر الركب برسول الله — ﷺ — وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان فقال :

— حسبنا الله ونعم الوكيل .

فأنزل الله تعالى : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم

---

(١) البسل : الحلال والحرام ، ضد .

(٢) القنابل : الطوائف .

القرْح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ٭ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾(١) .

وظفر رسول الله — ﷺ — فى حمراء الأسد بأبى عزة الشاعر الذى مَنَّ عليه وقد أسر ببدر من غير فداء إكراما لبناته وأخذ عليه عهدا أن لا يقاتله ولا يكثر عليه جمعا ولا يظاهر عليه أحدا ، فنقض العهد وخرج مع قريش لأُحد وسار يستنفر الناس ويحرضهم على قتاله — ﷺ — بأشعاره ، فلما جيء به رسول الله — ﷺ — قال :

— يا محمد لا تقتلنى وامنن علىّ ودعنى لبناتى وأعطيك عهدا ألا أعود لمثل ما فعلت .

فقال — ﷺ — :

— لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تجلس فى الحِجر تقول : خدعت محمدا مرتين . اضرب عنقه يا زبير . لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين .

فضرب الزبير عنقه ورفع رأسه على رمح ليكون أول رأس حمل فى الإسلام .

وأرسل معبد الخزاعى يخبر رسول الله — ﷺ — بانصراف أبى سفيان ومن معه خائفين ، فانصرف إلى المدينة فإذا بمعاوية بن أبى العاص لم يغادرها فإنه أقام ثلاثا يستعلم أخبار رسول الله — ﷺ — ليأتى بها قريشا . فلما كان اليوم الرابع عاد رسول الله فخرج معاوية هاربا ، فأرسل عليه السلام فى أثره زيد بن حارثة وعمار بن ياسر فرمياه حتى

---

(١) آل عمران : ١٧٢ ، ١٧٣ .

قتلاه .

وجاء حبيب بن يساف إلى رسول الله — ﷺ — فأخبره أنه رأى الحارث بن سويد بن الصامت يوم أُحد قد أتى من خلف المجذر بن زياد فضرب عنقه ثأرا لأبيه ، فركب رسول الله — ﷺ — إلى قباء فى يوم حار وكان ذلك يوما لا يركب فيه رسول الله — ﷺ — إلى قباء ، وإنما كانت الأيام التى يأتى فيها رسول الله — ﷺ — يوم السبت ويوم الاثنين ، فلما دخل رسول الله عليه السلام مسجد قباء صلى فيه ما شاء الله أن يصلى .

وسمعت الأنصار فجاءوا يسلمون عليه وأنكروا إتيانه تلك الساعة وفى ذلك اليوم ، فجلس عليه السلام يتحدث ويتصفح الناس حتى طلع الحارث بن سويد ، فلما رآه رسول الله — ﷺ — دعا عويم بن ساعدة فقال له :

— إذا قدم الحارث بن سويد إلى باب المسجد فاضرب عنقه بمجذر بن زياد ، فإنه قتله يوم أُحد .

فأخذه عويم فقال الحارث :

— دعنى أكلم رسول الله .

ورسول الله — ﷺ — يريد أن يركب ودعا بحماره إلى باب المسجد ، فجعل الحارث يقول :

— قد والله قتلته يا رسول الله وما كان قتلى إياه رجوعا عن الإسلام ولا ارتيابا فيه ولكنه حمية الشيطان وأمرٌ وكِلتُ فيه إلى نفسى . وإنى أتوب إلى الله وإلى رسوله مما عملت وأخرج ديته وأصوم شهرين متتابعين وأعتق رقبة وأطعم ستين مسكينا ، وإنى أتوب إلى الله يا رسول الله .

وجعل يُمسك بركاب رسول الله — ﷺ — وبنو المجذر حضور لا يقول لهم رسول الله — ﷺ — شيئا حتى إذا استوعب كلامه قال :

— قدمه يا عويم فاضرب عنقه .

وركب رسول الله — ﷺ — فقدمه عويم بن ساعدة على باب المسجد فضرب عنقه .

وأنزل الله فى يوم أُحد من القرآن ستين آية من آل عمران . فيها صفة ما كان فى يومهم ذلك ومعاتبة من عاتب منهم ، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه — ﷺ — :

﴿ وإذا غدوت من أهلك تبوِّىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم * إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون * ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين * وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم * ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين * ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾[1] .

﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون * وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا

---

(١) آل عمران : ١٢١ — ١٢٨ .

لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين * قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين * ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين * إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين * ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون * وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين * وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين * وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضَعُفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾(١) .

﴿ يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين * بل الله مولاكم وهو خير الناصرين * سنلقي فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين * ولقد صدقكم الله وعده إذ تَحُسُّونهم بإذنه حتى إذا

---

(١) آل عمران : ١٣٢ — ١٤٧ .

فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين * إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون * ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور ﴾[1] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير ﴾[2] .

---

(١) آل عمران : ١٤٩ ــ ١٥٤ .

(٢) آل عمران : ١٥٦ .

٩

استيقظت أم الفضل امرأة العباس من نومها وهى تحس انقباضا فقد رأت رؤيا أفزعتها ، وفكرت فى أن تقص رؤياها على رسول الله ـــ ﷺ ـــ ولكن كيف تقص عليه أنها رأت عضوا من أعضائه يقطع ويلقى به فى بيتها !

إن ما رأته يزعجها فعزمت على ألا تقص خبره على النبى ، وراحت تغدو وتروح وما تزال الرؤيا المفزعة ماثلة فى ذهنها تقلقها وتحيرها . حاولت أن تنساها ولكنها كانت تحتل كل تفكيرها ، فلما لم تطق صبرا انطلقت إلى النبى ـــ ﷺ ـــ وقالت له :

ـــ يا رسول الله ، رأيت عضوا من أعضائك فى بيتى .

وأحست بعض الراحة بعد أن أفضت بما كان يقلقها كتمانه ، ونظرت إلى النبى عليه السلام لترى أثر الحديث فى وجهه فإذا به يتطلق[١] ويقول :

ـــ خيرا رأيته ، تلد فاطمة غلاما فترضعينه .

كانت أم الفضل من أول النساء اللاتى آمن بما أرسل به عليه السلام ، وقد هاجرت مع المهاجرات وكان فى رفقتها ابنها عبد الله بن عباس ، فكان كثيرا ما يردفه رسول الله ـــ ﷺ ـــ على راحلته ويحدثه أحاديث تنبض بالحكمة ، فيحس ابن عباس كأن كنوزا من العلم تسكب فى قلبه .

---

(١) يتطلق : يتهلل بالبشر .

ودخل عليّ على فاطمة والبشر يترقرق فى محياه تملأ نفسه تلك الغبطة التى تملأ كل زوج يرقب قدوم وليده الأول ، وأقبل على الزهراء يلاطفها . فنزلت السعادة بالدار الصغيرة التى ما كان بها إلا إهاب كبش كانت فراش الإلفين وقطيفة إذا جعلاها بالطول انكشفت ظهورهما وإذا جعلاها بالعرض انكشفت رءوسهما .

وحضرت ولادة فاطمة فهرع على إلى بيت النبى ، فقال عليه السلام لأم رومان وأم سلمة :

— احضرا فاطمة .

واستمر على فى قلقه حتى إذا ما وقع ولده واستهل صارخا انتشت روحه وسكنت الطمأنينة قلبه ، فقد كان يخشى على زوجه التى شحبت وانتابها هزال فى شهورها الأخيرة .

وجاء النبى — ﷺ — فأخرج له المولود فى خرقة صفراء ، فرمى بها وقال :

— ألم أنهكم أن تلفوا الولد فى خرقة صفراء ؟

وأمر أن يلف فى خرقة بيضاء فلفوه وجاءوا به ، فقطع سرته وقال له :

— اللهم إنى أعيذه بك وولده من الشيطان الرجيم .

وفى اليوم السابع جاء رسول الله وقال :

— أرونى ابنى ، ما سميتموه ؟

فقال على :

— حربا .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— بل هو حسن .

ونحر كبشا وأعطى القابلة فخذا ودينارا وقال :

— يا فاطمة احلقي رأسه وتصدق بزنة شعره فضة .

وأثلج صدر علي فقد وهبه الله هبة عظمى ، وهبه ذرية من نسل رسول الله — ﷺ — . وانشرح صدر فاطمة بوليدها فراحت ترقصه وهي فرحانة وتقول له :

أشبه أباك يا حسن ... واخلع عن الحق الرسن[١]

واعبد إلٰها ذا منن ... ولا توالي ذا الإحن

وكان يوم أُحد فخرجت الزهراء في نساء وهرعت إلى أبيها عليه السلام وإلى زوجها ، وقد رأت الذي بوجه أبيها فاعتنقته ، وأراد عليّ أن يذهب ليأتي بماء ليغسل الدم عن وجه رسول الله فقال لفاطمة :

أفاطم هاء[٢] السيف غير ذميم ... فلست برعديد ولا بلئيم

لعمري لقد جاهدت في نصر أحمد ... وطاعة رب بالعباد رحيم

فنظر إليه رسول الله — ﷺ — مختضبا بالدم فقال :

— لئن كنت أحسنت القتال اليوم فلقد أحسن عاصم بن ثابت والحارث بن الصِّمة وسُهل بن حُنيف ، وسيف أبي دُجانة غير مذموم .

وما انقضى شهر حتى حملت فاطمة ثانية فكانت أم الفضل ترضع الحسن ، وفي ذات يوم جاءت به إلى النبي فوضعته في حجره فبال ، فضربت كتفه فنظر إليها النبي عليه السلام فقال :

— أوجعت ابني رحمك الله .

وغسلت السيوف بعد معركة أُحد واستمر التراشق بالأشعار ورثاء القتلى ، قال هبيرة بن أبي وهب المخزومي :

---

(١) الرسن : الحبل يتخذ زماما (٢) هاء السيف : هذا السيف جئت به .

ما بال هَمٍّ عَميدٍ بات يَطرقني ... بالود من هند إذ تعدو عواديها
باتت تعاتِبني هند وتعذُلني ... والحرب قد شغلت عني مواليها
مهلا فلا تَعذليني إن من خلقي ... ما قد علمت وما إن لستُ أخفيها
مساعف لبني كعب بما كلفوا ... حمال عبء وأثقال أُعانيها
وقد حملت سلاحي فوق مشترف ... ساط سَبوح إذا تجرى يباريها
كأنه إذ جرى عَير بفُدفدة[(١)] ... مكدّم لاحق بالعُون يحميها
من آل أعوج يرتاح النديّ له ... كجذع شعراء مستعل مراقيها
أعددته ورقاق الحد منتخَلا ... ومارنا لخطوب قد ألاقيها
هذا وبيضاء مثل النهى محكمة ... نيطت علىّ فما تبدو مساويها
سقنا كنانة من أطراف ذى يمن ... عرض البلاد على ما كان يزجيها[(٢)]
قالت كنانة : أنى تذهبون بنا ؟ ... قلنا : النخيل ، فأموها ومن فيها
نحن الفوارس يوم الجر من أحد ... هابت معدٌ فقلنا نحن نأتيها
هابوا ضرابا وطعنا صادقا خذما[(٣)] ... مما يرون وقد ضُمت قواصيها
ثمت رحنا كأنا عارض برد ... وقام هامُ بنى النجار يبكيها
كأن هامهم عند الوغى فِلقٌ[(٤)] ... من قيض ربد نفته عن أداحيها
أو حنظل ذعذعته الريح فى غصن ... بال تعاوره منها سوافيها
قد نبذل المال سحًا لا حساب له ... ونطعن الخيل شزرا فى مآقيها

ولما كان الشعر فى جزيرة العرب ينتشر انتشار الريح فقد أجابه حسان ابن ثابت شاعر الرسول فقال :

سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم ... إلى الرسول فجند الله مخزيها

---

(١) الفدفدة : الصحراء . (٢) يزجيها : يقدمها .
(٣) الضرب الخذم : للقوى العنيف (٤) الفلق : المشقوقة .

أوردتموها حياض الموت ضاحية فالنار موعدها والقتل لاقيها
جمعتموها أحابيشا بلا حسب أئمة الكفر غرتكم طواغيها
ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلتْ أهل القليب ومن ألقينه فيها
كم من أسير فككناه بلا ثمن وجز ناصية كنا مواليها

وأجاب كعب بن مالك هبيرة بن أبى وهب أيضا ، قال :

مجالدنا عن ديننا كل فخمة مذرّبة(١) فيها القوانس(٢) تلمع
وكل صموت فى الصوان كأنها إذا لُبست نهى من الماء مترع
ولكن ببدر سائلوا من لقيتم من الناس والأنباء بالغيب تنفع
وإنا بأرض الخوف لو كان أهلها سوانا لقد أجلوا بليل فأقشعوا
إذا جاء منا راكب كان قوله أعدوا لما يُزجى ابن حرب ويجمع
فمهما يهم الناس مما يكيدنا فنحن له من سائر الناس أوسع

وقال عبد الله بن الزِّبعَرى يجيب حسان :

يا غراب البين أسمعت فقل إنما تنطق شيئا قد فُعل
إن للخير وللشر مدى وكلا ذلك وجه وقَبل
والعطيات خساس بينهم وسواء قبر مثر ومُقل
كل عيش ونعيم زائل وبنات الدهر يلعبن بكُل
أبلغا حسان عنى آية فقريض الشعر يشفى ذا الغلل
كم ترى بالجر من جمجمة وأكف قد أُترّت ورِجل
وسرابيل حسان سريت عن كماة(٣) أهلكوا فى المنتزل

---

(١) السيف المذرب : المسموم

(٢) القوانس : بيضات الحديد يضعها المحاربون على رءوسهم .

(٣) الكماة : الأبطال المسلحون .

كم قتلنا من كريم سيد ماجد الجدين مقدام بطل
صادق النجدة قرم[١] بارع غير ملتاث لدى وقع الأسل[٢]
ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حكّت بقُباء بَركها[٣] واستحر القتل فى عبد الأشل
ثم خفوا عند ذاكم رقصا رقص الحَفّان[٤] يعلو فى الجبل
فقتلنا الضِّعف من أشرافهم وعدلنا ميل بدر فاعتدل
لا ألوم النفس إلا أننا لو كررنا لفعلنا المفتعل
بسيوف الهند تعلو هامهم عُلَلا تعلوهم بعد نهل

فأجابه حسان بن ثابت قال :

ذهبت يا بن الزِّبعرى وقعة كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتم ونلنا منكم وكذاك الحرب أحيانا دول
نضع الأسياف فى أكتافكم حيث نهوى عللا بعد نهل
نخرج الأضياح[٥] من أستاهكم كسُلاح النِّيب يأكلن العصَل
إذ تولون على أعقابكم هرَّبا فى الشعب أشباه الرِّسل[٦]
إذ شددنا شدة صادقة فأجأناكم إلى سفح الجبل
بخناطيل[٧] كأشداف الملا من يلاقوه من الناس يُهَل
ضاق عنا الشعب إذ نجزعه وملأنا الفرط منه والرَّجل

(١) القرم : السيد الكريم
(٢) الأسل : الرماح
(٣) البرك : الإبل ، وباطن صدرها .
(٤) الحفان : الكثير الحفن .
(٥) الأضياح : من العسل أو اللبن .
(٦) الرسل : الأغنام .
(٧) الخناطيل : الإبل المتفرقة .

برجـــال لستم أمثـــالهم　　أُيدوا جبريـــل نصرا فنـــزل

وعلونـــا يوم بدر بالتقـــى　　طاعة الله وتصديـــق الـــرسل

وقتلنـــــا كل رأس منهم　　وقتلنا كل جحجاح[١] رِفَل[٢]

وتركنـــا فى قريش عورة　　يوم بدر وأحـــاديث المثـــل

ورسول الله حقـــا شاهـــدٌ　　يوم بدر والتنابيـــل[٣] الهُبـــل

فى قريش من جموع جمعـــوا　　مثل ما يجمع فى الخطب الهمَل[٤]

نحن لا أمثالكـــم وُلـــد استها　　نحضر النـــاس إذا البـــأس نزل

وقال كعب بن مالك يبكى حمزة بن عبد المطلب وقتلى أُحد :

نشجت وهـــل لك من منشج　　وكنت متى تذَّكـــر تلجـــج

تذكـــر قوم أتـــانى لهم　　أحـــاديث فى الزمـــن الأعـــوج

فقلبك من ذكرهـــم خافـــق　　من الشوق والحزَن المنضج

وقتلاهـــم فى جنـــان النـــعيم　　كرام المداخـــــل والمخرج

بما صبروا تحت ظل اللـــواء　　لواء الـــرسول بذى الأضوجُ

غداة أجـــابت بأسيافهـــا　　جميعـــا بنـــو الأوس والخزرج

وأشيـــاع أحمد إذا شايعـــوا　　على الحق ذى النـــور والمنهج

فمـــا برحـــوا يضربـــون الكمـــاة　　ويمضون فى القسطل[٥] المرهَج[٦]

كذلك حتى دعاهـــم مليـــك　　إلى جنـــة دوحـــة المولج

فكلهـــم مات حر البـــلاء　　على ملـــة الله لم يحرج

---

(١) الجحجاح : السيد .　　(٢) رفل : مختال .

(٣) التنابيل : الجماعات .　　(٤) الهمل : ما يهمل .

(٥) القسطل : الغبار .　　(٦) المرهج : المثار .

كحمـــزة لما وفى صادقـــا بذى هبة صارم سَلْجَـج[١]
فلاقـاه عبـد بنـى نوفـل يُبْربـر كالجمـل الأدعــج[٢]
فأوجره حربـة كالشهـاب تلـهب فى اللـهب الموهـج
ونعمــان أوفى بميثاقـــه وحنظلـة الخير لم يُحنـج[٣]
عن الحق حتى غدت روحـه إلى منزل فاخـر الزِّبْـرج[٤]
أولـئك لا من ثوى منكـم من النار فى الـدرج المرتـج

فأجابه ضرار بن الخطاب الفهرى فقال :

أيجزع كعب لأشياعـــه ويبكى من الزمـن الأعـوج
عجيج المُذكـى رأى إلفـه تروح فى صادر مُحَنْــج
فراح الرَّوايـــا وغادرنـــه يجمجع[٥] قسرا ولم يُحـدَج[٦]
فقولا لكعب يثنى البكـا وللنِّيـء من لحمـه ينضج
لمصرع إخوانـه فى مَكـرٍّ من الخليل ذى قسطل مُرْهج[٧]
فيـا ليت عمـرا وأشياعـه وعتبة فى جمعنـا السَّورج[٨]
فيشفوا النفـوس بأوتارهـا بقـتلى أصيـبت من الخزرج
وقـتلى من الأوس فى معـرك أصيبوا جميعـا بذى الأضوحُ
ومقتـل حمزة تحت اللـواء بمطّرد ، مارن[٩] ، مخلـج[١٠]
وحيث انثنى مصعب ثاويـا بضربـة ذى هبـة سَلْجَـج

---

(١) سلجج : لامع . (٢) الدعجة : سواد العين .
(٣) لم يحنج : لم يهزم . (٤) الزبرج : الزينة .
(٥) يجمجع : يرفع صوته . (٦) يحدج : يحدق بعينه .
(٧) يقصد أن الخيل قد أثارت الغبار(٨) السورج : القوى .
(٩) مارن : أنف . (١٠) مخلج : مطعون .

وراح عبد الله بن الزبعرى يبكى القتلى فأجابه حسان بن ثابت ، واستمرت سهام الشعر تتراشق بين المدينة ومكة ، المسلمون يفخرون بيوم بدر والمشركون يتيهون بانتصارهم يوم أُحد ، وقد قال عمرو بن العاص فى يوم أُحد :

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا ... من الصبح من رضوى الحبيك المنطُق
تمنت بنو النجار جهلا لقاءنا ... لدى جنب سلع والأمانى تصدق
فما راعهم بالشر إلا فجاءة ... كراديس[١] خيل فى الأزقة تمرق[٢]
أرادوا لكيما يستبيحوا قبابنا ... ودون القباب اليوم ضرب محرق
وكانت قبابا أومنت قبل ما ترى ... إذا رامها قوم أُبيحوا وأُحنقوا
كأن رءوس الخزرجيين غدوة ... وأيمانهم بالمُشرفيـة بَروق[٣]

فأجابه كعب بن مالك ورد عليه حسان بن ثابت ، ثم راح حسان يعير قريشا بما أصاب أصحاب اللواء . واشتد أوار معركة الشعر وكثر النواح على القتلى فقالت صفية بنت عبد المطلب تبكى أخاها حمزة :

أسائلة أصحاب أحد مخافة ... بنات أبى من أعجم وخبير
فقال الخبير إن حمزة قد ثوى ... وزير رسول الله خير وزير
دعاه إلى الحق ذو العرش دعوة ... إلى جنة يحيا بها وسرور
فذلك ما كنا نرجى ونرتجى ... لحمزة يوم الحشر خير مصير
فوالله ما أنساك ما هبت الصبا ... بكاء وحزنا محضرى ومسيرى
على أسد الله الذى كان مِدرها[٤] ... يذود عن الإسلام كل كفور

---

(١) كراديس : جماعات .
(٢) تمرق : تسرع .
(٣) بروق : لامعة .
(٤) مدره : شجاع مهاجم .

فياليت شلوى[١] عند ذاك وأعظمى   لدى أضبع تعتادنى ونسور
أقول وقد أعلى النعى عشيرتى   جزى الله خيرا من أخ ونصير

وقالت هند بنت عتبة حين انصرف المشركون من أحد :

رجعت وفى نفسى بلابل جمة
وقد فاتنى بعض الذى كان مطلبى
من أصحاب بدر فى قريش وغيرهم
بنى هاشم منهم ومن أهل يثرب
ولكننى قد نلت شيئا ولم يكن
كما كنت أرجو فى مسيرى ومركبى

وكان الركبان يسيرون بالشعر بين مكة والمدينة ، وكان المشركون فرحين بنصرهم ولكن المستقبل لم يكن واضحا أمامهم ، أما المسلمون فكانوا على ثقة بالمستقبل فقد قال — ﷺ : لن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله مكة علينا ، فانتشت القلوب بالأمل ، وبات المسلمون يرقبون الغد فى رجاء ، وينتظرون فى لهفة ذلك اليوم المجيد يوم أن يفتح الله مكة عليهم .

---

(١) الشلو : العضو والجسد .

١٠

قدم على رسول الله — ﷺ — رهط من عضل والقارة ، من الهون ابن خزيمة بن مدركة فقالوا :

— يا رسول الله إن فينا إسلاما ، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام .

فبعث رسول الله — ﷺ — معهم عشرة ، ستة من المهاجرين وأربعة من الأنصار ، وأمّر رسول الله — ﷺ — على القوم عاصم بن ثابت .

وانطلق المسلمون مع من جاءوا إلى رسول الله — ﷺ — يلتمسون أن يبعث معهم نفرا من أصحابه يفقهونهم فى الدين ، حتى إذا ما بلغوا الرجيع وهى ماء لهذيل بناحية الحجاز غدروا بالمسلمين ، فلم يرع المسلمون وهم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف . فهب المسلمون إلى أسيافهم ليقاتلوهم فقالوا لهم :

— إنا والله لا نريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ولكم العهد والميثاق ألا نقتلكم .

وثارت الدماء فى عروق عاصم بن ثابت وملأ الحنق قلب مَرثد بن أبى مَرثد ، وغضب خالد بن البكير لذلك الغدر الآثم فقالوا :

— والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا .

وراح الرجال الثلاثة يقاتلون القوم فى بسالة ، ولكن ماذا تجدى

الشجاعة والقوم كثيرون وأسيافهم تحيط بهم من كل جانب ؟ وجالوا جولة انتهت بقتل عاصم بن ثابت وصاحبيه .

وكانت سلافة بنت سعد بن شهيد قد نذرت حين أصاب عاصم ابنيها يوم أحد : لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن فى قحفه الخمر ، فرأى القوم أن يحزوا رأسه وأن يبعثوا به إلى سلافة لتبر قسمها وأن يقبضوا الثمن ، فلما تقدموا منه إذا بالزنابير والنحل قد حالت بينه وبينهم فقالوا :

ـــ دعوه حتى يمسى فتذهب عنه فنأخذه .

وأمطرت السماء وحمل السيل عاصما فذهب به ولم تحمل رأسه إلى سلافة ولم تبر قسمها ، فقد حفظ الله عبده المؤمن الذى دافع عن رسوله يوم أُحد دفاع المستميت .

ولان زيد بن الدَّثنة وخُبيب بن عدى وعبد الله بن طارق ورقوا ورغبوا فى الحياة ، فأعطوا بأيديهم فأسروهم ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها ، حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من الحبل الذى ربط به ثم أخذ سيفه واستأخر عن القوم ، فرموه بالحجارة حتى قتلوه .

وكانت الرحلة إلى مكة مليئة بالمتاعب ، فلم يدخل القوم إلى مكة إلا بأسيرين هما خُبيب بن عدى وزيد بن الدثنة ، فابتاع خُبيبا حجير بن أبى إهاد التيمى حليف بنى نوفل لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ، وكان أبو إهاب أخا الحارث بن عامر لأمه ، ليقتله بأبيه .

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف ، وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم ، وهو مكان بين مكة وسرف على فرسخين من مكة ، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه وقد التف الناس حوله شامتين .

واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل :

— أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمدا عندنا الآن مكانك نضرب عنقه وإنك فى أهلك ؟

— والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإنى جالس فى أهلى .

فراح أبو سفيان يلتفت إلى من عنده فى دهش ثم قال :

— ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا .

ثم قتله نسطاس وهو يشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمد رسول الله ، ليكبت الكفرة وليعكر عليهم سرور لحظة الانتقام .

وأما خُبيب بن عدى فقد حبسه حُجير بن أبى وهب عند مولاته ماوية فى بيتها لأن ذلك كان فى الأشهر الحرم وظل عندها حتى حان وقت قتله لما انقضت الأشهر الحرم فقال لها :

— ابعثى إلىّ بحديدة أتطهر بها للقتل .

فأعطت غلاما من الحى الموسى فقالت :

— ادخل بها على هذا الرجل البيت .

فما هو إلا أن ولى الغلام بها إليه حتى قالت ماوية لنفسها فى فزع :

— ماذا صنعت ؟ أصاب والله الرجل ثأره ، بقتل هذا الغلام فيكون رجل برجل .

فلما ناوله الموسى أخذها بيده ثم قال :

— لعمرك ما خافت أمك غدرى حين بعثتك بهذه الحديدة إلىّ .

ثم خلى سبيله .

ثم خرجوا بخبيب إلى التنعيم ليصلبوه فإذا بأبى سفيان بن حرب وابنه معاوية وسادات قريش قد حضروا لينظروا قتله ، فقال لهم :

ـــ إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا .

ـــ دونك فاركع .

فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال :

ـــ أما والله لولا أن تظنوا بأنى إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة .

فكان خُبيب بن عدى أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين ، ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه قال :

ـــ اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك ، فبلغه الغداة ما يصنع بنا .

ونظر أبو سفيان وأكابر قريش إلى خُبيب المصلوب فى شماتة فقال :

ـــ اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا .

فألقى أبو سفيان ابنه معاوية إلى الأرض فرقا من دعوة خُبيب ، لقد كانوا يعتقدون أن الرجل إذا دعى عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه !

وكان عقبة بن الحارث صغيرا فأخذ أبو ميسرة أخو بنى عبد الدار الحربة فجعلها فى يد عقبة ثم أخذ بيده وبالحربة ، ثم طعن بها خُبيبا حتى قتله .

وقال رجال من المنافقين لما أصيبت البعثة التى كان فيها عاصم ومرثد بالرجيع :

ـــ يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا ، لا هم قعدوا فى أهليهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم .

فأنزل الله تعالى فى ذلك من قول المنافقين وما أصاب أولئك النفر من

الخير بالذى أصابهم ، فقال الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد * ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد ﴾(١) .

فرح أبو سفيان لما نزل من البلاء على من وجههم النبى — صلى الله عليه وسلم — إلى عضل والقارة وأظهر الشماتة لقتلهم وغدا يسخر من الإسلام والمسلمين ، فبعث عليه السلام عمرو بن أمية الضمرى إلى مكة مع رجل من الأنصار وأمرهما بقتل أبى سفيان من تجمعت حوله أحقاد الكافرين على المسلمين بعد مقتل أبى جهل فى بدر .

وخرج عمرو بن أمية ومعه بعير وليس مع صاحبه بعير وبرجله علة ، فكان عمرو يحمله على بعيره حتى جاءا بطن يأجج فعقلا بعيرهما فى فناء شعب ثم انطلقا فقال عمرو لصاحبه :

— انطلق بنا إلى دار أبى سفيان فإنى محاول قتله ، فانظر فإن كانت محاولة أو خشيت شيئا فالحق ببعيرك فاركبه والحق بالمدينة فأت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأخبره الخبر ، وخل عنى فإنى رجل عالم بالبلد جرىء عليه نجيب الساق .

فلما دخل مكة ومع عمرو خنجر قد أعده إن عاقه إنسان قتله به ، قال له صاحبه :

— هل لك أن نبدأ فنطوف بالبيت أسبوعا ونصلى ركعتين ؟

— أنا أعلم بأهل مكة منك ، إنهم إذا أظلموا رشوا أفنيتهم ثم جلسوا بها ، وأنا أعرف بها من الفرس الأبلق .

---

(١) البقرة ٢٠٤ — ٢٠٧ .

فلم يزل به حتى أتيا البيت فطافا به سبعا وصليا ركعتين ثم خرجا ، فمرا بمجلس من مجالسهم فعرف عمرا رجل منهم فصرخ بأعلى صوته :

ـــ هذا عمرو بن أمية .

فخف إليهما أهل مكة وقالوا :

ـــ تالله ما جاء بعمرو خير ، والذى يحلف به ما جاءها قط إلا لشر .

وكان عمرو رجلا فاتكا متشيطنا فى الجاهلية فقاموا فى طلبه وطلب صاحبه ، فقال له عمرو :

ـــ النجاة هذا والله الذى كنت أحذر ، أما الرجل فليس إليه سبيل فانج بنفسك .

فخرجا يشتدان حتى صعدا فى الجبل ، فدخلا فى غار فباتا فيه ليلتهما وأعجزاهم فرجعوا وقد استترا دونهم بأحجار حين دخلا الغار .

وقال عمرو لصاحبه :

ـــ أمهلنى حتى يسكن الطلب عنا فإنهم والله ليطلبنّا ليلتهم هذه ويومهم هذا حتى يمسوا .

وبينا كانا فى الغار أقبل عثمان بن مالك بن عبيد الله التيمى يختل بفرس له فلم يزل يدنو ويختل بفرسه حتى قام عليهما بباب الغار ، فقال عمرو لصاحبه :

ـــ هذا والله ابن مالك ، والله لئن رآنا ليعلمن بنا أهل مكة .

فخرج إليه عمرو فوجأه بالخنجر تحت الثدى فصاح ابن مالك صيحة أسمعت أهل مكة فأقبلوا إليه ، ورجع عمرو إلى مكانه فدخل فيه وقال لصاحبه :

ـــ مكانك .

واتبع أهل مكة الصوت يشتدون فوجدوه وبه رمق فقالوا :

— ويلك ! من ضربك ؟

— عمرو بن أمية .

وما أدركوا ما يستطيع أن يخبرهم بمكانهما فقالوا :

— والله لقد علمنا أنه لم يأت لخير .

وشغلهم صاحبهم عن طلب عمرو بن أمية وصاحبه فاحتملوه ، ومكثا فى الغار يومين حتى سكن عنهما الطلب ، ثم خرجا إلى التنعيم فإذا خشبة خُبيب فقال له صاحبه :

— هل لك فى خُبيب تنزله عن خشبته ؟

— أين هو ؟

— هو ذاك حيث ترى .

ورأى عمرو خُبيبا مرفوعا على خشبته فقال :

— نعم ، فأمهلنى وتنح عنى .

— وحوله حرس يحرسونه ؟!

— إن خشيت فخذ الطريق إلى جملك فاركبه والحق برسول الله — ﷺ — فأخبره الخبر .

فاشتد إلى خشبته فاحتمله على ظهره ، فوالله ما مشى به إلا نحو أربعين ذراعا حتى رأوه فطرحه وراح يعدو فاشتدوا فرجعوا ، وانطلق صاحبه إلى بعيره فركب ليأتى رسول الله — ﷺ — يخبره أمرهما .

وأقبل عمرو يمشى حتى إذا أشرف على الغليل ، غليل ضجنان دخل غارا فيه ومعه قوسه وسهمه . فبينا هو فيه إذ دخل عليه رجل من بنى الديل بن بكر أعور طويل يسوق غنما له فقال :

— من الرجل ؟

— رجل من بنى بكر .

— وأنا من بنى بكر ثم أحد بنى الديل .

ثم اضطجع معه فى الغار ، وشاء سوء طالعه أن يتغنى فقال :

ولست بمسلم ما دمت حيا   ولست أدين دين المسلمينا

فقال عمرو فى نفسه :

— سوف تعلم .

فلم يلبث الأعرابى أن نام وغط فقام إليه فقتله أسوأ قتلة قتلها أحد أحدا . قام إليه فجعل سية قوسه فى عينه الصحيحة ثم تحامل عليها حتى أخرجها من قفاه ، ثم خرج مثل السبع وأخذ المحجة كأنه نسر وكان النجاة .

وبلغ النقيع فإذا رجلان من أهل مكة بعثهما قريش يتحسسان من أمر رسول الله — ﷺ — فعرفهما ، فقال :

— استأسرا .

فقالا فى سخرية :

— أنستأسر لك ؟

فرمى أحدهما بسهم فقتله ثم قال للآخر :

— استأسر .

فاستأسر فأوثقه ، فلما قدم المدينة مر بمشيخة من الأنصار فقالوا :

— هذا والله عمرو بن أمية .

فسمع الصبيان قولهم فاشتدوا إلى رسول الله — ﷺ — يخبرونه .

وقد شد عمرو إبهام أسيره بوتر قوسه فنظر النبى — ﷺ — إليه فضحك

حتى بدت نواجذه .

وأقام رسول الله — ﷺ — بقية شوال وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فانقضى على يوم أُحد أربعة أشهر ، وإذا بأبى براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة يقدم على رسول الله — ﷺ — بالمدينة ويهدى له هدية ، فأبى رسول الله — ﷺ — أن يقبلها وقال :

— يا أبا براء ، لا أقبل هدية مشرك ، فأسلم إن أردت أن أقبل هديتك .

فعرض عليه رسول الله — عليه السلام — الإسلام ودعاه إليه ، فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام وقال :

— يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك .

— إنى أخشى عليهم أهل نجد .

— أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك .

فبعث رسول الله — ﷺ — المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة فى سبعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين ، منهم الحارث بن الصِّمة وحرام بن ملحان أخو بنى عدى بن النجار وعُروة بن أسماء بن الصَّلت السَّلمى ونافع بن بديل بن ورقاء الخُزاعى وعامر بن فُهيرة مولى أبى بكر الصديق فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهى بين أرض بنى عامرة وحرة بنى سُليم ، كلا البلدين منها قريب .

فلما نزلوا بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله — ﷺ — إلى عامر بن الطفيل ، فلما أتاه قدم إليه الكتاب فلما قرأه أخذته العزة بالإثم فثار ثورة عارمة ثم قام إلى الرجل فقتله .

ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه وقالوا :

ــ لن نخفر (ننقض عهد) أبا براء وقد عقد لهم عقدا وجوارا .

فبعث إلى قبائل من بنى سليم من عصية ورعل وذكوان وطلب منهم أن يخرجوا لقتال هؤلاء المسلمين الذين وفدوا ليفسدوا فى الأرض ، فأجابوه وخرج الرجال فى عدة القتال وقد عزموا على القضاء على أتباع محمد .

كان المسلمون فى حالهم وإذا بالرجال قد أحاطوا بهم وشرعوا السيوف وصاحوا صيحات الحرب ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وراحوا يقاتلون فى إيمان وقد تراقص المنون على شفرات أسلحتهم .

خاضوا فى صفوف أعدائهم وهووا بكل بتار على الرقاب ، ولكن الرجال على خيولهم أحاطوا بهم وجعلوا يضربون بالسيوف ويصوبون إلى صدورهم السهام ، فسقط واحد إثر واحد ؟

وكان جبار بن سلمى بن مالك بن جعفر إلى جوار عامر بن الطفيل يصول ويجول فى القوم ، فطعن رجلا من المسلمين بالرمح بين كتفيه فنظر إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعه يقول :

ــ فزتُ والله .

فقال فى نفسه :

ــ ما فاز . ألست قد قتلت الرجل ؟

واستمر المسلمون فى القتال حتى قتلوا من عند آخرهم ، إلا كعب بن زيد أخا بنى دينار بن النجار ، فإنهم تركوه وبه رمق .

وكان عمرو بن أمية الضمرى ورجل من الأنصار يرعون إبل المسلمين فرأيا الطير تحوم على العسكر فقالا :

ــ والله إن لهذه الطير لشأنا .

فأقبلا لينظرا فإذا القوم فى دمائهم وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة ، فقال الأنصارى لعمرو بن أمية :

— ما ترى ؟

— أرى أن تلحق برسول الله — ﷺ — فتخبره الخبر .

فقال الأنصارى :

— ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ، وما كنت لتخبرنى عنه الرجال .

وراح يعدو إلى حيث كانت الخيل وغدا يضرب بسيفه فى الرجال ويقاتل القوم حتى قتل .

ولم يستطع عمرو بن أمية أن يفعل شيئا ، وقف فى مكانه حتى أخذ أسيرا فقال له عامر بن الطفيل :

— ممن أنت ؟

— من مضر .

— وما اسمك ؟

— عمرو بن أمية .

فأطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه ، فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة أقبل رجلان من بنى عامر حتى نزلا معه فى ظل هو فيه ، فسألهما حين نزلا :

— ممن أنتما ؟

— من بنى عامر .

بنو عامر ؟! الذين قتلوا الأحبة وغدروا بهم ! إنه لو قتلهما أصاب ثأره ، فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما ثم انطلق إلى المدينة .

فلما قدم على رسول الله — ﷺ — أخبره الخبر وذكر له أنه قتل اثنين من بني عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله — ﷺ — .

كان مع العامريين عقد من رسول الله — ﷺ — وجوار لم يعلم به عمرو بن أمية ، فقال — ﷺ — :

— لقد قتلت قتيلين ، لأدينهما !

وعزم رسول الله — ﷺ — أن يدفع دية القتيلين ، ثم قال عليه السلام :

— هذا عمل أبي براء ، قد كنت لهذا كارها متخوفا .

فبلغ ذلك أبا براء فشق عليه إخفار عامر إياه وما أصاب أصحاب رسول الله — ﷺ — بسببه وجواره ، وقال حسان يحرض بني براء على عامر بن الطفيل :

بني أم البنين ألم يرعكم ... وأنتم من ذوائب أهل نجد
تهكم عامر بأبي براء ... ليُخفره وما خطأ كعمد
ألا أبلغ ربيعة ذا المساعي ... فما أحدثتَ في الحدثان بعدي
أبوك أبو الحروب أبو براء ... وخالك ماجد حكم بن سعد

وحرج ذلك الغدر ربيعة بن عامر عم عامر بن الطفيل ، فحمل ربيعة على عامر فطعنه بالرمح فوقع في فخذه فلم يقتله ، ووقع عامر عن فرسه فقال :

— هذا عمل أبي براء . إن مت فدمي لعمي فلا يتبعن به ، وإن أعش فسأرى رأيي فيما أوتي إليّ .

وكان جبار بن سلمى بن مالك بن جعفر يشرد بذهنه فيسمع في عين ذاته صوت المسلم وهو يقول لما طعنه بالرمح : « فزت والله » فيقول في

نفسه : « ما فاز ! ألست قد قتلت الرجل ؟ » .

حيرة ذلك القول فراح يسأل عن ذلك الفوز الذى ناله الرجل وقد قتل ، فقيل له الشهادة . وظل يسأل عن الإسلام وما يدعو إليه وإذا بأنوار اليقين تشرق فى قلبه ، فانطلق إلى المدينة وقابل رسول الله — ﷺ — وألقى إليه سمعه ، وما قام من عنده إلا بعد أن شهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله .

١١

استشهد فى أُحد رجال أعزاء ، فلم يترك المسلمون أزواجهم وذريتهم للضياع بل راح كل قادر يضم إليه زوجة شهيد وأبناءه يمسح عن قلوبهم ألم اليتم والفراق .

إن حمنة بنت جحش ولولت على زوجها مصعب بن عمير وقالت : واحزناه ! فقال لها رسول الله — ﷺ — : لِم قلت ذلك ؟ قالت : تذكرت يتم بنيه فراعنى . فدعا لها رسول الله — ﷺ — ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم الخلف ، فتزوجت طلحة بن عبيد الله فكان أوصل الناس لولدها .

واستشهد فى أُحد زوج[١] زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله ابن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة ، فتزوجها النبى — ﷺ — وبنى لها دارا إلى جوار دارى عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر ، وقد زوجه إياها عمها قبيصة بن عمرو الهلالى وأصدقها الرسول عليه السلام أربعمائة درهم .

ولم تستشعر عائشة ولا حفصة نحو الوافدة الجديدة أية غيرة ، فقد كانتا تعرفان أن رسول الله — ﷺ — قد ضمها إليه عطفا منه ورحمة ، وما كانت زينب بنت خزيمة راغبة فى منافسة ضرتيها اللتين سبقتاها إلى

---

(١) قيل إنها كانت عند عبد الله بن جحش وقيل إنها كانت عند الطفيل بن الحارث .

دور رسول الله — ﷺ — فقد كانت تحس سعادة فى رحمة المساكين ورقتها عليهم ، فكرست كل وقتها فى رعاية المساكين وإطعامهم والتصدق عليهم فسميت أم المساكين .

كانت زينب بنت خزيمة طيبة خيرة وما كان يخرج من دارها إلا الصدقات ، وكانت قريرة العين بأن أصبحت زوج رسول الله — ﷺ — ، وما كانت الغيرة تنهش فؤادها فهى سعيدة راضية بأن أصبحت أم المؤمنين وأم المساكين ، وقد غمرت أهل الصفة ولا ريب الذين انقطعوا للعبادة فى المسجد وحراسة رسول الله — ﷺ — ومصاحبته ببرها وعطفها وخيرها .

ولم يطل مقام زينب بنت خزيمة فى دور رسول الله — ﷺ — ، فما كاد ينقضى عام أو بعض عام حتى علا الوجوم وجوه من كانوا فى مسجد الرسول فقد خرج من دار رسول الله — ﷺ — من أعلن للملأ موت زينب بنت خزيمة أم المساكين .

دخلت زينب بنت خزيمة دور رسول الله — ﷺ — فى صمت وخرجت منه فى صمت لتقبر فى البقيع إلى جوار الأبرار الذين سبقوها إلى دار السلام ولنعم دار المتقين .

ونكأ موت زينب بنت خزيمة جرح قلب رسول الله — ﷺ — ، تذكر خديجة بنت خويلد الطاهرة التى كانت له وزير صدق على الدوام ، من صدقته لما كذبه الناس وواسته لما عزت المواساة وأنفقت أموالها عن رضا فى سبيل دعم رسالة الله ، أول أمهات المسلمين وأحبهن إليه حاضنة الإسلام .

وانقضى على معركة أُحد شهران ، وبلغ رسول الله — ﷺ — أن

بني أسد يدعون إلى مهاجمته عليه السلام فى داره بالمدينة ، فدعا رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — إليه أبا سلمة عبد الله بن عبد أسد بن هلال ابن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، ابن عمته برة بنت عبد المطلب بن هاشم وأخاه من الرضاعة وصاحب الهجرتين : الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة ، فعقد له لواء سرية عدتها مائة وخمسون رجلا منهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وأمره عليه السلام بالانطلاق إلى بني أسد .

كان أبو سلمة قد أصيب بجرح بالغ فى أحد وقد ضمده فالتأم وكان التئامه من السطح ، فلم يعبأ بجرحه وخرج لينفذ أمر رسول الله عليه السلام ، وسار بسريته حتى أخذ العدو على غرة فأحاط بأعداء الله وأعداء رسول فى عماية الصبح ، وراحت السيوف تضرب منهم كل بنان وتطايرت السهام لتستقر فى أفئدة القوم ، واستمات المسلمون فى القتال وأبلوا بلاء حسنا فقد كانوا يحسون أن هذه المعركة التى يخوضونها معركة مهمة ، فالنصر فيها يغسل هزيمة أحد ويعيد ما ضيعت أحد من هيبه المسلمين .

وارتفعت صيحات المسلمين تجلجل بين الأرض والسماء :

— الله أكبر ، الله أكبر .

وغطت جثث بني أسد الأرض ، وراح أبو سلمة يصول ويجول حتى أجهده النضال فنغر جرحه وهو لا يأبه به حتى تم للمسلمين النصر المبين .

وعاد المسلمون إلى المدينة وفى ركابهم النصر ولكن الوجوه كانت باسرة ، فأبو سلمة قائد السرية مريض قد ذبل ودخل على أهله وهو ينوء ، فاستقبلته أم سلمة خافقة القلب منقبضة الصدر ، وكادت أن تند منها صرخة يأس ولكنها كتمتها حتى لا تفزع الزوج العزيز الذى شاركته

هجرة الحبشة وحبسها بنو المغيرة عندهم سنة أو قريبا منها لما هاجر إلى المدينة فلم يرقأ لها دمع حتى لحقت به هناك .

وسجى أبو سلمة فى فراش الموت فجاء رسول الله — ﷺ — ليعوده فألفاه يجود بآخر الأنفاس ، فبقى إلى جواره يدعو له بخير حتى مات ، فأسبل عليه السلام بيده عينيه وكبر عليه تسع تكبيرات فقيل له :

— يا رسول الله ، أسهوت أم نسيت ؟

— لم أسه ولم أنس ، ولو كبرت على أبى سلمة ألفا كان أهلا لذاك .

وخلف أبو سلمة زوجه هند بنت أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكانت عريقة الأصل فهى ابنة أمية بن المغيرة زاد الركب ، فلما انتهت عدتها تقدم إليها أبو بكر الصديق خاطبا فرفضته فى رفق ، ثم تقدم إليها عمر بن الخطاب يخطبها فرفضته بحجة أنها مسنة وأن معها عيالا صغارا .

وبعث إليها رسول الله — ﷺ — يخطبها فإذا بالنشوة تملؤها من الرأس إلى القدم ، فهو شرف عظيم أن تصبح زوج رسول الله — ﷺ — وأم المؤمنين ، ولكنها تذكرت الشابتين اللتين عند رسول الله عليه السلام : عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر فتحركت غيرتها ، فبعثت إلى رسول الله عليه السلام تقول إنها غيرى مسنة ذات عيال ، فأرسل إليها رسول الله — ﷺ — يقول :

— أما أنك مسنة فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما العيال فإلى الله ورسوله .

وعرفت عائشة أن رسول الله عليه السلام تزوج أم سلمة فحزنت حزنا شديدا لما ذكر لها من جمالها ، فتلطفت حتى رأتها فرأت أضعاف

ما وصفت به ، فذهبت إلى حفصة وكانت أواصر الصداقة قد وطدت بينهما وطفقت تتحدث عن أم سلمة وجمالها ، فقالت حفصة :

— ما هى كما يقال .

وغدت تتحدث عن كبر سنها فعادت الثقة إلى نفس عائشة ، ورأتها بعد ذلك فكانت فى عينيها كما قالت حفصة ولكنها كانت غيرى .

وجاءت أم سلمة بطفلتها زينب إلى دار النبى عليه السلام ، فكان رسول الله — ﷺ — يأتى أم سلمة ويقول :

— أين زناب ؟

وكان يداعب الطفلة ويغمرها بعطفة وحنانه ، إلا أن عمار بن ياسر وكان أخو أم سلمة من الرضاعة جاء يوم فانتزع زينب من حجر أمها وهو يقول :

— دعيها فقد آذيت بها رسول الله — ﷺ .

وبعثت زينب إلى حاضنة ، وقد شغلت أم سلمة ببيت أم المساكين ولكن حظها من قلب رسول الله — ﷺ — كان أكبر من حظ أم المؤمنين زينب بنت خزيمة .

ووضعت فاطمة الزهراء مولودها الثانى ، فجاء النبى فقال :

— أرونى ابنى ما سميتموه ؟

فقال على :

— حربا .

فقال رسول الله — ﷺ :

— بل هو حسين .

وكان رسول الله — ﷺ — ذات يوم عند أم سلمة وابنتها زينب

هناك ، فجاءته الزهراء بولديها الحسن والحسين فضمهما إليه ثم قال :

— رحمة الله وبركاته أهل البيت إنه حميد مجيد .

فبكت أم سلمة فنظر إليها رسول الله — ﷺ — وسألها فى حنو :

— ما يبكيك ؟

— يا رسول الله خصصتهم وتركتنى وابنتى .

— إنك وابنتك من أهل البيت .

وبلغ النبى — ﷺ — أن سفيان بن خالد بن نبيح قد جمع له الجموع ، فدعا رسول الله عليه السلام عبد الله بن أنيس فقال :

— إنه قد بلغنى أن ابن سفيان الهذلى جمع الناس ليغزونى وهو بنخلة أو بعرنة[١] فأته فاقتله .

— يا رسول الله انعته لى حتى أعرفه .

— إنك إذا رأيته أذكرك الشيطان ، وآية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدت له قشعريرة .

فخرج عبد الله بن أنيس متوشحا بسيفه حتى دفع إليه وهو فى ظُعن يرتاد لهن منزلا وذلك وقت العصر ، فلما رآه وجد له قشعريرة فأقبل نحوه ، وخشى أن يكون بينه وبينه مجاولة[٢] تشغله عن الصلاة فصلى وهو يمشى نحوه يومىء برأسه ، فلما انتهى إليه قال :

— من الرجل ؟

— رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لذلك .

حسب ابن سفيان أن الرجل ما قدم إلا لينضم إليه لقتال محمد

---

(١) موقع قرب عرفة .　　　(٢) الجولة : تكون فى الحرب .

— ﷺ — ، فقال :

— أجل أنا فى ذلك .

فمشى معه شيئا والنساء خلفهما فى منازلهن ، حتى إذا وجد ابن أنيس فرصته حمل عليه بالسيف فقتله ، فندت منه صرخة بلغت النساء فجئن مفزوعات ، فلما وجدنه يلفظ الأنفاس شققن الجيوب وذرفن الدموع .

وانسل عبد الله بن أنيس وهو ينشد :

تركت ابن ثور كالحُوار[1] وحوله
نوائح تفرى كل جيب مُقدَّد
تناولته والظعن خلفى وخلفه
بأبيض من ماء الحديد مهنَّد
عجوم لهام[2] الدارعين كأنه
شهاب عضٍ[3] من ملهب متوقد
أقول له والسيف يعجم رأسه
أنا ابن أنيس فارسا غير قُعْدُد
أنا ابن الذى لم ينزل الدهر قِدرَه
رحيب فناء الدار غير مزند
فقلت له خذها بضربة ماجد
حنيف على دين النبى محمد
وكنت إذا هم النبى بكافر
سبقتُ إليه باللسان وباليد

(١) الحوار : ولد الناقة إذا كان صغيرا .

(٢) لهام الدارعين : يبتلعهم .

(٣) شجر خشبه من أجود الوقود .

وقدم على رسول الله — ﷺ — فقال عليه السلام :

— أفلح الوجه .

— قد قتلته .

— صدقت .

ثم قام عليه السلام به فأدخله بيته فأعطاه عصا فقال :

— أمسك هذه العصا عندك .

فخرج بها إلى الناس فقالوا :

— ما هذه ؟

— أعطانيها رسول الله — ﷺ — وأمرنى أن أمسكها عندى .

— أفلا ترجع إليه فتسأله لِم ذلك ؟

فرجع إليه فقال :

— يا رسول الله لِم أعطيتنى هذه العصا ؟

— آية بيني وبينك يوم القيامة .

فقرنها عبد الله بن أنيس بسيفه وقد عزم أن تظل معه حتى الموت ، وأمر أن تضم إليه فى كفنه .

١٢

قتل عمرو بن أمية الضمرى رجلين غيلة عند رجوعه من بئر معونة ، فرأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يدفع دية الرجلين وكان بينه وبين اليهود عهد أن يعاونوه فى الديات ، فخرج عليه السلام فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمرو وعلى إلى بنى النضير ليستعين بهم فى دية الرجلين .

وحدثهم عليه السلام فى أمر الدية فقالوا :

— نعم يا أبا القاسم حتى تطعم وترجع بحاجتك .

وكان جالسا إلى جنب جدار من بيوتهم فخلا بعضهم ببعض وقالوا :

— إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحالة ، فمن رجل يعدو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟

فقال عمرو بن جحاش أحد ساداتهم :

— أنا لذلك .

وقال لهم سلام بن مشكم :

— لا تفعلوا ، والله ليخبرن بما هممتم به وإنه لنقض للعهد الذى بيننا وبينه .

— نقتله ونأخذ أصحابه أسارى إلى مكة .

فلما صعد ذلك الرجل ليلقى الصخرة أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الخبر من السماء بما أراد القوم . فقام رسول الله مظهرا أنه يقضى حاجته

وترك أصحابه فى مجالسهم ورجع مسرعا إلى المدينة ، ولم يعلم من كان معه من أصحابه فقاموا فى طلبه لما استبطئوه ، فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه فقال :

— رأيته داخل المدينة .

فأقبل أصحابه حتى انتهوا إليه فأخبرهم رسول الله — ﷺ — بما أرادت بنو النضير من غدر .

وعاد بنو النضير لمحاولة اغتياله — ﷺ — فأرسلوا إليه عليه السلام :

— اخرج إلينا فى ثلاثين من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبرا ، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك .

فخرج إليهم فى ثلاثين من أصحابه ، وأتى رسول الله — ﷺ — نعمان بن أضاد وبحرى بن عمرو وشامس بن عدى فكلموه وكلمهم رسول الله — ﷺ — ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته ، فقالوا :

— ما تخوفنا يا محمد ؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه .

فأنزل الله فيهم : ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾[1] .

واستمر رسول الله يدعوهم إلى الإسلام ويرغبهم فيه ويحذرهم غِيَرَ الله وعقوبته فأبوا عليه وكذبوا بما جاءهم به ، فقال لهم نفر من الأنصار :

— يا معشر يهود اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته .

---

(١) المائدة ١٨ .

فقال رافع بن حُريملة ووهب بن يهوذا :

— ما قلنا لكم هذا قط ، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا من بعده .

فأنزل الله تعالى فى ذلك قوله : ﴿ يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ﴾(١) .

وسألوه عمن يؤمن به من الرسل فتلا عليه السلام عليهم : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾(٢) .

فلما ذكر عيسى ابن مريم جحدوا نبوته وقالوا :

— لا نؤمن بعيسى ابن مريم ولا بمن آمن به .

فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قل يأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ﴾(٣) .

وقال رافع بن حارثة وسلام بن مشكم ومالك بن الضيف ورافع بن حُريملة :

— يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها من الله حق ؟

— بلى ، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ الله عليكم من الميثاق

---

(١) المائدة ١٩ .   (٢) مخليج : مطعون .

(٣) بروق : لامعة .

فيها وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس ، فبرئت من أحداثكم .

— فإنا نأخذ بما فى أيدينا فإنا على الهدى والحق ولا نؤمن بك ولا نتبعك .

فأنزل الله تعالى : ﴿ قل يأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أُنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين ﴾[1] .

وقام النعمان بن زيد وقردم بن كعب وبحرى بن عمرو :

— يا محمد أما تعلم أن مع الله إلـٰها غيره ؟

— الله لا إلـٰه إلا هو بذلك بعثت وإلى ذلك أدعو .

فأنزل الله تعالى فيهم قوله : ﴿ قل أى شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إلـٰه واحد وإننى برىء مما تشركون * الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾[2] .

وقال جبل بن أبى قشير وشمويل بن زيد :

— يا محمد أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبيا كما تقول ؟

فأنزل الله تعالى فيهما : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مُرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفىٌّ عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[3] .

---

(١) المائدة ٦٨ .　(٢) الأنعام ١٩ — ٢٠　(٣) الأعراف ١٨٧ .

وقال سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى و شامش بن قيس ومالك بن الضيف :

ـ كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله .

فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قولهم : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾(١) .

ـ أحق يا محمد أن هذا الذى جئت به لحق من عند الله ، فإنا لا نراه متسقا كما تتسق التوراة ؟

ـ أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة . ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به .

ـ يا محمد ، ألا يعلمك هذا إنس ولا جن ؟

ـ أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله وأنى لرسول الله ، تجدون ذلك عندكم فى التوراة .

ـ يا محمد فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء ويقدر منه على ما أراد ، فأنزل علينا كتابا من السماء نقرؤه ونعرفه وإلا جئناك بمثل ما تأتى به .

فأنزل الله تعالى فيهم وفيما قالوا : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾(٢) .

ـ يا محمد هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟

---

(١) التوبة ٣٠ (٢) الإسراء ٨٨

— يا محمد هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟

فغضب رسول الله — ﷺ — حتى انتُقع لونُه ثم ساورهم غضبا لربه .

فجاء جبريل عليه السلام فسكنه فقال :

— خفض عليك يا محمد .

وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾[1] .

فلما تلاها عليهم قالوا :

— صف لنا يا محمد كيف خَلْقه ؟ كيف ذراعه ؟ كيف عضده ؟

فغضب رسول الله — ﷺ — أشد من غضبه الأول وساورهم .

فأتاه جبريل عليه السلام وقال له :

— خفض عليك يا محمد .

وجاءه من الله تعالى بجواب ما سألوه بقول الله تعالى :

﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينة سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[2] .

كان رسول الله عليه السلام فى ثلاثين من أصحابه فقال بعض اليهود لبعض :

— كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون كل يحب أن يموت قبله ؟

فانتهى الحوار بينهم وبين رسول الله — ﷺ — دون أن يشرق نور الإيمان فى صدورهم . وكيف يشرق النور فى أفئدة قد طمستها ظلمات

---

(١) الإخلاص (٣) الزمر : ٦٧

الحقد والحسد والغدر ؟

وعاد رسول الله — ﷺ — والذين معه إلى المدينة وبقى يهود بنى النضير لا شاغل لهم إلا تدبير اغتياله عليه السلام ، فأرسلوا إليه :

— اخرج فى ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا ، فإن آمنوا بك اتبعناك .

واشتملت اليهود الثلاثة على الخناجر وقد بيتوا الغدر ، وخرج رسول الله عليه السلام فى ثلاثة من أصحابه قاصدا بنى قريظة وفى صدره أمل بأن يهديهم الله إلى الصراط المستقيم . وبينا رسول الله — ﷺ — فى الطريق إذ أرسلت امرأة من بنى النضير لأخ لها مسلم تعلمه بذلك ، فخرج أخوها يعدو خلف النبى وأصحابه حتى لحق به فأعلم رسول الله — ﷺ — أن القوم يريدون اغتياله ومن معه ، فقفل عليه السلام وأصحابه عائدين إلى المدينة .

ووضحت النوايا الخبيثة ، فما كان هدف بنى النضير التماس الهداية بل غطاء عملية الاغتيال بغلاف جذاب لا يمكن أن يرفضه داعية . وكيف يرفض صاحب دعوة حوارا بينه وبين الناس تتضح فيه ملامح دعوته ؟

إنه الغدر ، إنها الخيانة ، فأرسل إليهم عليه السلام محمد بن مسلمة أن اخرجوا من بلدى فلا تساكنونى بها ، فقد هممتم بما هممتم به من الغدر .

فسكتوا ولم يقولوا حرفا ، وقال لهم ابن مسلمة :

— ويقول لكم قد أجلتكم عشرا ، فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه .

فأرسلوا فى إحضار الإبل ليجلوا عن المدينة ، فأرسل إليهم المنافقون :

— لا تخرجوا من دياركم ، ونحن معكم إن قوتلتم فلكم علينا النصر ،

وإن خرجتم لن نتخلف عنكم .

وأرسل لهم عبد الله بن أبي بن سلول يقول :

ـــ لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصونكم ، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم ، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان .

فطمع بنو النضير فيما قال ابن أُبى ، وقرر حُيى بن أخطب سيد بنى النضير و والد صفية أن يرفض ذلك الإنذار ، فجاءه سلام بن مشكم وقال له :

ـــ منتك نفسك والله يا حيى الباطل ، فإن قول ابن أُبى ليس بشىء وإنما يريد أن يورطك فى الهلكة حتى تحارب محمدا فيجلس فى بيته ويتركك .

ألا ترى أنه أرسل إلى كعب بن أسد القرظي سيد بني قُريظة أن تمدكم بنو قريظة فقال له : لا ينقض رجل واحد منا العهد ، فأيس من بنى قريظة ؟ وأيضا قد وعد حلفاءه من بنى قينُقاع مثل ما وعدك حتى حاربوا ونقضوا العهد وحصروا أنفسهم فى صياصيهم وانتظروا ابن أُبى فجلس فى بيته وسار إليهم محمد حتى نزلوا على حكمه ؟ فإذا كان ابن أُبى لا ينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس ونحن لم نزل نضرب به بسيوفنا مع الأوس فى حروبهم ، فكيف يقبل قوله ؟

فأبى إلا عداوة محمد وإلا قتاله .

ـــ فهو والله جلاؤنا من أرضنا وذهاب أموالنا وشرفنا وسبى ذرارينا مع قتل مقاتلينا .

فأبى حُيى إلا محاربة رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، وقالت له بنو النضير :

ـــ أمرنا لأمرك تبع لن نخالفك .

فأرسل إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

— إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك .

فأظهر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — التكبير وكبر المسلمون لتكبيره وقال :

— حاربت يهود .

فتهيأ الناس للحرب ، فلما اجتمعوا خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بهم إلى بني النضير واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وحمل رايته على بن أبى طالب كرم الله وجهه وسار بالناس حتى نزل بهم ، وصلى العصر بفنائهم وقد تحصنوا وقاموا على حصنهم ، فقال — صلى الله عليه وسلم — لهم :

— اخرجوا من المدينة .

— الموت أهون من ذلك .

ثم تبادروا بالحرب فراح يهود بني النضير يرمون بالنبل والحجارة والمسلمون يرسلون السهام حتى إذا ما جاء وقت العشاء رجع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى بيته فى عشرة من أصحابه عليه الدرع وهو على فرس ، واستعمل على العسكر على بن أبى طالب ، وبات المسلمون يحاصرونهم ويكبرون حتى أصبحوا .

وأذن بلال بالفجر فغدا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى أصحابه الذين كانوا معه فصلى بالناس ، فأمر بلالا فضرب القبة وهى قبة من خشب عليها مسوح ، فدخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيها .

وكان رجل من يهود يقال له غزول وكان أعسر راميا يبلغ نبله ما لا يبلغه نبل غيره ، فوصل نبله تلك القبة فأمر بها — صلى الله عليه وسلم — فحولت .

وطال الحصار وغدا سعد بن عبادة يحمل التمر للمسلمين ، وفى ليلة من الليالى فقد على رضى الله عنه قرب العشاء فقال الناس :

— يا رسول الله ما نرى عليا .

— دعوه فإنه فى بعض شأنكم .

كان على يكمن لغزول على حين خرج يطلب غرة من المسلمين ومعه جماعة ، فشد على عليه فقتله ، ولما كانت قلوب اليهود هواء فقد فروا لما وجدوا عليا يحمل على صاحبهم . وجاء على إلى رسول الله عليه السلام برأس غزول فأرسل رسول الله مع على أبا دجانة وسهل بن حنيف فى عشرة فأدركوا أولئك الجماعة الذين كانوا مع غزول فقتلوهم .

وحاصرهم رسول الله — ﷺ — خمسة عشر يوما وهم فى حصونهم يرمون النبل والحجارة ، وأمر عليه السلام بقطع النخل واستعمل على قطع النخل أبا ليلى المازنى وعبد الله بن سلام . فراح أبو ليلى يقطع العجوة وعبد الله يقطع اللين ، وكانت العجوة خير أموال بنى النضير فهم يقتاتونها . فلما قطعت شق النساء الجيوب وضربن الخدود ودعون بالويل وعند ذلك ناداه الرجال :

— يا أبا القاسم قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها !

— يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح أفمن الصلاح قطع النخل ؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد فى الأرض ؟

وقالوا للمؤمنين :

— إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون .

ووقع فى نفوس بعض المسلمين من ذلك شىء ونسوا أنها الحرب ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن

الله وليخزى الفاسقين ﴾(١) .

ولا زال عبد الله بن أُبى بن سلول يبعث لبنى النضير :

— اثبتوا وتمنعوا فإنكم إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم .

ومعه على ذلك جمع من قومه ، فانتظر بنو قريظة نصر ابن أُبيّ فخذلهم ولم يحصل منه شىء ، وجعل سلام بن مشكم وكنانة بن صوريا يقولان لحيى :

— أين نصر ابن أبى الذى زعمت ؟

— ما أصنع ؟ هى ملحمة كتبت علينا .

ولزم رسول الله — ﷺ — حصارهم ، وقال يامين بن عمير لأبى سعد بن وهب :

— والله إنك تعلم أنه رسول الله ، فما ننتظر أن نسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا ؟

فنزلا من الليل وأسلما وقال رسول الله — ﷺ — ليامين :

— ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأنى ؟

كان عمرو بن جِحاش ابن عمه وكان أراد أن يلقى الحجر على رسول الله — ﷺ — ليقتله ، فجعل يامين لرجل من قيس جعلا قدره عشرة دنانير على قتل عمرو بن جِحاش ، فذهب الرجل وقتل ابن جِحاش غيلة ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله — ﷺ — أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموال إلا آلة الحرب ، ففعل .

---

(١) الحشر ٥٩ .

وجاءوا بستمائة بعير وغدا الرجال يهدمون بيوتهم عما استحسنوا من خشبها كالأبواب ويضعونها على ظهور البعير ، وصاروا ينقضون العمد والسقوف وينزعون الخشب حتى الأوتاد ، وينقضون الجدران حتى لا يسكنها المسلمون حسدا وبغضا ، ونسوا ما كانوا يعيبون على المؤمنين الفساد لما قطعوا النخل لإرغامهم على التسليم .

وخرجوا مظهرين التجلد ، خرجت النساء على الهوادج وعليهم الديباج والحرير وقطف الخز الأخضر والأحمر وحلى الذهب والفضة وخلفهم القيان بالدفوف والمزامير ، وخرجت معهم سلمى صاحبة عُروة ابن الورد وكان عروة قد نزل فى بنى النضير فسقوه الخمر ، فلما انتشى منعوه ولا شيء معه إلا سلمى فرهنها ولم يزل يشرب حتى استحق اليهودى الرهن ، فلما قال لها عروة انطلقى ، قالت لا سبيل إلى ذلك قد أغلقتنى .

وبهذا صارت عند بنى النضير فقالت فى ذلك :

سقونى الخمر ثم تكنفونى عداة الله من كذب وزور

وقالوا لست بعد فداء سلمى بمغن ما لديك ولا فقير

فلا والله لو ملكت أمرى ومن لى فى التدبرِ فى الأمور

إذا لعصيتهم فى حب سلمى على ما كان من حسك[١] الصدور

فيا للناس كيف غلبت أمرى على شيء ويكرهه ضميرى

وانطلق بنو النضير وشقوا سوق المدينة ، وصف لهم الناس فجعلوا يمرون قطارا فى إثر قطار وإن سلام بن أبى الحقيق رافع جلد جمل مملوء حليا وينادى بأعلى صوته :

---

(١) الحسك الحقد والعداوة .

ـــ هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها ، وإن كنا تركنا نخلا ففى خيبر النخل .

وحزن المنافقون لخروجهم أشد الحزن ، وذهب أكابر اليهود كحُيى ابن أخطب وابنته صفية وسلام بن أبى الحقيق وكنانة بن أبى الربيع بن أبى الحقيق إلى خيبر ، وسار آخرون إلى الشام وكان فيهم جماعة من أبناء الأنصار ، لأن المرأة من الأنصار كان إذا لم يعش لها ولد تجعل على نفسها إن عاش لها ولد تهوده .

ووجد ـــ ﷺ ـــ من الحلقة (آلة السلاح) خمسين درعا وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفا ، ثم دعا الأنصار الأوس والخزرج فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين من إنزالهم فى منازلهم وإيثارهم على أنفسهم بأموالهم ثم قال لهم :

ـــ إن إخوانكم المهاجرين ليس لهم أموال فإن شئتم قسمت هذه الأموال بينكم جميعا ، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة .

فقالوا :

ـــ بل اقسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئت .

وقال سعد بن معاذ وسعد بن عبادة :

ـــ يا رسول الله بل تقسم بين المهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا ، بل نحب أن تقسم ديارنا وأموالنا على المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وعشائرهم وخرجوا بالله ورسوله ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها .

ونادت الأنصار :

— رضينا وسلمنا يا رسول الله .

فقال رسول الله — ﷺ :

— اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار .

وقسم رسول الله — ﷺ — ما أفاء الله عليه من بنى النضير على المهاجرين ، لأنه لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شىء . وكان الأنصار أهل الأرض والعقار فآثروهم بمتاع من أشجارهم فمن المهاجرين من قبلها منيحة محضة ومنهم من قبلها بشرط أن يعمل فى الشجر والأرض وله نصف الثمار ولم تطب نفسه أن يقبلها منيحة محضة لشرف نفوسهم وكراهة أن يكونوا كلّا . ولم يعط عليه السلام أحدا من الأنصار إلا رجلين كانا محتاجين وهما سهل بن حنيف وأبو دجانة ، وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبى الحقيق وكان سيفا له ذكر عندهم .

وأعطى عليه السلام أبا بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وصهيبا وأبا سلمة بن عبد الأسد أراضى من أراضى بنى النضير ، وأمر المهاجرين برد ما كان للأنصار ، وراح المسلمون يتلون سورة الحشر التى نزلت فى بنى النضير : ﴿ سبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم * هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار * ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار * ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقّ الله فإن الله شديد العقاب * ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين * وما أفاء الله على رسوله منهم

فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير * ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دُولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب * للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم * ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون * لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون * لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدار بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون * كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم * كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين * فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين * يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم

أنفسهم أولئك هم الفاسقون * لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون * لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون * هو الله الذى لا إلـه إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إلـه إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[1] .

---

(١) سورة الحشر .

١٣

صنعت فاطمة مسكتين[١] من ورق[٢] وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدوم أبيها وزوجها ، فلما قدم — ﷺ — دخل المسجد فصلى فيه ركعتين ثم ثنى بفاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ووقف أصحابه على الباب لا يدرون أيقيمون أو ينصرفون لطول مكثه عندها . فخرج رسول الله — ﷺ — وقد عرف الغضب فى وجهه حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة أنه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر .

وكانت فاطمة تبذل نفسها لإرضائه فنزعت قرطيها وقلادتها ومسكتيها ونزعت الستر وبعثت به إلى رسول الله — ﷺ — وقالت للرسول :

— قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك : اجعل هذا فى سبيل الله .

فلما أتاه قال عليه السلام :

— قد فعلت فداها أبوها ، قد فعلت فداها أبوها ، قد فعلت فداها أبوها . ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء .

---

(١) المسكة : السوار .　　(٢) ورق : فضة .

وأعطى رسول الله — ﷺ — بعض أراضي بنى النضير للمهاجرين وأبقى بعضها يزرع له ينفق على أهله منها وكانت صدقاته منها ، ولما أعطى المهاجرين أمرهم برد ما كان للأنصار .

وكانت أم أنس أعطته — ﷺ — نخلات فأعطاها عليه السلام أم أيمن ، فظنت أم أيمن أن ذلك ملك لها فامتنعت عن رده ، ولم ينكر عليه السلام امتناع أم أيمن عن رد ما كان لأم أنس تطييبا لقلبها وصار يعطيها وهى تمتنع من رده إلى أن أعطاها عشرة أمثاله أو قريبا من ذلك وكان ذلك العطاء مما أفاء الله عليه ، فما كان يحفل بالدنيا ولا يريد منها ما يزيد على حاجته ، وكان دعاؤه :

— اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا .

كان زاهدا وكان زهده ثقة فى الله ، فلم يكن يدعو إلى إضاعة المال ولا إلى تحريم ما أحل الله ، وكان يقول لأصحابه : « ليست الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة أن تكون بما فى يد الله تعالى أوثق بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾[١] .

وأذن بلال بصلاة الصبح فأتى — ﷺ — باب على وفاطمة وحسن وحسين ، وأخذ بعضادتى الباب وقال :

— السلام عليكم أهل البيت . الصلاة .. الصلاة .. الصلاة ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا .

ووقف رسول الله عليه السلام يصلى بالمسلمين فجاء الحسن وهو

---

(١) الحديد ٢٣ .

ساجد فجلس على ظهره فرفعه النبى رفعا رفيقا ، فلما فرغ من صلاته وضعه فى حجره فكان يدخل أصابعه فى لحية النبى عليه السلام ، والنبى يضمه ويقبله فى حنان ويقول :

— اللهم إنى أحبه .

ورأى المسلمون ذلك الحب الدافق فقالوا :

— يا رسول الله إنا رأيناك تصنع بهذا الصبى شيئا ما رأيناك تصنعه بأحد .

— إن هذا ريحانتى وإن هذا ابنى سيد ، وعسى الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين .

ونهض النبى وحمل الحسن ، فنظر إليه عمر بن الخطاب فقال :

— نعم المركب ركبت يا غلام .

فقال — ﷺ :

— ونعم الراكب هو .

ودخل عليه السلام دار فاطمة فرأى الحسين صغيرا قصيرا ، فوضع الحسن وراح يستدرج الحسين حتى إذا أقبل عليه غدا يرقصه ويداعبه ويقول :

— حزقة(١) .. حزقة .. ترقة .. ترق عين بقة .

وكان من عادته — ﷺ — أن يبيت عندهم حينا بعد حين ، ففى إحدى هذه الليالى سمع الحسن يستسقى فقام — ﷺ — إلى قربة فجعل يعصرها فى القدح ، ثم جعل يعبعبه ، فتناوله الحسين فمنعه وبدأ بالحسن ، قالت فاطمة :

---

(١) الحزقة القصير .

— كأنه أحب إليك ؟

— إنما استسقى أولا !

كان يحب فاطمة من جوامع الفؤاد ، كانت إذا دخلت عليه قام إليها وقبلها وأجلسها مكانه ، ولكن ذلك الحب لم يثنه يوما عن أن يحيد عن جوهر رسالته أو أن يرضى لأهله أن يعيشوا عيشة ترف بينا سواد المسلمين فقراء ، فقد جاءته الزهراء ذات يوم تشكو من آلام الرحى وتجرح يديها أحيانا من حمل الماء ، فطلبت إليه خادما من الأسرى فأبى وقال لعلى :

— كيف تطمعون فى شىء من هذا وأهل الصفة على ما هم عليه من الفقر ؟

ودخل على فاطمة يوما وفى يدها سلسلة من ذهب وهى تقول لامرأة عندها :

— هذه أهداها أبو الحسن .

فقال — ﷺ :

— يا فاطمة ، أيسرك أن يقول الناس ابنة رسول الله فى يدها سلسلة من نار ؟

ثم خرج ولم يقعد ، فأرسلت فاطمة بالسلسلة فباعتها واشترت بثمنها عبدا فأعتقته ، فحدث رسول الله بذلك فقال :

— الحمد لله الذى نجى فاطمة من النار .

لقد خاف فى الله ما لم يخف وأوذى فى الله ما لم يؤذ أحد ، وقد أتى عليه ثلاثون ما بين يوم وليلة وما له ولبلال من الطعام إلا شىء يسير يواريه إبط بلال .

كانت السعادة ترفرف على دور النبى — ﷺ — على الرغم من حياة

التقشف التى فرضها النبى عليه السلام على أهله ، فقد كانت تمر الأيام والأسابيع ولا توقد فى دور النبى — ﷺ — نار ، كانوا يأكلون الأسودين التمر والماء . حياة سعيدة مع الشظف والفاقة ، سعيدة بالعطف الذى كان يغمر به الجميع صاحب القلب الكبير ، حتى صار حطام الدنيا عند أهله ومن لاذ به لا يساوى مثقال ذرة من هباء .

وكانت السعادة تغمر دار فاطمة الزهراء ، فهى سعيدة بزوجها البطل الذى يجدل أعداء الإسلام ، وهو سعيد ببنت رسول الله ربيبه وحبيبه وقدوته وأمله فى الحياة وفى الممات ، ولكن رجل الحرب كان يعود أحيانا إلى بيته وهو منحرف المزاج فكان يقسو على زوجه قسوة لم تكن تألفها فكانت تذهب إلى رسول الله — ﷺ — تشكو إليه ما لقيت من ابن أبى طالب ، فكان عليه السلام يصلح بينهما . وقد رئى عليه السلام ذات مساء وهو يسعى إلى دار بنته الزهراء ووجهه باسر ، فأمضى وقتا هناك ثم خرج ووجهه يفيض بالبشر ، فقال قائل من أصحابه :

— يا رسول الله دخلت وأنت على حال ، وخرجت ونحن نرى البشر فى وجهك !

— وما يمنعنى وقد أصلحت بين أحب اثنين إلىّ ؟

وأسلمت بنت عمرو بن هشام بن المغيرة (أبى جهل) ورأى أهلها الذين أسلموا من قبل أن ليس لها كفء بين المسلمين غير على بن أبى طالب ، فعرضوا على علىّ الزواج منها . وذاع الخبر فى المدينة حتى بلغ الزهراء فاستولى عليها حزن عميق ، وذهبت إلى أبيها تقول والدموع فى عينيها :

— يزعمون أنك لا تغضب لبناتك .

وأثرت دموع الزهراء فى قلب أبيها فإذا به يغضب لابنته ، أيجمع على ابن أبى طالب بين بنت رسول الله وبنت عدو الله ؟ إن هذا لن يكون .

وجاء بنو هشام بن المغيرة يستأذنونه فى تزويج بنتهم من زوج فاطمة فإذا بوجهه يظهر فيه الضيق ، وعجب بنو المغيرة فما كان الإسلام ليحول بين على وبين الزواج من أخرى وقد تزوج رسول الله — ﷺ — أكثر من امرأة ، ولكن عليه السلام ظل وفيا لأول زوجة خفق بحبها قلبه ، ظل وفيا لخديجة لم يثر غيرتها بزوجة أخرى حتى خرجت من الدنيا ، فما بال علىّ يريد أن يجمع بين ابنته وبين بنت عدوه ، وثارت بشريته فصعد إلى المنبر وقال :

— إن بني هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم علىّ بن أبى طالب ، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ، اللهم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم فإن ابنتى بضعة منى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها ، وإنى أتخوف أن تفتن فى دينها .

وراح يثنى على أبى العاصِ بن الربيع زوج زينب فى مصاهرته إياه ثم قال :

— حدثنى فصدقنى ووعدنى فأوفى لى ، وإنى لست أحرم حلالا ولا أحل حراما ولكن الله لا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله ببيت واحد أبدا .

إنه بشر ، وقد عبر عن بشريته بقوله : إنما فاطمة بضعة منى يريبنى ما رابها . ولم يحرم حلالا ولا أحل حراما وقد رد الأمر إلى ابن عمه وربيبه ليختار ، وقد اختار على بنت رسول الله عليه السلام .

وعادت المودة والصفاء إلى بيت الزوجية التى هبت عليها ريح قاسية

أرقت كل من فيها ، وراحت فاطمة ترقص طفلها وهى تقول مداعبة للزوج الذى فكر فى أن يجىء لها بضرة :

وابأبى شبـــه النبـــى لستَ شبيها بعلى

ودنا على من زوجه وقال لها فى رقة :

— والله لا آتى شيئا تكرهينه أبدا .

وعادت الحياة فى المدينة إلى ما كانت عليه عقب أن باتت ساهرة بعدما كان من بنى هشام بن المغيرة وخطبة رسول الله — ﷺ — . ووقف رسول الله عليه السلام يخطب فى مسجده وبينا هو يعظ المسلمين أقبل الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان ، فنزل إليهما عليه السلام وأخذهما وعاد إلى المنبر وهو يضمهما إليه ، ثم وضعهما فى حجره وقال :

— صدق الله ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة .

١٨

قدم إلى المدينة أبو سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبو الأسود السلمى فنزلوا على عبد الله بن أبى ، وقد أعطاهم النبى — ﷺ — الأمان على أن يكلموه ، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبى السرح وطعمة بن أبيرق ، فقالوا للنبى — ﷺ — وعنده عمر بن الخطاب :

— ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل إن لها شفاعة ومنعة لمن عبدها ، وندعك وربك .

فشق على النبى — ﷺ — قولهم ، فقال عمر بن الخطاب فى ثورة :

— ائذن لنا يا رسول الله — ﷺ — فى قتلهم .

— إنى قد أعطيتهم الأمان .

فقال عمر :

— اخرجوا فى لعنة الله وغضبه .

وأمر رسول الله أن يخرجوا من المدينة فخرجوا مذمومين . وقد أنزل الله تعالى فيهم : ﴿ يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما * واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا * وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾(١) .

وقام رسول الله — ﷺ — بعد غزوة بنى النضير شهر الربيع الأول ، وبلغه أن بنى محارب وبنى ثعلبة جمعوا الجموع من غطفان لمحاربته

---

(١) الأحزاب ١ — ٣ .

فخرج ـ ﷺ ـ فى سبعمائة من أصحابه ليغزوا نجدا واستخلف على المدينة عثمان بن عفان .

ولم يكن عدد البعير كافيا فسار المسلمون على الأقدام كل ستة نفر بينهم بعير واحد يتعاقبونه ، وكانت الشقة بعيدة فنقبت الأقدام وسقطت أظافرها فكان الرجال يلفون على أرجلهم الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع .

وبلغ المسلمون نجدا وقد بلغ بهم الجهد ، فلم يجد رسول الله ـ ﷺ ـ بها أحدا ووجد نسوة فأخذهن وفيهم جارية وضيئة ، ثم لقى جمعا فتقارب الجمعان وقد خاف بعضهم بعضا فلم يكن بينهما حرب ، وحانت صلاة الظهر فصلاها ـ ﷺ ـ بأصحابه فهم بهم المشركون فقال قائلهم :

ـ دعوهم فإن لهم صلاة بعد هذه هى أحب إليهم من أبنائهم .

وحانت صلاة العصر والعدو فى غير جهة القبلة ، ففرق رسول الله عليه السلام المسلمين فرقتين : فرقة وقفت فى وجه العدو وفرقة صلى بها ركعة ثم قيامه للثانية فارقته بقية صلاتها ثم جاءت ووقفت فى وجه العدو ، وجاءت تلك الفرقة التى كانت فى وجه العدو واقتدت به فى ثانيته فصلى بها ركعة ثم قامت وهو فى جلوس التشهد وأتمت بقية صلاتها ولحقته فى جلوس التشهد وسلم بها . وكانت صلاة الخوف .

وكان جبريل قد نزل عليه بالقرآن موضحا صلاة الخوف : ﴿ وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا * وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا

سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم * ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا * فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا * ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما ﴾[1] .

ونزل — ﷺ — ليلا وكان نزوله فى شعب استقبله ، وكانت تلك الليلة ذات ريح فقال :

— من رجل يكلؤنا (يحفظنا) هذه الليلة ؟

فقام عباد بن بشر وعمار بن ياسر فقالا :

— نحن يا رسول الله نكلؤكم .

ونزل المسلمون الشعب فى خيام ضربوها وجلس عباد وعمار على فم الشعب ، فقال عباد بن بشر لعمار بن ياسر :

— أنا أكفيك أول الليل وتكفينى آخره .

فنام عمار رضى الله عنه وقام عباد رضى الله عنه يصلى . وكان زوج بعض النسوة اللاتى أصابهن رسول الله — ﷺ — غائبا ، فلما جاء أخبر الخبر فتتبع الجيش وحلف لا ينثنى حتى يصيب محمدا أو يهريق فى أصحاب محمد دما .

ورأى الرجل عباد بن بشر قائما قال :

---

(١) النساء ١٠١ — ١٠٤ .

— هذا ربيئة(١) القوم .

فصوب إليه سهما فوضعه فيه فانتزعه عباد وهو صابر على ألمه ، فرماه بآخر فوضعه فيه فانتزعه ، فرماه بآخر فانتزعه ، فلما غلبه الدم قال لعمار :

— أجلس فقد أُتيت .

فلما رأى ذلك الرجل عبادا جلس علم أنه قد نذر به فهرب ، فقال عمار :

— أى أخى ، ما منعك أن توقظنى له فى أول سهم رمى به ؟

— كنت أقرأ فى سورة الكهف فكرهت أن أقطعها .

وجاء رجل بفرخ طائر فأقبل أحد أبويه حتى طرح نفسه بين يدى الذى أخذ فرخه ، فعجب الناس من ذلك ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— أتعجبون من هذا الطائر أخذتم فرخه فطرح نفسه رحمة لفرخه ! والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه .

وجىء له — ﷺ — بثلاث بيضات من بيض النعام ، فقال لجابر :

— دونك يا جابر فاعمل هذه البيضات .

فعملهن ثم جاء بهن فى قصعة ، فجعل من عند الرسول عليه السلام يطلبون خبزا فلم يجدوا ، فجعل — ﷺ — وأصحابه يأكلون من ذلك البيض بغير خبز حتى انتهى .

ولم يلق رسول الله — ﷺ — كيدا فلم تنشب معركة بينه وبين غطفان فقفل عائدا إلى المدينة ، حتى إذا ما دنا منها بعث جعال بن سراقة مبشرا بسلامته وسلامة المسلمين ، وكان جعال من أهل الصفة الذين

---

(١) الربيئة : الطليعة .

انقطعوا للعبادة فى مسجد الرسول وحراسته — ﷺ — وملازمته فى غدواته وروحاته .

ولاحت أرباض المدينة فأغذ[1] المسلمون السير ، وكان جابر بن عبد الله على جمل ثقال إنما هو فى آخر القوم ، فمر به النبى — ﷺ — فقال :

— من هذا ؟

— جابر بن عبد الله .

— فما لك ؟

— إنى على جمل ثقال .

— أمعك قضيب ؟

— نعم .

— أعطنيه .

فضرب الجمل فزجره فكان من ذلك المكان من أول القوم ، ودنا رسول الله — ﷺ — من جابر وقال :

— بعنيه .

— بل هو لك يا رسول الله .

— لا . ولكن بعنيه .

— فسُمنيه يا رسول الله .

فقال عليه السلام مداعبا جابر :

— قد أخذته بدرهم .

— لا . إذن تغبننى يا رسول الله .

---

(١) أغذ : أسرع .

— فبدرهمين .

— لا .

فلم يزل يرفع له رسول الله — ﷺ — فى ثمنه حتى قال :

— بل بعنيه فقد أخذته بأربعة دنانير ولك ظهره إلى المدينة .

وقال عليه السلام :

— يا جابر هل تزوجت بعد ؟

— نعم يا رسول الله .

— أثيبا أم بكرا ؟

— لا . بل ثيبا .

— أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك !

— يا رسول الله إن أبى أصيب يوم أُحد وترك بنات له تسعا ، فنكحت امرأة جامعة ، تجمع رءوسهن وتقوم عليهن .

— أصبت إن شاء الله .

ودخل النبى المدينة فاستقبله المسلمون بالبشر والترحاب ، ثم انطلق إلى المسجد يصلى ركعتين لله شكرا. ودخل جابر إليه فعلف الجمل فى ناحية البلاط ، ودخل رسول الله — ﷺ — دار فاطمة ثم راح يطوف بدور أزواجه .

وذهب إليه جابر فقال :

— يا رسول الله هذا جملك .

فخرج رسول الله — ﷺ — يطوف بالجمل ثم قال :

— الثمن والجمل لك .

والتفت رسول الله عليه السلام إلى بلال خازن الرسول وقال :

— يا بلال اقضه وزده .

فأعطاه أربعة دنانير وزاده قيراطا ، وأعطاه الجمل وسهمه مع القوم .

١٥

قال أبو سفيان حين منصرفه من أُحد :

— موعد ما بيننا وبينكم بدر .

فقال — ﷺ — لعمر بن الخطاب قل : نعم إن شاء الله .

وقد وافى موسم بدر بعد أن أقام بالمدينة عقب غزوة ذات الرقاع بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجبا فى سنة أربع من هجرته ، ثم تهيأ للخروج إلى بدر لميعاد أبى سفيان .

واستخلف عليه السلام على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أُبى بن سلول ، وكان عبد الله من المتقين ولم يؤثر فى رسول الله أنه ابن رأس المنافقين ، فما كان عليه السلام يخلط عملا حسنا بعمل سيئ ، وما كان يحكم على الأبناء بفعل الآباء ولا تزر وازرة وزر أخرى .

ورأى نعيم بن مسعود الأشجعى تهيؤ المسلمين للخروج لقتال قريش ، فقدم إلى مكة وأخبر قريشا أن المسلمين تهيئوا للخروج لقتالهم ببدر ، فكره أبو سفيان الخروج وقال لنعيم :

— إنه بدا لى ألا أخرج وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جراءة ، فلأن يكون الخلف من قبلهم أحب إلى من أن يكون من قبلى ، فالحق بالمدينة وأعلمهم أنا فى جمع كثير ولا طاقة لهم بنا ، ولك عندى من الإبل عشرون بعيرا أدفعها لك على يد سهيل بن عمرو .

فجاء نعيم إلى سهيل بن عمرو فقال له :

— يا أبا يزيد تضمن لى هذه الإبل وأنطلق إلى محمد وأثبطه .

— نعم .

فقدم نعيم المدينة وأرجف بكثرة جموع أبى سفيان ، وصار يطوف فى المسلمين حتى قذف الرعب فى قلوبهم ولم يبق لهم نية فى الخروج ، واستبشر المنافقون واليهود وقالوا فى فرح :

— محمد لا يفلت من هذا الجمع .

وسمع أبو بكر وعمر ما أرجف به المسلمون فجاءا إلى رسول الله — ﷺ — وقالا له :

— يا رسول الله إن الله مظهر نبيه ومعز دينه ، وقد وعدنا القوم موعدا لا نحب أن نتخلف عنه فيرون أن هذا جبن ، فسر لموعدهم فوالله إن فى ذلك لخيرة .

فسر رسول الله — ﷺ — بذلك ثم قال :

— والذى نفسى بيده لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد .

فأذهب الله عنهم ما كانوا يجدون ، وحمل لواء رسول الله — ﷺ — على بن أبى طالب وخرج فى ألف وخمسمائة من أصحابه ، وكان الخيل عشرة أفراس ، وخرج المسلمون معهم بتجارات إلى بدر .

وقال أبو سفيان لقريش :

— لقد بعثت نعيما ليخذل أصحاب محمد عن الخروج .

ولكن نخرج نحن فنسير ليلة أو ليلتين ثم نرجع ، فإن كان محمد لم يخرج وبلغه أنا خرجنا فرجعنا ، لأنه إن لم يخرج كان هذا لنا عليه ، وإن خرج أظهرنا أن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام عشب .

— نعم ما رأيت .

فخرج أبو سفيان فى قريش وهم ألفان ومعهم خمسون فرسا حتى انتهوا إلى سوق مجنة .

وصار المسلمون كلما سألوا عن قريش قيل لهم :

— قد جمعوا لكم .

فيقولون :

— حسبنا الله ونعم الوكيل

فلما اقتربوا من بدر قيل لهم :

— إنها قد امتلأت من الذين جمعهم أبو سفيان .

كانوا يريدون إرهابهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم ، ولكن المسلمين كانوا يقولون فى إيمان :

— حسبنا الله ونعم الوكيل .

وقابل المسلمين ركب من عبد القيس كانوا قاصدين إلى المدينة للميرة[١] ، فجعل لهم أبو سفيان حمل أبعرتهم زبيبا إن خذلوا المسلمين وأرجفوهم ، فطفقوا يقولون لهم :

— إنما أنتم لهم أكلة رأس[٢] ، وإن ذهبتم إليهم لا يرجع منكم أحد .

فقال المسلمون فى إيمان :

— حسبنا الله ونعم الوكيل .

وبدا لأبى سفيان الرجوع فقال :

— يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب فارجعوا .

فرجع ورجع الناس ، واستمر المسلمون فى زحفهم متوكلين على ربهم

---

(١) الميرة : الطعام المجلوب .

(٢) أكلة رأس : كناية عن القلة .

حتى إذا قدموا بدرا أقام رسول الله — ﷺ — ينتظر أبا سفيان لميعاده ، فأتاه فحش بن عمرو الضمرى وهو الذى وادعه على بنى ضمرة فى غزوة ودان فقال :

— يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء ؟

— نعم يا أخا بنى ضمرة ، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ثم جالدناك حتى يحكم بيننا وبينك .

— لا والله يا محمد ، ما لنا لذلك منك من حاجة .

وأقام رسول الله — ﷺ — ينتظر أبا سفيان ، فمر به معبد بن أبى معبد الخزاعى وقد رأى مكان رسول الله — ﷺ — وناقته تهوى به فقال :

قد نفرتْ من رُفقتَىْ محمــد وعجـوة من يثرب كالعَـسجـد

تهوى على ديــن أبيها الأتلــد قد جعلـتْ ماء قديـد موعـدى

وماء ضجنـان لها ضحـى الغـد

ووجدوا ببدر أسواقا لا ينازعهم فيها أحد فراحوا يتجرون فربحت تجارتهم الضعف ، وكانوا أصحاب الموسم .

وانقضت أيام سوق بدر الثمانية فخرج معبد بن أبى معبد الخزاعى سريعا إلى مكة ، وغدا يقص على سادات قريش ما كان من محمد عليه السلام وأصحابه فى سوق بدر وكيف كانت لهم العزة ، فأحس القرشيون كمدا ، وتذكر صفوان بن أمية أنه نهى أبا سفيان يوم أُحد أن يعد المسلمين لغزوة أخرى فقال لأبى سفيان فى غضب :

— قد نهيتك يومئذ أن تعد القوم وقد اجترءوا علينا ورأونا أخلفناهم ، وإنما خلفنا الضعف .

وشعر القرشيون بالخزى وذاقوا طعم الهزيمة وإن لم ينهزموا فى قتال ، فقد كان نكوصهم عن الخروج أقسى من الهزيمة ، بعد أن قال زعيمهم أبو سفيان يوم أُحد فى خيلاء مزهوا بانتصاره :

— موعد ما بيننا وبينكم بدر .

فلقد خرج محمد عليه السلام إلى بدر الموعد ولم يأت تخذيل الناس للمسلمين بما كان يشتهى أبو سفيان ، فرفع تخلف قريش عن موعدها من روح المسلمين المعنوية وفت فى عضد الكافرين والمنافقين ومن فى قلوبهم مرض .

وعاد رسول الله — ﷺ — إلى المدينة فاستقبله الناس بالبشر والترحاب ، وما كاد العائدون يستقرون فى دورهم حتى نشبت معركة الشعر ، فقال عبد الله بن رواحة :

وعدنا أبا سفيان بدرا فلم نجد ... لميعاده صدقا وما كان وافيا
فأُقسم لو وافيتَنا فلقيْتنا ... لأُبتَ ذميما وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عُتبةَ وابنه ... وعمرا أبا جهل تركناه ثاويا
عصيتم رسول الله أف لدينكم ... وأمركم السَّيئ الذى كان غاويا
فإنى وإن عنفتمونى لقائل ... فدى لرسول الله أهلى وماليا
أطعناه لم نعدله بغيره ... شهابا لنا فى ظلمة الليل هاديا

وقال حسان بن ثابت :

دعوا فلجات[1] الشام قد حال دونها
جلاد كأفواه المخاض[2] الأوارك[3]

---

(١) فلجات : الماء الجارى . (٢) المخاض : الحوامل من الإبل .
(٣) الأوارك التى ترعى الأراك .

بأيـدى رجــال هاجـروا نحو ربهم
وأنصاره حقــا وأيـــدى الملائك
إذا سلـكت للغَوْر من بطن عالج(١)
فقــولا لها ليس الطريــق هنــالِك
أقمنـا على الرَّس(٢) النَّزوع ثمانيــا
بأرعـــنَ جرار عريض المبــارك
بكـل كمـيت(٣) جوزُه نَخلقــه
وقبٌّ(٤) طوال مشرفــات الحوارك
ترى العرفج(٥) العامئ تذرى أصولـه
مناسمُ أخفـاف المطىِّ الـرواتك(٦)
فإن نلــق فى تطوافنــا والتماسنــا
فراتَ بن حيَّان يكـن رهــن هالك
وإن نلق قيس بن امرئ القيـس بعـده
يزد فى سـواد لونـــه لونُ حالك
فأبلـغ أبـا سفيـان عنـى رسالـة
فإنك من غُرِّ الرجــال الصَّعــالك

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عم النبى الذى ما كان يفارقه أبدا قبل الرسالة وشبيهه وشاعر قريش بعد الزبير بن عبد المطلب وأبى طالب :

---

(١) مكان به رمل كثير
(٢) الرس : البئر المطوية بالحجارة .
(٣) الكميت : الفرس
(٤) القب : الفحل من الإبل .
(٥) العرفج : شجر .
(٦) رتك البعير : قارب خطوه .

أحسان إنا يا بن آكلة الغفا[١] وجدُّك نغتال الخروق كذلك
خرجنا وما تنجو اليعافير[٢] بيننا ولو وألتْ[٣] منا بشدٍّ مُدارك
إذا ما انبعثنا من مُناخ حسبتَه مدمَّن أهل الموسم المتعارك
أقمت على الرس النزوع تريدنا وتتركنا فى النخلِ عند المُدارِك
على الزرع تمشى خيلنا وركابنا فما وطئت ألصقْنه بالدَّكادك
أقمنا ثلاثا بين سَلع وفارع بجُرد الجياد والمطىِّ الرَّواتك
حسبتم جلاد القوم عند قبابهم كمأخذكم بالعين أرطال آنك[٤]
فلا تبعث الخيل الجياد وقل لها على نحو قول المعصم المتماسك
سعدتم بها وغيركم كان أهلَها فوارس من أبناء فهر بن مالك
فإنك لا فى هجرة إن ذكرتَها ولا حرمات الدين أنت بناسك

---

(١) الغفا : التمر . (٢) اليعافير : الظباء .
(٣) وأل : طلب النجاة .(٤) العين هنا : المال الحاضر ، آنك : القزدير .

١٦

كانت عائشة بنت أبى بكر خفيفة الجسم ذات عينين واسعتين وشعر جعد ووجه مشرق مشرب بحمرة ، وكانت تعرف مكانتها من قلب رسول الله — ﷺ — ، ولكنها كانت تغار من أم سلمة بنت أبى أمية زاد الركب ، وكان يزيد فى غيرتها ذلك التقارب بين أم سلمة وفاطمة الزهراء الذى أحس به كل من يعيشون فى دور النبى عليه السلام .

وكان بين بيت فاطمة وبيت النبى — ﷺ — خوخة وكانت فيه كوة إلى بيت عائشة ، فكان رسول الله — ﷺ — إذا قام اطلع من الكوة إلى فاطمة فعلم خبرها وخبر أبنائها ، وكانت عائشة تستشعر شيئا من الغيرة من ذلك العطف السابغ الذى يغمر به رسول الله عليه السلام ابنته وزوجها وأبناءهما ، ولكنها كانت تحاول جاهدة أن تخفى ما فى نفسها .

وقالت فاطمة ذات ليلة لزوجها :

— إن ابنىَّ أمسيا عليلين فلو نظرت لنا أدما نستصبح به !

فخرج على إلى السوق فاشترى لها أدما وجاء به إلى فاطمة فاستصبحت ، فقامت عائشة فى جوف الليل فأبصرت المصباح عندهم فكان بينها وبين فاطمة كلام أغضب الزهراء ، فلما أصبحوا وجاء النبى عليه السلام لزيارة ابنته وسبطيه سألت فاطمة النبى — ﷺ — أن يسد الكوة ، فسدها رسول الله — ﷺ — .

كانت عائشة تحب رسول الله — ﷺ — بكل عواطفها وإحساساتها فهو الرجل الأول فى حياتها ، وهو رسول الله الذى يشرف كل أنثى أن تكون له زوجة ، فكانت تبذل كل ما فى وسعها البذل لتثبت مكانتها فى قلبه وتتمنى من أعماق نفسها لو تستطيع أن يكون لها وحدها دون أهل بيته ، فلم تحجم عن الكفاح فى سبيل الاستئثار بحبه .

وكانت ترجو أن يكون لها ولد من رسول الله — ﷺ — كما كان لخديجة ، ولكن الأيام مرت دون أن تنجب ، وكانت غيرتها تتحرك كلما كانت ترى النبى — ﷺ — يسأل عن الحسن والحسين ويلاعبهما ويضاحكهما ويقول إذا حاول أحد أن يبعد أحدهما عنه :

— دعوا لى ابنى .

كانت تستشعر مرارة لأنها عاجزة عن أن تنجب له ولدا يعوضه عن القاسم والطاهر ، وعن أن تشبع عواطف الأمومة التى كانت تتحرك بين ضلوعها كلما ضمت عبد الله ابن أختها أسماء فى أحضانها .

وأحبت أن تكنى وأن تنادى باسم ابن من أبنائها كما تكنى أم سلمة وغيرها من نساء أهل البيت ، فاستأذنت رسول الله — ﷺ — فى الكنية فقال لها عليه السلام :

— اكتنى بابنك عبد الله بن الزبير .

فكانت كنيتها أم عبد الله .

أرادت عائشة أن تحتل مكان خديجة فى دار الرسول وفى قلبه مذ أول يوم وطئت فيه قدماها دار محمد عليه السلام ، ولكن محمدا — ﷺ — كان خالصا لخديجة لم تشاركها فيه امرأة أخرى ، أما هى فقد جاءت إلى دور النبى وقد سبقتها إليها امرأة أخرى هى سودة بنت زمعة العجوز التى

كان زواجه منها عن عطف ومواساة لا عن حب ورغبة .

إنها لم تحس نحو سودة أية غيرة وكانت كثيرا ما تداعبها لتضحك النبى عليه السلام ، وكانت تقسو أحيانا فى مداعبتها وما كانت سودة تغضب إذا ما رأت رسول الله — ﷺ — يبتسم ، فقد كانت غاية أمانيها أن تدخل السرور على قلب الرجل الكريم الذى ضمها إليه لتصبح أول أم للمؤمنين بعد خديجة الطاهرة سيدة نساء قريش .

أعدت عائشة ذات يوم طعاما وجلست إليه هى وسودة ورسول الله بينهما ، وقدمت لسودة الطعام فاعتذرت بأنها لا تحبه ، فقالت لها عائشة مداعبة إنها ستلطخ به وجهها إن لم تأكل منه فعادت سودة تعتذر عن تناوله ، فقامت عائشة ولطخت به وجه سودة وهى تضحك ، فضحك النبى ولم يقل شيئا . فلما رأت سودة ابتسامة النبى عليه السلام لم تغضب ، فقد كان يسعدها أن تراه يضحك . إنها لا تنسى ليلة أن قالت له :

— صليت خلفك الليلة يا رسول الله فركعت بى حتى أمسكت بأنفى مخافة أن يقطر الدم !

إنه تبسم تلك الليلة ضاحكا من قولها ، وإنها كلما تذكرت بسمته أحست راحة ورضا فيكفيها أن تنجح مرة فى أن تدخل السرور على قلبه .

وكانت تعرف حب رسول الله عليه السلام لعائشة فأحبتها لحبه إياها وراحت ترعاها ، فأحبتها عائشة ولم تشعر نحوها غيرة ، وكيف تغار شابة جميلة مثل عائشة من امرأة عجوز لا تريد ما تريد النساء .

وجاءت إلى دور الرسول عليه السلام حفصة بنت عمر ، شباب دافق وأب له مكانته فى الإسلام وبين المسلمين . ليت أبا بكر قد تزوجها يوم أن

عرضها عليه عمر وأراحها من الغيرة التى تتلظى فى أحشائها . ولكن كيف يتزوجها أبو بكر وقد ذكرها رسول الله ، فإن أبا بكر قد قال لعمر بعد أن خطب محمد عليه السلام حفصة :

ـــ لا تجد علىّ يا عمر ، فإن رسول الله ـــ ﷺ ـــ ذكر حفصة ، فلم أكن لأفشى سر رسول الله ـــ ﷺ ـــ ولو تركها لتزوجها .

كان رسول الله عليه السلام يريد بزواجه عائشة وحفصة أن يوطد الأواصر بصاحبيه أبى بكر وعمر ، فأبو سفيان قد تزوج فى القبائل وزوج أبناءه وبناته لسادات القوم لتكون له العزة بأصهاره وأنسبائه ، ورسول الله ـــ عليه السلام ـــ قد تزوج من بنتى صاحبيه المؤمنين القويين ليربط بينه وبينهما الأسباب توطيدا لأركان الإسلام .

كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ يتزوج لحكمة ، وكانت عائشة تفطن إلى تلك الحكمة . ولكن طبيعتها البشرية كانت تغلبها فكانت تغار من كل أنثى تدخل دور الرسول كزوجة . وقد لسعتها عقارب الغيرة من بنت عمر وإن كانت واثقة من أنها هى نفسها أحب نساء النبى إلى قلب النبى .

ووفدت على دور النبى عليه السلام زينب بنت خزيمة ، ولم تحفل عائشة لمقدمها كثيرا فلم تكن ذات جمال ، وقد انصرفت إلى رعاية المساكين والحدب عليهم والبر بهم حتى عرفت بأم المساكين ، وكانت قريرة العين بالشرف الرفيع الذى نالته بالأمومتين اللتين عرفت بهما : أم المؤمنين وأم المساكين ، ولم يطل بها المقام فى دور الرسول عليه السلام فقد ماتت بعد بضعة أشهر دون أن تحاول أن تنافس عائشة حبها أو تستأثر بقلب الزوج الكريم الذى ضمها إليه شفقة بها ورحمة .

وقدمت إلى دور النبى عليه السلام أم سلمة بنت زاد الركب وكانت

ذات جمال وشرف فحزنت عائشة حزنا شديدا ، وقد كانت أم سلمة زوجة ابن عمة الرسول وأخيه فى الرضاعة فكان رسول الله عليه السلام يعتبرها من أهله ، وقد توطدت الصداقة بينها وبين فاطمة الزهراء . فرأت عائشة أن تضم إليها بنت الخطاب وأن تكون منهما حزبا يقف فى وجه حزب الزهراء وأم سلمة .

كانت الزهراء سعيدة فى كنف أبويها ، فلما ماتت خديجة سيدة نساء قريش كانت فاطمة ترعى أباها وتحاول أن تمسح عن قلبه حزنه الكبير على من كانت له وزير صدق على الدوام ، حتى عرفت فاطمة بأم النبى . فلما جاءت عائشة إلى دار النبى لتحتل مكان خديجة أحست فاطمة نحوها بإحساسات غيرة الابنة ممن أخذت مكان أمها . وأحب رسول الله عليه السلام بنت أبى بكر وعرف الناس أنها زوجه الأثيرة عنده ، فلم ترتح الزهراء إلى أن تقاسمها عائشة قلب أبيها وعطفه الكبير . ولما كانت النساء محدثات الليل فقد حدثت فاطمة عليا زوجها بما تشعر به نحو عائشة فانتقل ما فى نفسها إلى صدر ابن أبى طالب ، فأصبح ينظر إلى بنت الصديق بعين فاطمة ويحس نحوها بإحساسات زوجه .

وكانت عائشة تتيه على ضرائرها بأن الوحى ينزل فى دارها وكان ذلك حقا حتى ذلك الوقت ، فما نزل الوحى فى دار سودة ولا حفصة ولا زينب بنت خزيمة ولا أم سلمة ، وقد قالت عائشة :

— تبارك الذى وسع سمعه كل شىء . إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله — ﷺ — وهى تقول : يا رسول الله أبلى شبابى ونثرت له بطنى حتى إذا كبرت سنى وانقطع ولدى ظاهر منى . اللهم إنى أشكو . فما برحت حتى نزل جبريل

عليه السلام بقول الله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله .. ﴾(١) .

كانت خولة بنت ثعلبة عند أوس بن الصامت أخى عبادة بن الصامت ، فدخل عليها ذات يوم وكلمها بشىء وهو فيه كالضجر ، فردته بغضب فقال :

ـ أنت علىّ كظهر أمى .

ثم خرج فى نادى قومه ثم رجع إليها فراودها عن نفسها فامتنعت منه ، فحاول أن يضمها إليه قسرا فدفعته وهى تقول :

ـ كلا والذى نفس خولة بيده لا تصل إلىّ حتى يحكم الله تعالى فىّ وفيك بحكمه .

وانطلقت إلى رسول الله عليه السلام وكان عند عائشة ، وراحت تجادله وعائشة فى جانب البيت لا تدرى ما يقول ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير * الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسًا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾(٢) . ورفع عن رسول الله ـ ﷺ ـ الوحى فالتفت إلى

---

(١) المجادلة ١ (٢) المجادلة ١ ـ ٤

خولة وقال :

— مريه فليعتق رقبة .

— يا نبي الله والله ما عنده رقبة يعتقها .

— مريه فليصم شهرين متتابعين .

— يا نبي الله شيخ كبير ما به من صيام .

— فليطعم ستين مسكينا .

— يا نبي الله والله ما عنده ما يطعم .

— بلى ، سنعينه بعرق من تمر مكتمل يسع ثلاثين صاعا .

— وأنا أعينه بعرق آخر .

— قد أحسنت ، فليتصدق .

١٧

كان بدومة الجندل جمع كثير يظلمون من مر بهم ، يغيرون على القوافل يقتلون الرجال ويسبون النساء ويأخذون ما بها من أموال . وكانت دومة الجندل أقرب مدن الشام إلى المدينة فبينها وبينها ست عشرة ليلة وبينها وبين دمشق خمس ليال وهى بقرب تبوك .

كان بها أبناء دومة بن إسماعيل عليه السلام قد طال عليهم الأمد وقست قلوبهم وعبدوا الأوثان بعد التوحيد ومارسوا غزو القوافل وقطع الطريق ، وقد عزموا على أن يمدوا نشاطهم ويدنوا من المدينة ويغيروا على ما يخرج منها من قوافل أو يهاجموا أطرافها ثم يعودون بما سلبوا من غنائم وما وقع فى أيديهم من أسرى إلى مدينتهم الحصينة .

وبلغ رسول الله — ﷺ — ما يدبر رجال دومة الجندل فلم ينتظر حتى يفاجئوه بهجومهم بل ندب الناس للخروج ، فخرج فى ألف من المسلمين واستخلف على المدينة سباع بن عرقفة الغفارى ، وخرجت معه عليه السلام عائشة بنت أبى بكر فى هودجها مع نساء المسلمين . وراحوا يسيرون بالليل ويكمنون النهار ، وكان دليله عليه السلام من بنى عذرة يقال له مذكور ، حتى إذا كانوا بالبيداء انقطع عقد لعائشة فأقام رسول الله — ﷺ — على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فأتى الناس إلى أبى بكر فقالوا :

— ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله — ﷺ —

وليسوا على ماء وليس معهم ماء .

فجاء أبو بكر إلى عائشة ورسول الله — ﷺ — واضع رأسه على فخذها قد نام ، فقال :

— حبست رسول الله — ﷺ — والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء .

وغدا أبو بكر يعاتبها وجعل يطعن بيده فى خاصرتها ، ولا يمنعها من التحرك إلا مكان رأس رسول الله — ﷺ — على فخذها ، فقام رسول الله — ﷺ — حين أصبح على غير ماء . فأنزل الله تعالى : ﴿ ... وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا ﴾[1] .

فقام المسلمون مع رسول الله — ﷺ — فضربوا بأيديهم إلى الأرض ثم رفعوا أيديهم ولم ينفضوا من التراب شيئا ، فمسحوا بها وجوههم وأيديهم إلى المناكب ومن بطون أيديهم إلى الآباط ثم وقفوا خلفه يصلون وقد أضاء الفجر البيداء وأشرقت نفوسهم بأنوار اليقين ، وقضيت الصلاة فقال أسيد بن الحضير :

— ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر .

وجاء أوان الرحيل فبعث رجال البعير الذى كانت عليه عائشة فوجدوا العقد ، ففرحت به عائشة . وانطلق المسلمون فى طريق الشام قاصدين دومة الجندل ليؤدبوا من يظلمون من مر بهم ولينزلوا الرعب فى قلوبهم حتى ينثنوا عن فكرة الدنو من المدينة .

---

(١) النساء ٤٣ .

ودنا رسول الله — ﷺ — من أهل دومة الجندل فإذا هم مغرّبون وإذا آثار النعم والشاء ، فهجم على ماشيتهم ورعائهم فأصاب من أصاب وهرب من هرب .

وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتفرقوا ، ونزل رسول الله — ﷺ — بساحتهم فلم يجد بها أحدا ، فأقام بها أياما وبث السرايا وفرقها فرجعت ولم تصب منهم واحدا وأخذ منهم رجل واحد ، فسأله رسول الله — ﷺ — عنهم فقال :

— هربوا حيث سمعوا أنك أخذت نَعَمهم .

فعرض عليه الإسلام فأسلم . ورجع رسول الله — ﷺ — إلى المدينة ، وفى رجوعه رأى عيينة بن حصن يرعى بمحل بينه وبين المدينة ستة وثلاثون ميلا لأن أرضه كانت قد أجدبت ، فصالحه عليه السلام وتركه يرعى حتى يسمن حافره وخفه ، وكان يقال لعيينة الأحمق المطاع ، كان يتبعه عشرة آلاف فتاة .

ودخل المسلمون المدينة فاتجه عليه السلام إلى المسجد فصلى لله ركعتين ، ثم بدأ ببيت ابنته الزهراء فلما دخل عليها قامت إليه ورحبت به وأخذت بيده فقبلتها وراحا يتحدثان ، فما كان أحد من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله — ﷺ — من فاطمة .

وراح يدور على بيوت نسائه : سودة بنت زمعة وحفصة بنت عمر وأم سلمة ، ودخلت عائشة بنت أبى بكر دارها لتستريح من وعثاء الطريق .

وخرج عليه السلام إلى أصحابه فإذا سعد بن معاذ يقبل عليه بوجه باسر فقد ماتت أمه وهو مع رسول الله — ﷺ — ، فذهب عليه السلام

إلى قبرها وصلى عليها وقد تذكر ما كان منها يوم أُحد . إنها خرجت تعدو نحوه وهو واقف على فرسه وابنها سعد آخذ بعنان فرسه ، فقال سعد :

ـــ يا رسول الله أمي .

ـــ مرحبا بها .

فدنت حتى تأملته فعزاها بابنها عمرو بن معاذ ، فقالت :

ـــ أما إذ رأيتك سالما فقد اشتويت المصيبة .

ـــ يا أم سعد بشرى أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا فى الجنة جميعا وقد شفعوا فى أهليهم .

ـــ رضينا يا رسول الله ومن يبكى عليهم بعد هذا ؟

صلى عليه السلام على قبرها بعد شهر من موتها . ولما أتم صلاته دنا منه سعد بن معاذ وقال :

ـــ يا رسول الله أتصدق عنها ؟

ـــ نعم .

ـــ أى الصدقة أفضل ؟

ـــ الماء .

فحفر بئرا وقال :

ـــ هذه لأم سعد .

وراح رسول الله يطوف على أصحابه فى عالية المدينة وفى سافلها حتى أتى بنى ظفر ، فجلس على الصخرة ومعه ابن مسعود ومعاذ بن جبل وناس من أصحابه ، فالتفت إلى ابن مسعود فقال :

ـــ اقرأ علىّ .

فقال عبد الله بن مسعود فى دهش :

— أقرأ عليك وعليك أنزل ؟

— نعم إنى أحب أن أسمعه من غيرى .

وراح ابن مسعود يتلو : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا * وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا * وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا * وآتوا النساء صدُقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا * ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا ﴾(١) .

واستمر ابن مسعود يقرأ سورة النساء حتى أتى إلى هذه الآية : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » . فقال عليه السلام :

— حسبك الآن .

فبكى رسول الله — ﷺ — حتى اضطرب لحياه وجنباه ، فقال :

— يا رب ، شهدتُ على من أنا بين ظهريه فكيف بمن لم أره ؟

ثم صمت قليلا وقال :

— شهيد عليهم ما دمتُ فيهم ، فإذا توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم .

---

(١) النساء ١ — ٥

١٨

لما أراد زيد بن حارثة أن يتزوج زينب بنت جحش جاء إلى النبى عليه السلام وقال :

— يا رسول الله اخطب على .

— من ؟

— زينب بنت جحش .

كانت زينب ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب ، وكان زيد مولاه وقد اختاره على أبيه وأبى مفارقته ، فأخذ رسول الله — ﷺ — بيده وقام به على الملأ من قريش فأشهدهم أن زيدا ابنه وارثا وموروثا .

كانت زينب ابنة عمته وكان زيد ابنه ، ولم تكن امرأة خيرا منها فى الدين وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد بذلا فى نفسها فى العمل الذى تتصدق به وتتقرب إلى الله عز وجل ، ولم يكن شاب خيرا منه فى الدين فهو ربيب نبى الله الذى نهل الحكمة من أصفى ينابيعها وأغزرها ، وكان حب رسول الله — ﷺ — ، فكان كفؤا لابنة عمة رسول الله عليه السلام . ولكن تقاليد الجاهلية لم تكن قد انمحت بعد من نفوس المسلمين ، وكان النبى عليه السلام يعلم ذلك فقال له :

— لا أراها تفعل ، إنها أكرم من ذلك نفسا .

— يا رسول الله إذا كلمتها أنت وقلت زيد أكرم الناس على فعلت .

— إنها امرأة لسناء .

فذهب زيد إلى على بن أبى طالب ، إلى الرجل الذى شب معه فى كنف خديجة فى بيت النبوة فحمله على أن يكلم له النبى — ﷺ — ، فانطلق معه إلى النبى عليه السلام فكلمه ، فقال :

— إنى فاعل ذلك ومرسلك يا على إلى أهلها فتكلمهم .

وانطلق على إليها وحدث أخاها أبا أحمد بن جحش فرفض ورفضت ، وعاد على إلى النبى عليه السلام ، وأخبره بكراهتها وكراهة أخيها .

كان فى زواج زيد من زينب بنت جحش حكمة وتشريع ، ولولا ذلك ما بعث نبى الله الذى يحترم رغبة المرأة ويترك لها حق إبداء رأيها فى بعلها إلى زينب ابنة عمته وأخيها وأهلها يقول :

— قد رضيته لكم وأقضى أن تنكحوه .

ورضيت زينب بقضاء رسول الله — ﷺ — وقبلت أن تتزوج الشريفة سليلة المطلبيين عبدا ، فقد كانت مؤمنة عميقة الإيمان وكانت تعرف أنه ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم .

وساق زيد لهم عشرة دنانير وستين درهما ودرعا وخمارا وملحفة وإزارا وخمسين مدا من الطعام وعشرة من التمر ، أعطاه ذلك كله رسول الله — ﷺ — ، ولا غرو فهو زيد بن محمد .

وبنى زيد بزينب وأكد الإسلام أن الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى ولا أبيض على أسود ولا حر على عبد إلا بالتقوى ، وأن الناس لآدم وآدم من تراب ، ومن أراد أن يتفاخر فليتفاخر بالتراب .

وكان زيد أفطس الأنف ولم يكن جميل الصورة فلم ينشرح له قلب

زينب ، ولم يكتب للبيت الجديد السعادة . وأحس زيد نفورا من زوجه ، ولما كان ربيب النبي فقد غذى على الكرامة ، أبى أن يرتبط بزوجة زاهدة فيه . فذهب إلى رسول الله — ﷺ — يعرض عليه أن يطلقها فقال له النبي عليه السلام :

— ما لك ؟ أرابك منها شيء ؟

— لا والله يا رسول الله ما رابني منها شيء ولا رأيت إلا خيرا ، ولكنها تتعظم عليّ لشرفها وإن فيها كبرا ، تؤذيني بلسانها .

— أمسك عليك زوجك .

حطم زواج زيد من زينب حلقة من تقاليد الجاهلية : ترفُّع السادة عن الزواج من العبيد وإن كانوا أتقياء أكفاء ، وكان هناك حلقة أخرى كتب على رسول الله — ﷺ — أن يحطمها ، فقد كان العرب قبل الإسلام لا يتزوجون أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا .

كانت زينب كارهة للبقاء مع زيد ، وكان زيد يأتي إلى رسول الله يلتمس منه أن يوافق على طلاق ابنه لابنة عمته عليه السلام ، وكانت الحكمة تقضي أن يقبل عليه السلام ذلك الفراق وأن يخطب ابنة عمته لنفسه لتتم شريعة الإسلام وليعوضها عن تضحيتها الغالية إطاعة لله ورسوله ، ولكنه يخشى الناس فقال لزيد :

— أمسك عليك زوجك .

وأصبحت الحياة بين زينب وزيد لا تطاق وكان لا بد من الطلاق ، فلما وقع وانقضت عدتها كان لا بد أن تتم حكمة زواج زيد من زينب ثم انفصالهما ، وما كانت تلك الحكمة لتتم إلا بأن يتقدم رسول الله — ﷺ — ليخطب زينب ، فأرسل زيد بن حارثة يخطبها له ، فذهب

زيد إليها وجعل ظهره إلى الباب فقال :

— يا زينب بعث رسول الله — ﷺ — يذكرك .

كانت زينب امرأة لم تكن امرأة خيرا منها فى الدين ، فاعتكفت تصلى لله تنتظر أمر السماء فيما عرض عليها ابن خالها رسول الله — ﷺ — .

وأنزل الله تعالى : ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا * ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا * الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا ﴾[1] .

فدخل رسول الله — ﷺ — على زينب بغير إذن يتلو عليها ما أنزل الله فإذا بها تتهلل بالفرح فقد كانت تنتظر أمر الله فى هذا الزواج فإذا بالله تعالى أنكحها رسوله من فوق سبع سموات .

وفى هلال ذى القعدة سنة أربع من الهجرة تزوجها نبى الله وأولم عليها وأطعم المساكين خبزا ولحما ، وطعم القوم وتهيأ — ﷺ — للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام وقام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبى — ﷺ — ليدخل فإذا القوم جلوس فلم يدخل ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلك كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم

---

(١) الأحزاب ٣٧ — ٣٩

وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا وإن ذلكم كان عند الله عظيما * إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما * لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا ﴾(١) .

ولم تنم المدينة تلك الليلة ، كان زواج النبى عليه السلام من ابنة عمته حديث الدور ، وراح المؤمنون يتلون الآيات التى نزلت على نبى الله — ﷺ — فى بيت عائشة فرحين ، بينا تكلم فى ذلك المنافقون فقالوا :

— حرم محمد نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه .

فأنزل الله عز وجل : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾(٢) .

وظل الناس ينادون زيد بن حارثة بزيد بن محمد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل * ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما ﴾(٣) .

وكانت زينب مفزع اليتامى والأرامل وأطول نساء النبى — ﷺ — يدا ، كانت تقضى نهارها فى محرابها وتقوم الليل إلا قليلا ، وقد قال رسول الله — ﷺ — لعمر :

---

(١) الأحزاب ٥٣ — ٥٥ (٢) الأحزاب ٤٠ (٣) الأحزاب ٣ — ٥

— إن زينب بنت جحش أوّاهة .

فقال رجل :

— يا رسول الله ما الأوّاه ؟

— الخاشع المتضرع و﴿ إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب ﴾(١) .

وأصبحت زينب بنت جحش تسامى عائشة بنت أبى بكر فى المنزلة عند رسول الله — ﷺ — ، وأخذ عائشة ما قرب وما بعد لما تعرف من جمال زينب ، وعلى الرغم من غيرتها فإنها لم تقل إلا خيرا ، قالت :

— ولم أر امرأة قط خيرا فى الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى يتصدق به ويتقرب به إلى الله عزو وجل .

ولا غرو فقد كانت عائشة تترعرع فى مدرسة القرآن وتتلقى العلم من رسول الله عليه السلام وتتأدب بآدابه وتنهل من كريم أخلاقه .

وكانت زينب بنت جحش التقية النقية تعرف مكانتها فى دور النبى عليه السلام ، فقد قالت لنساء النبى ذات يوم :

— أنا أكرمكن وليا وأكرمكن سفيرا : زوجكن أهلكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات !

---

(١) هود ٧٥

١٩

بلغ رسول الله — ﷺ — أن الحرث بن ضرار سيد بنى المصطَلِق جمع لحرب رسول الله — ﷺ — من قدر عليه من قومه ومن العرب ، فأرسل عليه السلام بريدة بن الحُصيب ليعلم علم ذلك . واستأذن بريدة رسول الله عليه السلام أن يقول ما يتخلص به من شرهم وإن كان خلاف الواقع ، فأذن له رسول الله — ﷺ — .

وخرج بريدة من المدينة إلى بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة لهم ماء يعرف بالمريسيع وذلك الماء فى ناحية قديد حيث يقوم صنم مناة ، وكانت إلهة الأوس والخزرج قبل أن يلقى الله فى قلوبهم أنوار اليقين ومن ظل على دينه من خزاعة . واستمر بريدة يضرب فى الأرض حتى ورد عليهم ورأى جمعهم ، فقالوا له :

— من الرجل ؟

— رجل منكم قدمت لما بلغنى من جمعكم لهذا الرجل ، فأسير فى قومى ومن أطاعنى فنكون يدا واحدة حتى نستأصلهم .

فقال له الحرث :

— فنحن على ذلك فعجل علينا .

— أركب الآن فآتيكم بجمع كثير من قومى .

فسروا بذلك منه ورجع إلى رسول الله — ﷺ — فأخبره خبر القوم فندب رسول الله — ﷺ — الناس إليهم فأسرعوا الخروج ، وقادوا

الخيل وهى ثلاثون فرسا عشرة للمهاجرين منها فرسان له — ﷺ — : اللزاز والظرب ، وعشرون للأنصار ، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة . وخرج معه عليه السلام من نسائه عائشة وأم سلمة ، وخرج معه — ﷺ — ناس كثير من المنافقين لم يخرجوا فى غزوة قط مثلها منهم عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين وزيد بن الصلت ليس لهم رغبة فى الجهاد ولكن غرضهم أن يصيبوا من عرض الدنيا مع قرب المسافة .

وسار رسول الله — ﷺ — حتى بلغ محلا نزل به ، فأتى برجل من عبد القيس فسلم على رسول الله — ﷺ — ، فقال له عليه السلام :

— أين أهلك ؟

— بالروحاء .

— أين تريد ؟

— إياك ، جئت لأومن بك وأشهد أن ما جئت به حق وأقاتل معك عدوك .

— الحمد لله الذى هداك للإسلام .

— أى الأعمال أحب يا رسول الله ؟

— الصلاة لأول وقتها .

ووجه الحرث رجلا ليأتيه بخبر رسول الله — ﷺ — فوقع فى أيدى المسلمين ، فسأله رسول الله — ﷺ — عن الحرث والذين معه فلم يذكر من شأنهم شيئا ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، فأمر رسول الله — ﷺ — عمر بن الخطاب أن يضرب عنقه فضرب عنقه وكان ذلك جزاء كل عين على الجيوش يفتضح أمره .

وبلغ الحرث مسير رسول الله — ﷺ — وأنه قتل عينه فسىء بذلك

ومن معه وخافوا خوفا شديدا ، وتفرق عنه جمع كثير ممن كان معه .
وانتهى رسول الله — ﷺ — إلى المُرَيْسيع فضربت له قبة من أدم وكان معه فيها عائشة وأم سلمة ، فتهيأ المسلمون للقتال ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة ، وأمر رسول الله — ﷺ — عمر بن الخطاب أن يقول لهم :

— قولوا لا إلٰه إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم .

كان عمر سفير قريش فى الجاهلية فأُصبح سفير المسلمين فى الإسلام ، فمشى إلى الحرث ومن معه وقال لهم :

— قولوا لا إلٰه إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم .

عرض عليهم رسول الله — ﷺ — أن يجنحوا للسلم وأن يدخلوا فى دين الله وكان إسلامهم أحب إليه من قتالهم ، ولكنهم أبوا السلام والإسلام فنشب القتال فتراموا بالنبل ساعة ، ثم أمر رسول الله — ﷺ — أصحابه فحملوا حملة رجل واحد ، وضج المكان بشعار المسلمين :

— يا منصور أمت .

وثبت الحرث والذين معه وصفوا للقتال ، ومشى الرجال إلى الرجال وإذا بسيوف ترتفع لتسقط على هامات الرجال ، وإذا بالله يلقى الرعب فى قلوب المشركين فقتل منهم عشرة وأسر سائرهم الرجال والنساء والذرية ، واستاق رسول الله — ﷺ — إبلهم وشياههم ، فكانت الإبل ألفى بعير والشياء خمسة آلاف شاة . واستعمل — ﷺ — على ذلك مولاة شُقران ، وكان السبى مائتى أهل بيت وكانت برة بنت الحرث سيد بني المصطلق فيهم .

وأمر رسول الله — ﷺ — بالأسارى فكتفوا واستعمل عليهم بُرَيْدة ، ثم فرق السبى فصار فى أيدى الناس ، وبعث — ﷺ — أبا ثعلبة الطائى إلى المدينة بشيرا من المريسيع .

ووقعت برة بنت الحرث فى سهم ثابت بن قيس وابن عم له ، فجعل ثابت لابن عمه نخلات له بالمدينة فى حصته من برة ، وأرادت أن تسترد حريتها فكاتبت ثابت على تسع أواق من ذهب فوجدت أن لا طاقة لها بدفع ما طلب ، فانطلقت إلى قبة رسول الله — ﷺ — تعرض عليه أمرها .

كان النبى — ﷺ — عند عائشة فقدمت بَرّة تلتمس مقابلة رسول الله — ﷺ — ، فوالله ما هو إلا أن رأتها عائشة بباب الخباء فكرهت دخولها على النبى — ﷺ — وعرفت أنه سيرى منها مثل الذى رأت ، كانت برة فى العشرين من عمرها جميلة ذات شخصية آسرة تأخذ بمجامع القلوب ، لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه .

ودخلت برة على رسول الله — ﷺ — فقالت له :

— يا رسول الله إنى امرأة مسلمة لأنى أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنك رسول الله ، وإنى برة بنت الحرث سيد قومه أصابنا من الأمر ما قد علمت ووقعت فى سهم ثابت بن قيس وابن عم له ، وخلصنى ثابت من ابن عمه بنخلات فى المدينة وكاتبنى على ما لا طاقة لى به ، وإنى رجوتك فأعنى فى مكاتبتى .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— أوَخير من ذلك ؟

— ما هو ؟

— أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك .

— نعم يا رسول الله قد فعلت .

فأرسل رسول الله — ﷺ — إلى ثابت بن قيس فطلبها منه ، فقال ثابت :

— هي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي .

فأدى رسول الله — ﷺ — ما كان كاتبها عليه وأعتقها وتزوجها وسماها جُوَيْرِية .

وكان هوى خُزاعة مع رسول الله — ﷺ — ، وقد أراد — ﷺ — بزواجه من جويرية أن يصبح الخزاعيون أصهاره لعل ذلك يشرح صدورهم للإسلام .

ورأى المسلمون أنه — ﷺ — تزوج جويرية فقالوا في حق بني المصطلق :

— أصهار رسول الله — ﷺ — .

فأعتقوا ما بأيديهم منهم وجاءت جارية من بنات عم جويرية تخبرها الخبر ، فاغرورقت عينا جويرية من التأثر ثم خرت ساجدة لله رب العالمين أن جعلها بركة على قومها .

واختصم جَهجاه أجير لعمر بن الخطاب ، كان يقود له فرسه مع رجل من حلفاء الخزرج حليف عبد الله بن أُبيّ بن سلول يقال له سنان بن قروة وكان المسلمون لا يزالون على ماء المريسيع فضرب أجير عمر حليف الخزرج فسال الدم ، فنادى حليف الخزرج :

— يا للخزرج !

ونادى أجير عمر :

— يا لكنانة ! يا لقريش !

وسمع عبد الله بن أُبىّ بن سلول النداء فغضب وكان عنده رهط من قومه من الخزرج من المنافقين ، وكان عندهم زيد بن أرقم وهو غلام حديث السن ، فقال عبد الله بن أُبىّ :

ــ والله ما رأيت كاليوم مذلة وقد فعلوها ، نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدنا وقريش هؤلاء إلا كما قال الأول فى أمثالهم : سمن كلبك يأكلك . والله إنى لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفا يهتف بما سمعت . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منا الأذل .

ثم أقبل على من حضر من قومه فقال :

ــ هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضا للمنايا فقتلتم دونه فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد .

فثارت الدماء فى عروق زيد بن أرقم فقال لابن أبى :

ــ أنت والله الذليل المنقص فى قومك . ومحمد ــ ﷺ ــ فى عز من الرحمن وقوة من المسلمين .

فغاص لون ابن أبى وامتقع فقد كان يحسب أن الحاضرين كلهم من المنافقين وما كان يدرى أن عندهم غلاما حديث السن أضاء الله بصيرته وألقى فى قلبه أنوار اليقين ، فقال ابن أبى فى صوت مضطرب :

ــ اسكت ، إنما كنت ألعب .

وأقبل جمع من الجيشين وشهروا السلاح حتى كاد أن تكون فتنة عظيمة ، فخرج رسول الله ــ ﷺ ــ فقال :

ــ ما بال دعوى الجاهلية ؟

— رجل من المهاجرين ضرب رجلا من الأنصار .

إنها دعوى مذمومة تثير الأحقاد وتدعو إلى الفرقة بين المسلمين بعد أن ألف الله بينهم ، فقال — ﷺ :

— دعوها إنها مفتنة (مذمومة) ، من دعا دعوى الجاهلية كان من محشيي جهنم .

— وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم ؟

— وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم .

ثم كلموا ذلك المضروب فترك حقه فسكنت الفتنة وانطفأت ثائرة الحرب ، ولكن زيد بن أرقم كان كالمحموم يريد أن يمشي إلى رسول الله — ﷺ — ليخبره خبر عبد الله بن أبى رأس المنافقين . وفيما هو يجد فى السير نحو نبى الله عليه السلام إذ التقى بعمر بن الخطاب فقص عليه ما سمع فى مجلس النفاق ، فانطلق عمر إلى رسول الله — ﷺ — فذكره للنبى عليه السلام فدعا زيدا فحدثه ، فكره رسول الله — ﷺ — ذلك وتغير وجهه وقال له :

— يا غلام لعلك غضبتَ عليه !

— والله يا رسول الله لقد سمعته منه .

— لعله أخطأ سمعك .

ولامه من حضر من الأنصار وقالوا :

— عمدت إلى سيد قومك تقول عليه ما لم يقل .

وقام زيد بن أرقم يجر رجليه وقد أصابه هم لم يصبه قط لما كذبه رسول الله عليه السلام .

وانطلق إلى الخباء وهو حزين فجاء إليه عمه فقال له :

— ما أردت إلا أن كذبك رسول الله — ﷺ — ومقتك .

فقال زيد والدموع فى مآقيه :

— والله لقد سمعت ما قال ولو سمعت هذه المقالة من أبى لنقلتها إلى رسول الله — ﷺ — ، وإنى لأرجو أن ينزل الله على نبيه ما يصدق حديثى .

وجلس رسول الله فى فىء شجرة وقد تغير وجهه ، فجاء عمر إلى رسول الله — ﷺ — عنده غليم أسود يكبس ظهره فقال عمر :

— يا رسول الله كأنك تشتكى ظهرك .

— تقحمت بى الناقة الليلة (أى ألقته عليه السلام) .

— يا رسول الله ائذن لى أن أضرب عنق ابن أبى أو مر محمد بن مسلمة بقتله .

— كيف يا عمر إذا تحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه ؟

وذهب بعض الأنصار الذين سمعوا قول النبى — ﷺ — ورده على الغلام إلى ابن أبىّ فقال له :

— يا أبا الحباب إن كنت قد قلت ما نقل عنك فأخبر به النبى — ﷺ — فليستغفر لك ولا تجحده فينزل فيك ما يكذبك ، فإن كنت لم تقله فأت رسول الله — ﷺ — فاعتذر له واحلف ما قلته .

فحلف بالله العظيم ما قال من ذلك شيئا . ثم مشى إلى رسول الله — ﷺ — فقال له رسول الله — ﷺ — :

— يا بن أبى إن كانت سبقت منك مقالة فتب .

— والذى أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك وإن زيدا لكاذب .

فقال من حضر رسول الله — ﷺ — من الأنصار :

— يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل .

— يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا يصدق عليه غلام .

وجاء عبد الله ولد عبد الله بن أبى لما بلغه مقالة عمر من قتل أبيه إلى رسول الله عليه السلام فقال :

— إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرنى أن أحمل لك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالده منى . إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار .

— ما أردت قتله ولا أمرت به ، ولنحسنن صحبته ما كان بين أظهرنا .

وشاع الخبر ولم يعد للناس حديث إلا ما رواه زيد عن عبد الله بن أبى ، أناس يكذبون زيد بن الأرقم ، وأناس يصدقون مقالته . واستولى على زيد هم ثقيل فراح يبتهل إلى الله بكل كيانه أن ينزل على نبيه ما يصدق حديثه .

وخشى رسول الله — ﷺ — أن تشيع الفتنة فى الناس فأذن بالرحيل ، وكان ذلك فى ساعة لم يكن يرحل فيها لشدة الحر ، فارتحل الناس وسار رسول الله — ﷺ — فجاءه أسيد بن حُضير وقال له :

— السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته .

— وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .

— يا نبى الله لقد رحلت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها .

— أما بلغك ما قال صاحبكم ؟

— أى صاحب يا رسول الله ؟

— عبد الله بن أُبىّ بن سلول .

— وما قال ؟

— زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل .

— فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز .

وصمت أُسيد بن حضير قليلا ثم قال :

— يا رسول الله الرفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ما بقيت عليهم إلا خرزة واحدة عند يوشع اليهودى ، فإنه ليرى أنك استلبته ملكا .

ثم سار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالناس سيرا حثيثا وصار يضرب راحلته بالسوط أسفل بطنها ، وسار يومهم ذلك وليلتهم وصدر ذلك اليوم الثانى حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياما ، وقد فعل — صلى الله عليه وسلم — ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أُبى بن سلول .

وغابت ناقة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — القصواء من بين الإبل فجعل المسلمون يطلبونها من كل وجه وقد أرخى الليل سدوله ، فنظر زيد بن الصلت ، وكان منافقا إلى المسلمين وهم يخرجون فى طلب القصواء وقال وهو فى مجمع من الأنصار :

— أين يذهب هؤلاء فى كل وجه ؟

— يطلبون ناقة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد ضلت .

— ألا يخبره الله بمكانها ؟ كيف يدعى أنه يعلم الغيب ولا يعلم مكان

ناقته ولا يخبره الذى يأتيه بالوحى ؟

فأنكر عليه القوم وقالوا :

— قاتلك الله يا عدو الله نافقت .

وأرادوا قتله فعمد هاربا إلى رسول الله — ﷺ — متعوذا به ، فقال رسول الله عليه السلام وذلك الرجل يسمع :

— إن رجلا من المنافقين شمت أن ضلت ناقة رسول الله — ﷺ — وقال : ألا يخبره الله بمكانها ؟ والله لقد أخبرنى بمكانها ولا يعلم الغيب إلا الله وإنها فى الشعب مقابلكم قد مست زمامها بشجرة فاعمدوا نحوها .

فأتوا بها من حيث قال — ﷺ — فقام ذلك الرجل سريعا إلى رفقائه فقالوا له حين دنا :

— لا تدن منافقا .

فقال لهم فى دهش :

— أنشدكم الله هل أتى أحد منكم محمدا فأخبره خبرى ؟

— لا والله ولا قمنا من مجلسنا .

— إنى وجدت ما تكلمت به عنده .

وأوقع — ﷺ — السباق بين الإبل فسابق بلال على ناقته — ﷺ — القصواء فسبقت غيرها من الإبل . واستمر المسلمون يضربون فى الأرض قاصدين المدينة وزيد بن أرقم يسترق النظر إلى عبد الله ابن أبى وهو حزين يبتهل من أعماقه إلى الله أن يفضح ابن أبى كبير المنافقين وأن ينزل على رسوله ما يصدق حديثه .

٢٠

دنا المسلمون من المدينة راجعين فنزل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والذين معه ليستريحوا قبل أن يدخلوا على أهليهم ، بعد غيبة ثماني وعشرين ليلة ملأت قلوبهم شوقا إلى الأحبة .

وجاء الليل فأذن بالرحيل ، فقامت عائشة وذهبت لتقضى حاجة حتى تجاوزت الجيش ، فلما قضت شأنها أقبلت إلى رحلها فإذا عقد لها من جزع ظفار (خرز من بلدة ظفار باليمن) كان ثمنه يسيرا لا يساوى أكثر من اثنى عشر درهما قد انقطع ، فذهبت إلى التماسه فى المحل الذى قضت فيه حاجتها وحبسها التماسه .

وأقبل أبو مويهبة مولى رسول الله ، والرهط الذين كانوا يجعلون هودجها على الرحل فاحتملوا هودجها فرحلوه على بعيرها الذى كانت تركب وهم يحسبون أنها فيه ، ولم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه فقد كان النساء خفافا لقلة أكلهن ، وساروا حتى اختفت القافلة فى جوف الليل البهيم .

ووجدت عائشة عقدها فجاءت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، وأقامت بمنزلها الذى كانت فيه وظنت أنهم سيفتقدونها فيرجعون إليها ، فبينا هى جالسة فى منزلها غلبتها عينها فنامت .

وكان صفوان السلمى على ساقة الجيش يتخلف عن الجيش ليلتقط ما يسقط من متاع ، فسار ليلا حتى أصبح عند منزل عائشة فرأى سوادا

فأتاه ، فإذا عائشة أم المؤمنين نائمة فقال :

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، أظعينة رسول الله ؟!

فاستيقظت عائشة باسترجاعه فخمرت (حجبت) وجهها بجلبابها ، ثم قرب البعير وقال :

— أمّة قومى فاركبى .

إنه يحترمها ويجلها ويعظمها فهى أم المؤمنين وزوج رسول رب العالمين ، وصمت ما يكلمها كلمة وأخذ برأس البعير وسار ليلحق بركب المؤمنين .

وانتهى رسول الله — ﷺ — إلى وادى العقيق فتقدم عبد الله بن عبد الله بن أبىّ بن سلول وجعل يتصفح الركاب حتى مر أبوه فأناخ به ثم وطىء على يد راحلته ، فقال أبوه :

— ماذا تريد يا لكع(١) ؟

— والله لا تدخل حتى تقر أنك الذليل وأن رسول الله — ﷺ — العزيز حتى يأذن لك رسول الله ، لتعلم أيكما الأعز من الأذل أنت أو رسول الله — ﷺ — :

— أنت من بين الناس .

— نعم أنا من بين الناس . لئن لم تقر لله ولرسوله بالعزة لأضربن عنقك .

— ويحك ! أفاعل أنت ؟

— نعم .

ولما رأى منه الجد قال :

---

(١) الكع : اللئيم .

ـــ أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

ورأى زيد بن أرقم رسول الله ـــ ﷺ ـــ تأخذه البرحاء[١] ويعرق جبينه وتثقل يدا راحلته ، فقال :

ـــ إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ يوحى إليه :

وخفق قلب زيد ولفه انفعال شديد وهو يرجو أن ينزل الله تصديقه ، فلما سرى عن رسول الله أخذ بأذنه وزيد على راحلته يرفعها إلى السماء ، حتى ارتفع زيد عن مقعده ورسول الله عليه السلام يقول له :

ـــ وعت أذنك يا غلام وصدق الله حديثك وكذب المنافقين .

وراح رسول الله يتلو ما أنزل إليه : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جُنَّة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون * ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم لا يفقهون * وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون * وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوَّوا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون * سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين * هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون * يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله

---

(١) البرحاء : شدة الحمى وغيرها .

ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين * ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾[1] .

ونزلت سورة المنافقين وفيها تكذيب ابن أُبى بن سلول فتهللت أسارير زيد بن أرقم وامتلأ نشوة بينا ظهر الأسى فى وجوه أصحاب ابن أُبى ، إنهم سألوه من قبل أن يذهب إلى رسول الله — ﷺ — يعتذر إليه ويلتمس الغفران قبل أن ينزل فيه قرآن ولكنه لوى رأسه وأبى . أما وقد نزل القرآن وفيه تكذيبه فإن الأمر أصبح لا يحتمل عنادا ولا استكبارا فانطلقوا إليه وقالوا :

— اذهب إلى رسول الله — ﷺ — يستغفر لك .

فلوى رأسه ثم قال :

— أمرتمونى أن أومن فآمنت ، وأمرتمونى أن أعطى زكاة أموالى فأعطيت ، فما بقى إلا أن أسجد لمحمد .

وساء عبد الله بن عبد الله بن أُبى أن يصرح القرآن بنفاق أبيه . إنه غاضب على أبيه وحزين أن الله لم يطهر قلبه ، وكان جالسا إلى النبى — ﷺ — فشرب رسول الله عليه السلام فقال له :

— بالله يا رسول الله أما أبقيت فضلة من شرابك أسقها أبى لعل الله يطهر بها قلبه ؟

فأفضل له فأتاه بها ، فقال له أبوه عبد الله بن أبى :

— ما هذا ؟

---

(١) سورة المنافقون .

— هى فضلة من شراب النبى — ﷺ — جئتك بها تشربها لعل الله يطهر قلبك بها .

— فهلا جئتنى ببول أمك فإنه أطهر منها .

فغضب وجاء إلى النبى — ﷺ — وقال :

— يا رسول الله بالله أما أذنت لى فى قتل أبى ؟

— بل ترفق به وتحسن إليه .

وصار قوم عبد الله بن أبى يعاتبونه ويعنفونه وقد امتلأت أفئدتهم ببغضه ، فقال — ﷺ — لعمر :

— كيف ترى يا عمر ؟ إنى والله لو قتلته يوم قلت لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته .

فقال عمر فى اقتناع :

— قد والله علمت ، لأمر رسول الله — ﷺ — أعظم بركة من أمرى .

سار صفوان بن المعطل السلمى يقود بعائشة أم المؤمنين الراحلة طوال الليل حتى أتيا الجيش بعدما نزلوا وذلك فى نحر الظهيرة وكان عبد الله بن أبى بن سلول ينزل مع جماعة من المنافقين مبتعدين من الناس فمرت عليهم فقال :

— من هذه ؟

— عائشة وصفوان .

— فجر بها ورب الكعبة .

وفغر الناس أفواههم ، لن يصدقوا فى يسر ما قال كبيرهم فعاد ابن أبى يقول :

— ما برئت منه وما برىء منها .

وقدم رسول الله — ﷺ — المدينة هلال رمضان وما درت عائشة شيئا ولا سمع رسول الله — ﷺ — بما بدأ يوسوس به غريمه للناس . ودخل عليه السلام مسجده وصلى لله ركعتين ثم دخل على ابنته فاطمة الزهراء ليطفىء شوقه إليها وليضم إليه أبناءها ، ثم راح يدور على أزواجه .

واشتكت عائشة حين قدمت ، واستمر عبد الله بن أبى فى غيه وجعل يوسع الأرض إشاعة ، فأخذ بعض الناس يتقولون ، وغدا مسطح بن أثاثة الذى كان يعيش على ما يتصدق به أبو بكر عليه يخوض مع الخائضين فى حديث الإفك . ورأت حمنة بنت جحش أن تزيد النار لهيبا لعل النبى عليه السلام يطلق عائشة فيخلو وجهه لأختها زينب .

وراحت امرأة أبى أيوب الأنصارى تحدث زوجها حديث الناس فقالت :

— يا أبا أيوب ألم تسمع بما تحدث الناس ؟

— وما يتحدثون ؟

فحدثته بقول أهل الإفك فقال :

— ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

وكان قد شاع فى بنى المصطلق ما كان من رسول الله — ﷺ — ومن تزوجه من جويرية ، ومن المسلمين وإكرامهم لما كان بأيديهم من السبى ، فشد الحرث بن ضرار سيد بنى المصطلق الرحال إلى المدينة ودخل على رسول الله — ﷺ — وأعلن إسلامه ثم دخل بنو المصطلق فى دين الله أفواجا .

وسر رسول الله — ﷺ — بإسلام بنى المصطلق ، ولكن سرعان

ما نزل بقلبه حزن ثقيل فقد انتهى حديث الإفك إليه وإلى أبى بكر وأم رومان ، فأما أبو بكر وأم رومان فقد حزنا حتى الموت فقلباهما يحترقان ولا يحركان لسانهما بكلمة ينتظران فى قلق رحمة الله ، ولا يذكران لعائشة شيئا فهى تشتكى شكوى شديدة وإن ألم نفسيهما الذى يعانيانه لأشد من ألمها وأوجع .

ودخل أبو أيوب الأنصارى على زوجه وهو فى ضيق من حديث الإفك وقال فى حزن عميق :

— ألا ترين ما يقال ؟

فقالت أم أيوب :

— لو كنت بدل صفوان أكنت تهم بسوء لحرم رسول الله — ﷺ ؟

— لا .

— ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله — ﷺ — فعائشة خير منى وصفوان خير منك .

وآذى رسول الله — ﷺ — ما بلغه ومال إلى ألا يصدق حديث السوء فهو لا يعلم عن عائشة إلا خيرا ، ولكن ما بال الناس يتقولون عليها ؟ ودخل يعودها فلم يستطع أن يدارى ما به فلم يلاطفها كما اعتاد أن يفعل كلما وعكت ، فأنكرت عائشة منه ذلك وخطر لها أن جويرية قد شغلته عنها ، وخرج النبى ولم يمكث طويلا فانطلق إلى زينب بنت جحش وهى التى كانت تساميها من أزواج النبى فقال :

— ماذا علمت أو رأيت ؟

كانت زينب من خير الناس تقى فقالت :

— يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت إلا خيرا .

وحز الحزن فى نفس الرسول عليه السلام . إنه عزيز عليه أن يتقول الناس على عائشة الأثيرة عنده . وكان يقلقه أنه لا يملك أن يتهمها أو يبرئها ، فدخل عليها ذات يوم وأمها تمرضها فقال :

— كيف تيكم ؟

ولم يزد على ذلك فأحست عائشة فى صوته عدم اللطف الذى كانت ترى منه حين تشتكى ، فوجدت فى نفسها وعزمت على أن تترك له الدار فقالت :

— يا رسول الله لو أذنت لى فانتقلت إلى أمى فمرضتنى ؟

— لا عليك .

— وانتقلت عائشة إلى دار أمها لا تعلم شيئا ، وأحست فى نفسها موجدة على الرسول — صلى الله عليه وسلم — فقد ولى لطفه وقد ظنت أنه تخلى عنها فى مرضها . واستمر الناس يخوضون فى حديث الإفك فضاق به صدر النبى فقام فى الناس يخطبهم :

— أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهن غير الحق ؟ والله ما علمت منهن إلا خيرا ، ويقولون ذلك لرجل ما علمت منه إلا خيرا ، وما دخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى ؟

فقال سعد بن معاذ :

— إن يكونوا من الأوس نكفيكم وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم .

فقام سعد بن عبادة وقال :

— كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة

إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو أنهم من قومك ما قلت هذا .

— كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين .

وتثاور الناس حتى كاد أن يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر ، فانشرح صدر عبد الله بن أبي بن سلول فقد أيقظ الفتنة التى نامت بالإسلام وابتدأ معول الهدم يدك دولة ابن عبد الله . ولكن محمدا — ﷺ — أخمد الفتنة قبل أن يندلع لهيبها ، فكاد ابن أبي يموت بغيظه .

وهجا حسان بن ثابت صفوان بن المعطل فذهب صفوان إليه واعترضه وضربه بالسيف ، فوثب ثابت بن قيس بن الشماس على صفوان حين ضرب حسان فجمع يديه إلى عنقه بحبل ثم انطلق به إلى دار بنى الحارث بن الخزرج ، فلقيه عبد الله بن رواحة فقال :

— ما هذا ؟

— أما أعجبك ضرب حسان بالسيف ؟ والله ما أراه إلا قد قتله .

قال له عبد الله بن رواحة :

— هل علم رسول الله — ﷺ — بشيء مما صنعت ؟

— لا والله .

— لقد اجترأت ! أطلق الرجل .

فأطلقه . ثم جاءوا إلى رسول الله — ﷺ — فقال حسان :

— يا رسول الله شهر على السيف فى نادى قومى ثم ضربنى ولا أرانى إلا ميتا من جراحى .

فقال — ﷺ — لصفوان :

— ولِم ضربته وحملت السلاح عليه ؟

وأظهر التغيظ على صفوان بسبب إظهاره السلاح على حسان وضربه

به ، فقال صفوان :

— يا رسول الله ﷺ آذانى وهجانى فاحتملنى الغضب فضربته .

وقال عليه السلام لقوم حسان :

— احبسوا صفوان فإن مات حسان فاقتلوه .

فحبسوه ، فبلغ ذلك سيد الخزرج سعد بن عبادة فاقبل على قومه ولامهم على حبسه فقالوا :

— أمرنا رسول الله — ﷺ — بحبسه وقال لنا : إن مات صاحبكم فاقتلوه .

— والله إن أحب الأمر إلى رسول الله — ﷺ — العفو عنه ، ولكن رسول الله — ﷺ — قضى بالحق ، والله لا أبرح حتى يطلق .

فاستحى القوم وأطلقوه ، وأخذه سعد وانطلق به إلى منزله وكساه حلة وجاء به إلى المسجد ، فلما رآه — ﷺ — قال :

— صفوان ؟

— نعم يا رسول الله .

— من كساه ؟

— سعد بن عبادة .

— كساه الله من ثياب الجنة .

ثم إن رسول الله — ﷺ — كلم حسان فى العفو عن صفوان فقال له :

— يا حسان أحسن فيما أصابك .

— كل حق لى قبل صفوان فهو لك .

— قد أحسنت وقبلت ذلك منك .

ونقهت عائشة وخرجت فى الليل مع أم مسطح قبل الناصع وكان

متبرزهم ، فلما فرغنا من شأنهما وأقبلتا قبل البيت عثرت أم مسطح فى مرطها فقالت :

— تعس مسطح .

— بئس ما قلت . أتسبين رجلا شهد بدرا ؟

— يا هنتاه (يا هذه) أوَلم تسمعى ما قال ؟

— وما قال ؟

فأخبرتها بقول أهل الإفك فازدادت مرضا على مرضها وقالت وهى يكاد يغشى عليها :

— وقد كان هذا ؟

— نعم .

فأخذتها حمى نافضة ورجعت إلى البيت فمكثت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا اكتحلت بنوم ، ثم أصبحت تبكى ما زالت تبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدها . وأقبلت أمها فقالت لها والدموع تملأ عينيها :

— يغفر الله لك . تحدث الناس بما تحدثوا به وبلغك ما بلغك ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً .

— أى بنية خفضى الشأن ، فوالله قل ما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرت وكثر الناس عليها .

ودعا رسول الله — ﷺ — على بن أبى طالب وأسامة بن زيد يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله ، فقال أسامة :

— يا رسول الله أهلك ولا نعلم عليهن إلا خيرا ، وهذا الكذب والباطل .

وقال على :

— يا رسول الله إن النساء لكثير وإنك لقادر على أن تستخلف . وسل الجارية فإنها تصدقك .

ودعا رسول الله بريرة جارية عائشة يسألها :

— أى بريرة ، هل رأيت من شيء يريبك ؟

— لا .

فقام إليها على فضربها ضربا شديدا وهو يقول :

— أصدق رسول الله .

فالتفتت إلى رسول الله وقالت :

— والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا قط أُغْمِطه(١) . غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الدواجن فتأكله .

ورأت عائشة فى منامها فتى فقال لها :

— ما لك ؟

— حزينة مما ذكر الناس .

— ادعى بهذه يفرج الله عنك .

— وما هى ؟

— قولى : يا سابغ النعم ، ويا دافع النقم ، ويا فارج الغمم ، ويا كاشف الظلم ، ويا أعدل من حكم ، ويا حسيب من ظُلم ، ويا أول بلا بداية ، ويا آخر بلا نهاية ، اجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا .

وفى سكون الليل راحت عائشة تبتهل إلى الله أن يبرئها مما نسب إليها ظلما ، وأصبح الصباح وعائشة تبكى وأبو بكر وأم رومان جالسان والألم

---

(١) أغمطه : لا أشكره .

الشديد يرتسم على وجهيهما ، فاستأذنت امرأة من الأنصار فى الدخول فأذن لها ، فجلست مع عائشة تسح الدموع . وبينا هم على ذلك دخل رسول الله — ﷺ — فسلم ثم جلس ، ولم يجلس عند عائشة قبلها منذ قيل ما قيل ، وقال حين جلس :

— أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، أما بعد يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قضى رسول الله — ﷺ — مقالته قلص دمعها حتى ما تحس منه بقطرة ، فقالت لأبيها :

— أجب رسول الله — ﷺ — فيما قال .

— فوالله ما أدرى ما أقول لرسول الله — ﷺ — .

فقالت لأمها :

— أجيبى رسول الله .

— والله ما أدرى ما أقول لرسول الله — ﷺ — .

فقالت عائشة فى ضيق :

— لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى نفوسكم ، فلئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم أنى بريئة لا تصدقونى بذلك . ولئن اعترفت لكم بأمر يعلم الله أنى منه بريئة لتصدقنى . والله لا أجد لى ولكم مثلا إلا قول أبى يوسف إذ يقول : ﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾[1] .

ثم تحولت واضطجعت على فراشها وما كانت تظن أن الله ينزل فى شأنها قرآنا يقرأ به فى المسجد ويصلى به ، ولشأنها فى نفسها كان أحقر من

---

(١) يوسف ١٨

أن يتكلم الله فيها بأمر يتلى . وكانت ترجو أن يرى رسول الله — ﷺ — رؤيا فى النوم يبرئها الله بها .

وقال أبو بكر فى أسى :

— ما أعلم أهل بيت من العرب دخل عليهم ما دخل علىّ . والله ما قيل لنا هذا فى الجاهلية حيث لا يعبد الله فيقال لنا فى الإسلام .

وأقبل على عائشة مغضبا ، فأخذ رسول الله — ﷺ — ما كان يأخذه عند نزول الوحى فغطى بثوبه فوضعت له وسادة من أدم تحت رأسه ، فأما عائشة حين رأت من ذلك ما رأت فوالله ما فزعت فإنها قد عرفت أنها بريئة وأن الله غير ظالمها ، وأما أبواها ما سرى عن رسول الله حتى أحسا لتخرجن أنفسهما فرقا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس .

فلما سرى عن رسول الله — ﷺ — سرى عنه وهو يضحك وإنه ليتحدر منه العرق كالجمان[1] وكان اليوم شاتيا فجعل يمسح العرق عن وجهه ، فكان أول كلمة تكلم بها :

— أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله تعالى براءتك .

فقالت عائشة :

— نحمد الله لا نحمد أحدا .

وقام إليها أبو بكر فقبل رأسها فقالت :

— هلا كنت عذرتنى ؟!

— أى بنية ، أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن قلت بما لا أعلم ؟

وقالت أم رومان لابنتها :

— قومى إليه .

---

(١) الجمان : اللؤلؤ .

— والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله .

وتناول رسول الله — ﷺ — درعها فدفعت يده عن درعها ، فأخذ أبو بكر النعل ليعلوها بها فمنعته ، فضحك رسول الله — ﷺ — وقال له :

— أقسمت عليك لا تفعل .

وخرج رسول الله — ﷺ — إلى الناس وخطبهم وتلا عليهم : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ(١) منكم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم * لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم * إذ تلقّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم * إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم * يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴾(١) .

---

(١) النور ١١ — ٢١

وأمر — ﷺ — بجلد أصحاب الإفك فجلد عبد الله بن أبى بن سلول سيد الخزرج وكبير المنافقين ثمانين جلدة بعد أن كاد القوم أن يملكوه عليهم يوم أن أكرمهم الله بنبيه ، فقد هان عبد الله بعد أن فضحه الله مرتين ، كذبه يوم أنكر أنه قال ليخرجن الأعز منها الأذل ، وكشف نفاقه وكذبه وحقده الدفين على رسول الله — ﷺ — لما نزلت براءة عائشة الصديقة المبرأة المطهرة من فوق سبع سموات .

ونفى حسان بن ثابت ما نسب إليه من تقول فى عائشة أم المؤمنين ، وقال أبياتا يمدح بها السيدة عائشة :

حصان رزان ما تُزن بريبة
وتصبح غرثى[1] فى لحوم الغوافل
فإن كنت قد قلت الذى قد زعمتمُ
فلا رفعت سوطى إلىّ أناملى
وكيف وودى ما حييت ونصرتى
لآل رسول الله زين المحافل
له رَتَب عال على الناس كلهم
تقاصر عنه سورة[2] المتطاول
فإن الذى قد قيل ليس بلائط[3]
ولكنه قول امرىء بى ماحل[4]

وجلد مسطح بن أثاثة الذى ينفق عليه أبو بكر لقرابته وفقره ثمانين

---

(١) الغرثى : الجياع (٢) سورة : شدة .
(٣) ليس بلائط : ليس بحبيب (٤) ماحل : ماكر .

جلدة ، وجلدت حمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين وأخوها أبو أحمد الضرير ، وساء أبا بكر أن يكون مسطح الذى ينفق عليه من أفصح بالفاحشة فقال :

ـــ والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة ما قال .

فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾(١) .

فقال أبو بكر :

ـــ بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى .

فرجع إلى مسطح النفقة التى ينفق عليه وقال :

ـــ والله لا أنزعها منه أبدا .

وكان أبو طلحة أكثر أنصارىّ بالمدينة مالا ، وكان أحب أمواله إليه بيرحا وهى حديقة كانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله يدخلها ويستظل بها ويشرب من ماء فيها طيب ، فلما نزلت آية : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾(٢) . قام أبو طلحة إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ يا رسول الله إن الله يقول فى كتابه : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ . وإن أحب أموالى إلىّ بيرحا ، وأنه صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله حيث شئت .

ـــ بخ بخ ! ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح . وقد سمعت ما قلت فيها ، قد قبلناها منك ورددنا عليك ، وأرى أن تجعلها فى الأقربين .

---

(١) النور ٢٢ (٢) آل عمران ٩٢

— أفعل يا رسول الله .

كان حسان بن ثابت يجتمع مع أبي طلحة فى الجد الثالث وكان من فقراء أقاربه ، وكان حسان قد قال لرسول الله — ﷺ — لما كلمه فى العفو عن صفوان : كل حق لى قبل صفوان فهو لك ، فأراد رسول الله عليه السلام أن يكافئه على ذلك فأعطاه بيرحا بما عفا عن حقه .

وكانت مشادة قد ثارت بين سعد بن مُعاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج لما خطب عليه السلام الناس وقال : « أيها الناس ، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ؟ » حتى كادت الحرب أن تنشب بين الحيين لولا حكمة رسول الله عليه السلام . وأراد — ﷺ — أن يغسل النفوس مما قد يكون علق بها ، فإنه مكث أياما ثم أخذ بيد سعد بن معاذ فى نفر حتى دخل على سعد بن عبادة فتحدثوا ساعة ، وقرب لهم سعد بن عبادة طعاما فأصابوا منه ثم انصرفوا ، فمكث أياما ثم أخذ بيد سعد بن عبادة فى نفر فانطلقوا حتى دخلوا منزل سعد بن معاذ فتحدثوا ساعة وقرب لهم سعد ابن معاذ طعاما فأصابوا منه ثم خرجوا ، فذهب من أنفسهم ما كان ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾[1] .

---

(١) الأنفال ٦٣

٢١

زين الله تعالى رسوله بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، فكان يقول في دعائه :

— اللهم جنبني منكرات الأخلاق :

وقد أدب بالقرآن وأدب الخلق به وكان يقول :

— بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

وكان يوصي أصحابه باتقاء الله ، وصدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجار ، ورحمة اليتيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وحسن العمل ، وقصر الأمل ، ولزوم الإيمان ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وخفض الجناح ، وينهاهم أن يسبوا حكيما ، ويكذبوا صادقا ، أو يطيعوا آثما ، أو يعصوا إماما عادلا ، أو يفسدوا أرضا . وكان أحلم الناس وأشجع الناس وأعدل الناس وأعف الناس ، لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه .

وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم ، وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه ، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامة فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ، ويضع سائر ذلك في سبيل الله .

لا يُسأل شيئا إلا أعطاه ثم يعود على قوت عامة فيؤثر منه حتى إنه ربما

احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء . وكان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويخدم فى مهنة أهله ويقطع اللحم معهن .

وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره فى وجه أحد ، ويجيب دعوة العبد والحر ، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافىء عليها ويأكلها ، ولا يأكل الصدقة ولا يستكبر عن إجابة الأمَة والمسكين ، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه ، وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه ، عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو فى قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده فى عدد من معه ، فأبى وقال :

— أنا لا أنتصر بمشرك .

يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال ، وإن وجد تمرا دون خبز أكله ، وإن وجد شواء أكله ، وإن وجد خبز بر أو شعير أكله ، وإن وجد حلوا أو عسلا أكله ، وإن وجد لبنا دون خبز اكتفى به ، وإن وجد بطيخا أو رطبا أكله .

لا يأكل متكئا ولا على خوان ، لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متتالية إيثارا على نفسه لا فقرا ولا بخلا . يجيب الوليمة ويعود المرضى ويشهد الجنائز ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس ، أشد الناس تواضعا وأسكنهم فى غير كبر وأبلغهم فى غير تطويل ، دائم البشر سهل الخلق ، ما أعجبه شيء من الدنيا وما أعجبه أحد قط إلا ذو تقى .

يلبس ما وجد مرة شملة ومرة برد حبرة يمانيا ومرة جبة صوف ، ما وجد من المباح لبس . وخاتمه فضة يلبسه فى خنصره الأيمن والأيسر ، يردف خلفه عبده أو غيره ، يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمارا ومرة يمشي راجلا يعود المرضى فى أقصى المدينة .

يحب الطيب ويكره الرائحة الرديئة ، ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ، ويكرم أهل الفضل فى أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم ، يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم . لا يجفو على أحد ، يقبل معذرة المعتذر إليه ، يمزح ولا يقول إلا حقا ، يضحك من غير قهقهة ، يرى اللعب المباح فلا ينكره ، يسابق أهله ، وترفع الأصوات عليه فيصبر ، وكان له لقاح[1] وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها .

ما شتم أحدا من المؤمنين شتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة ، وما لعن امرأة قط ولا خادما بلعنة ، وقيل له فى القتال :

ــ لو لعنتهم يا رسول الله !

فقال :

ــ إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا .

وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له . وما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب بها فى سبيل الله تعالى ؛ وما انتقم من شىء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله ؛ وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك ؛ وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه فى حاجته .

وما عاب مضجعا إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض ، لا فظ ولا غليظ القلب ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح . يبدأ من لقيه بالسلام ، وما أخذ أحد

---

(١) لقاح : إبل .

بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر ، وكان إذا لقى أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته عليها .

وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله ، وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال :

ـــ ألك حاجة ؟

فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته ؛ وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعا ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة ، ولم يكن يعرف مجلسه عن مجلس أصحابه لأنه حيث انتهى به المجلس يجلس ؛ وما رؤى قط مادا رجليه بين أصحابه حتى لا يضيق بهما على أحد إلا أن يكون المكان واسعا لا ضيق فيه ، وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة ، وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه .

وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التى تحته ، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل . وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس علية حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للجالس إليه ، ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة ، قال الله تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾[1] .

وكان يدعو أصحابه بكناهم إكراما لهم واستمالة لقلوبهم ، ويكنى من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه به . ويكنى أيضا النساء اللاتى لهن

---

(١) آل عمران ١٥٩

الأولاد ، واللاتى لم يلدن يبتدئ لهن الكنى ، ويكنى الصبيان فيستلين به قلوبهم .

وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا ، وكان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس ، لم تكن ترفع فى مجلسه الأصوات ، وكان إذا قام من مجلسه قال :

ـــ سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد ألا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

وكان جهير الصوت أحسن الناس نغمة ، وكان طويل السكوت ولا يتكلم فى غير حاجة ، ولا يقول المنكر ، ولا يقول فى الرضا والغضب إلا الحق ، ويعرض عمن تكلم بغير جميل ، ويكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره ، قال لامرأة رفاعة :

ـــ حتى تذوق عُسيلته ويذوق عُسيلتك .

وكان إذا سكت تكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده فى الحديث ، ويعظ بالجد والنصيحة ويقول :

ـــ إن القرآن يصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض .

وكان أكثر الناس تبسما وضحكا فى وجوه أصحابه وتعجبا مما تحدثوا به وخلطا لنفسه بهم ، ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيرا له . جاء أعرابى يوما وهو عليه السلام متغير اللون ينكره أصحابه ، فأراد أن يسأله فقالوا :

ـــ لا تفعل يا أعرابى ، فإننا ننكر لونه .

ـــ دعونى فوالذى بعثه بالحق نبيا لا أدعه حتى يتبسم .

فقال :

— يا رسول الله بلغنا أن الدجال يأتى الناس بالثريد وقد هلكوا جوعا ، أفترى لى بأبى أنت وأمى أن أكف عن ثريده تعففا وتنزها حتى أهلك هزالا أم أضرب فى ثريده حتى إذا تضلعت شبعا آمنت بالله وكفرت به ؟

فضحك رسول الله — ﷺ — حتى بدت نواجذه ثم قال :

— بل يغنيك الله بما يغنى به المؤمنين .

وكان من أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظة . وكان إذا سر ورضى فهو أحسن الناس رضا ، فإن وعظ وعظ بجد وإن غضب وليس يغضب إلا لله لم يقم لغضبه شىء ، وكذلك كان فى أموره كلها ، وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلى الله وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى فيقول :

— اللهم أرنى الحق حقا فأتبعه ، وأرنى المنكر منكرا وارزقنى اجتنابه ، وأعذنى من أن يشتبه على فأتبع هواى بغير هدى منك ، واجعل هواى تبعا لطاعتك ، وخذ رضا نفسك من نفسى فى عافية واهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم .

وكان إذا وضعت المائدة قال :

— بسم الله ، اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة .

وكان كثيرا إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وبين قدميه كما يجلس المصلى ، إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ، ويقول :

— أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد .

وكان لا يأكل الحار ويقول :

— إنه غير ذى بركة ، وإن الله لم يطعمنا نارا فأبردوه .

وجاء عثمان بن عفان بفالوذج فأكل منه وقال :

— ما هذا يا أبا عبد الله ؟

— بأبي أنت وأمي نجعل السمن والعسل فى البرمة ونضعها على النار ثم نغليه ، ثم نأخذ مخ الحنطة إذا طحنت فنقلبه على السمن والعسل فى البرمة ، ثم نسوطه حتى ينضج فيأتى كما ترى .

— إن هذا الطعام طيب .

وكان يأكل خبز الشعير غير منخول ، وكان يأكل القثاء بالرطب والملح ، وكان أحب الفواكه الرطبة إليه البطيخ والعنب . وكان يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر . وكان لا يأكل الثوم ولا البصل لأنه يناجى الناس . وما ذم طعاما قط لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عافه لم يبغضه إلى غيره .

وإذا فرغ من الطعام قال :

— الحمد لله ، اللهم لك الحمد أطعمت فأشبعت وسقيت فأرويت ، لك الحمد غير مكفور ولا مودوع ولا مستغنى عنه .

وأُتى بإناء فيه عسل ولبن فأبى أن يشربه وقال :

— شربتان فى شربة ، وإدامان فى إناء واحد !

ثم قال :

— لا أحرمه ولكنى أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غدا ، وأحب التواضع فإن من تواضع لله رفعه .

وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان لا يسأل أهل بيته طعاما ولا يتشهاه عليهم ، إن أطعموه أكل وما أعطوه قبِل وما سقوه شرب . وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب .

وكان يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير

ذلك ، وكان يعجبه الثياب الخضر ، وكان أكثر لباسه البياض ويقول :
ـــ ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم .

وكان يلبس القباء المحشو للحرب وغير الحرب . وكان له قباء سندس فيلبسه فتحسن خضرته على بياض لونه . وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق . وكان قميصه مشدود الأزرار وربما حل الأزرار فى الصلاة وغيرها . وكانت له ملحفة مصبوغة بالزعفران ، وربما صلى بالناس فيها وحدها ، وربما لبس الكساء وحده ما عليه غيره .

وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول :
ـــ إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد ..

وكان له ثوبان لجمعته خاصة سوى ثيابه فى غير الجمعة ، وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره ويعقد طرفيه بين كتفيه ، وربما أم به الناس فى الجنائز ، وربما صلى فى بيته فى الإزار الواحد ملتحفا به مخالفا بين طرفيه ، ويكون ذلك الإزار الذى جامع فيه يومئذ .

وكان يلبس القلانس من تحت العمائم وبغير عمامة ، وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلى إليها ، وربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهته .

وكانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من على ، فربما طلع على فيقول ـــ ﷺ :
ـــ أتاكم على فى السحاب .

وكان إذا لبس ثوبا لبسه من قبل ميامنه ويقول :
ـــ الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى الناس .

وإذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره ، وكان إذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول :

— ما من مسلم يكسو مسلما من سمل ثيابه لا يكسوه إلا لله ، إلا كان فى ضمان الله وحرزه وخيره ما واراه حيا وميتا .

وكان له فراش من أدم حشوه ليف طوله ذراعان أو نحوه وعرضه ذراع وشبر أو نحوه . وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل ، تثنى طاقين تحته . وكان ينام على الحصير ليس تحته شىء غيره ، وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه ، وكان اسم رايته العقاب ، واسم سيفه الذى يشهد به الحروب ذا الفقار . وكان له سيف يقال له المخدم[1] وآخر يقال له الرسوب[2] وآخر يقال له القضيب ؛ وكانت قبضة سيفه محلاة بالفضة . وكان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة . وكان اسم قوسه الكتوم وجعبته الكافور ، وكان اسم ناقته القصواء واسم بغلته الدلدل ، وكان اسم حماره يعفور واسم شاته التى يشرب لبنها عينة .

وكان أحلم الناس وأرغبهم فى العفو مع القدرة ، جاء رجل ذات يوم وقام على رأس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالسيف فقال :

— من يمنعك منى ؟

— الله .

فسقط السيف من يده ، فأخذ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — السيف وقال :

---

(١) المخدم : المفيد النافع .

(٢) الرسوب : السيف يغيب فى الضريبة .

— من يمنعك منى ؟
— كن خير آخذ .
— قل أشهد أن لا إلـه إلا الله وأنى رسول الله .
— لا . غير أنى لا أقاتلك ولا أكون معك ولا أكون مع قوم يقاتلونك .

فخلى سبيله ، فجاء أصحابه فقال :

— جئتكم من عند خير الناس .

وقسم رسول الله — ﷺ — قسمة . فقال رجل من الأنصار :

— هذه قسمة ما أريد بها وجه الله .

فذكر ذلك للنبى — ﷺ — فاحمر وجهه وقال :

— رحم الله أخى موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر .

وكان يقول — ﷺ — :

— لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم القلب .

وكان رسول الله — ﷺ — رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن ، يعرف فى وجهه غضبه ورضاه . وكان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته الكريمة ، وكان لا يشافه أحدا بما يكرهه ؛ دخل عليه رجل وعليه صفرة فكرهها فلم يقل له شيئا حتى خرج فقال لبعض القوم :

— لو قلتم لهذا أن يدع هذه ؟

وجاءه أعرابى يوما يطلب منه شيئا ، فأعطاه — ﷺ — ثم قال له :

— أحسنت إليك ؟
— لا ، ولا أجملت .

فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا .

ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابى وزاده شيئا ثم قال :

ــ أحسنت إليك ؟

ــ نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

فقال له النبى ــ ﷺ :

ــ إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شىء من ذلك ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك .

ــ نعم .

فلما كان الغد جاء فقال النبى ــ ﷺ :

ــ إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى ، أكذلك ؟

فقال الأعرابى :

ــ نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

فقال ــ ﷺ :

ــ إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها وأعلم . فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها هونا هونا حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها . وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار .

وكان أجود الناس كفا وأوسع الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، وما سئل من شىء قط على الإسلام إلا أعطاه . وإن

رجلا أتاه فسأله فأعطاه غنما سدت ما بين جبلين إلى قومه وقال :

— أسلموا ، فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة .

وما سئل شيئا قط فقال : لا . وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصر ثم قام إليها فقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها . وجاء رجل فسأله فقال :

— ما عندى شيء ولكن ابتع علىّ فإذا جاءنا شيء قضيناه .

فقال عمر :

— يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه .

فكره النبى — ﷺ — ذلك ، فقال الرجل :

— أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا .

— إنها كلمته — ﷺ — التى قالها لبلال ، فتبسم النبى عليه السلام وعرف السرور فى وجهه .

وكان أنجد الناس وأشجعهم ، قال على كرم الله وجهه :

— لقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى — ﷺ — وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا . وكنا إذا احمر البأس ولقى القوم اتقينا برسول الله — ﷺ — فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه .

وكان قليل الكلام قليل الحديث ، فإذا أمر الناس بالقتال تشمر ، وكان من أشد الناس بأسا ، وكان الشجاع هو الذى يقرب منه فى الحرب لقربه من العدو ، وما لقى عليه السلام كتيبة إلا كان أول من يضرب .

وكان أشد الناس تواضعا لا يقوم له أصحابه لما عرفوا لكراهيته لذلك ، وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ؛ وأُتى — ﷺ — برجل فأرعد من هيبته فقال له :

— هون عليك فلست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد .

وكان يجلس بين أصحابه مختلطا بهم كأنه أحدهم ، فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل عنه ، حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلسا يعرفه الغريب ، فبنوا له دكانا من طين فكان يجلس عليه .

وكان لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال :

— لبيك .

وكان إذا جلس مع الناس إن تكلموا فى معنى الآخرة أخذ معهم ، وإن تحدثوا فى طعام أو شراب تحدث معهم ، وإن تكلموا فى الدنيا تحدث معهم رفقا بهم وتواضعا لهم . وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون فيبتسم هو إذا ضحكوا ، ولا يزجرهم إلا عن حرام .

كان الإنسان الكامل ، أسوة البشرية الحسنة ، خاتم الأنبياء ورسول رب العالمين .

٢٢

كان من أخلاق رسول الله — ﷺ — أنه كان أسخى الناس ، لا يبيت عنده دينار ولا درهم . وإن فضل ولم يجد من يعطيه ويأتيه الليل لا يأوى إلى منزله حتى يبرأ منه .

وجاءه رجل فسأله فقال :

— ما عندى شيء .

فأمر بلال أن يذهب بالرجل ليستدين ويشترى له بردة فيكسوه ويطعمه ، فانطلق بلال ومعه الرجل حتى إذا ما بلغ السوق لمحه يهودى كان يعرفه . فلما وقع بصره على الرجل فطن إلى رقة حاله وتيقن أن بلالا ما قدم إلا ليكسوه ويطعمه ، فاعترض اليهودى بلالا وقال له :

— يا بلال إن عندى سعة فلا تستقرض من أحد إلا منى .

وصمت اليهوى قليلا ثم قال :

— أعندك ما ترهنه عندى ؟

— لو كان عندى شيء ما استقرضت .

— آخذك مقابل الدين إن امتنعت عن السداد .

كان استرقاق المدين المعسر أمرا معترفا به فى القوانين الرومانية ، وكان بلال يعتزم السداد فما دار بخلده أن يماطل أو يتهرب من المدين ، فقبل الشرط ثم قال اليهودى :

— ومتى السداد ؟

ـــ فى نهاية الشهر .

ـــ إن عجزت عن السداد سآخذك مقابل الدين .

وقدم اليهودى المال أمام عصابة من التجار وانصرف بلال ليكسو الرجل ويطعمه .

وتهللت أسارير اليهودى فقد وقع مؤذن الرسول وخازنه فى الفخ الذى نصبه له ، وسيثأر ليهود بنى قينقاع وبنى النضير .

ـــ إنه لا ينسى ذلك اليوم الذى جمع فيه محمد يهود بنى قينقاع بسوقهم ثم قال :

ـــ يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم .

ـــ يا محمد إنك ترى أنا قومك ! لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

وأربد وجه اليهودى وتقاصرت نفسه لما تردد على ذهنه ما كان من أمر محمد وأمر بنى قينقاع ، فقد حاصرهم ونزلوا على حكمه ورحلوا عن الديار . إنه منذ ذلك اليوم يرقب ساعة الانتقام ، ويا طالما تمنى أن ينال من محمد ولكنه عجز عن أن يصل إليه . فإن كان قد نجح فى اصطياد بلال الحبشى فهو على يقين من أن وقوع بلال فى قبضته سيحزن محمدا ويحرق قلبه .

إن ما يزيد فى غيظه أن محمدا قرنهم بالكافرين فى قرآنه وإن المسلمين يتلون فى مساجدهم : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم

وبئس المهاد * قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾(١) . وإنه لمما يحرق كبده أن اليهود قد غلبوا كما غلبت قريش من قبل وأن ما جاء فى قرآن محمد قد تحقق .

واحتلت الرؤى رأسه فاكفهر وجهه وتفصد منه العرق واستشعر كأن صديدا يسرى فى عروقه ، كان يرى سيف على بن أبى طالب وهو يهوى على رقاب سادات بنى قريظة ، ورن فى جوفه صوت حُيى بن أخطب وهو يقول :

ــ أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل .

فراح يتساءل فى نفسه : أحقا ما وقع على يهود يثرب كان كتابا وقدرا وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل ؟! وبدأت بذور الشك تنبت فى وجدانه ، فراح يتململ ليطرد تلك الوسوسات التى كانت تهجس فى عين ذاته .

وربما حنقه لما قرع ذاكرته ما حفظ من قرآن محمد : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا * وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرا ﴾(٢) .

وتصرمت الأيام واليهودى يرصد الزمن ، واقترب الشهر من نهايته فإذا اليهودى مقبل فى عصابة من التجار ، وما إن وقعت عيناه على بلال

---

(١) آل عمران ١٢ ــ ١٣ (٢) الأحزاب : ٢٦ ــ ٢٧ .

حتى قال :

— يا حبشي .

— يا لبيه .

— أتدرى كم بينك وبين الشهر ؟

— قريب .

— إنما بينك وبينه أربع ليال .

وأطرق بلال وقال اليهودى :

— أتستطيع السداد الآن ؟

— لا .

— إن لم تسدد قبل نهاية الشهر فسآخذك بالذى لى عليك ، فإنى لم أعطك الذى أعطيتك من كرامتك ولا من كرامة صاحبك وإنما أعطيتك لتصير لى عبدا فأذرك ترعى فى الغنم كما كنت قبل ذلك .

ووقع فى نفس بلال حزن ثقيل ، وانصرف اليهودى وعصابة التجار وظل بلال ساهما وهمس فى جوفه هامس : « أكتب عليه أن يعود عبدا ؟! » آه لو عاد عبدا لذلك اليهودى لفعل به الأفاعيل .

وخطر له أن يفزع إلى رسول الله — ﷺ — إن نبى الله ليس عنده ما يقضى عنه فهو أعلم الناس بما عنده فهو خازنه وهو المتصرف فى أمواله . وتذكر بلال أنه لم يؤذن بعد فقام وأذن ، وصلى خلف الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وهو حزين وقد بللت الدموع قلبه وإن لم تترقرق فى مقلتيه .

وقضيت الصلاة ورجع رسول الله — ﷺ — إلى أهله وبلال غارق فى أفكاره ، وضايقه أنه استسلم ليأسه فانطلق إلى دار النبى والوجود كله

يرجع : ﴿ قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾[١] .

واستأذن فى الدخول فأذن له فدخل ، وما إن وقعت عيناه على رسول الله عليه السلام حتى قال :

ـــ يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، إن اليهودى الذى ذكرت لك أنى كنت أستدين منه يطلب السداد أو أخذى بالذى علىّ ، وليس عندك ما تقضى عنى ولا عندى وهو فاضحى . فأذن لى أن آتى إلى بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا حتى يرزق الله رسوله ما يقضى عنى .

فأطرق الرسول ولم يأذن له ، فخرج بلال حزينا وانطلق إلى داره وصور أيام رقه فى مكة تأخذ عليه تفكيره فيتلوى من الألم . وجن الليل فدخل لينام ليفر من أحزانه فنام مستقبلا بوجهه الأفق ، فقد اعتاد أن يرعى النجوم ليؤذن بالفجر ، وما استطاع حتى فى أحلك أيامه أن يغض الطرف عن السماء .

وجعل سيفه وقرابه ورمحه ونعله عند رأسه ، وغفا قليلا ثم هب مذعورا فرأى عليه ليلا فنام . وما إن استأنف نومه حتى انتبه ، وظل على هذه الحال طوال الليل حتى انفلق عمود الصبح الأول فأراد أن ينطلق ، فإذا بصوت يشق السكون المخيم على المكان :

ـــ يا بلال .. يا بلال .. أجب رسول الله .

فانطلق بلال حتى دخل على النبى ـــ ﷺ ـــ فقال له عليه السلام :

ـــ أبشر فقد جاءك الله بقضاء دينك .

ـــ الحمد لله .

ـــ ألم تمر على الركائب المناخات الأربع ؟

---

(١) الحجر ٥٦

— بلى .

— فإن لك رقابهن وما عليهن فاقبضهن إليك ثم اقض دينك .

وجرى بلال إلى الركائب ودموع الفرح تسيل على خديه وتبل لحيته فإذا عليهن كسوة وطعام أهداهن إلى الرسول عظيم من العظماء ، فحط بلال عنهن أحمالهن ثم علفهن وهو يكاد يطير من الفرح ، ثم عمد إلى تأذين صلاة الصبح . ولما قضيت الصلاة خرج إلى البقيع فجعل أصبعه فى أذنه وصاح :

— من كان يطلب من رسول الله دينا فليحضر .

وأخذ بلال يعرض ويبيع ويقضى ، وأقبل اليهودى فقال له بلال :

— خذ دينك ولن أستقرض منك أبدا .

ومكر اليهودى ومكر الله والله خير الماكرين ، وعاد اليهودى يصر على أنيابه ويجر أذيال الخيبة ، واستمر بلال يبيع مما رزقه الله حتى لم يبق على رسول الله دين فى الأرض . وبقى مع بلال أوقيتان من ذهب فانطلق إلى المسجد وقد ذهب عامة النهار ، فإذا رسول الله فى المسجد قاعد وحده ، فلما رأى بلالا قال :

— ما فعل ما قبلك ؟

— قد قضى الله كل شىء كان على رسول الله فلم يبق شىء .

— فضل شىء ؟

— نعم أوقيتان .

— انظر أن تريحنى منهما ، فلست بداخل على أحد من أهلى حتى تريحنى منهما .

فانتظر فى المسجد أن يأتيهما محتاج ولكن لم يأتهما أحد ، فبات الرسول

فى المسجد حتى أصبح الصبح ، وظل فى المسجد طول اليوم التالى ينتظر حضور محتاج ليكسوه ويطعمه بما عنده ليستريح منه ولكيلا يكون كانزا للذهب .

وجاء آخر النهار وجاء إلى المسجد راكبان محتاجان ، فأمر النبى بلالا أن ينطلق بهما ويكسوهما ويطعمهما بما عنده . ولما صلى النبى العتمة دعا بلالا وقال له :

— ما فعل الذى قبلك ؟

— قد أراحك الله منه .

— الحمد لله .

٢٣

كان أبو سفيان بن حرب وابنه معاوية والحكم وابنه مروان وحكيم بن حِزام وحُويطب بن عبد العُزَّى العامرى وسادات قريش جالسين فى الحجر ، وكان الناس يطوفون بالبيت . وبينا كان أشراف قريش يتجاذبون أطراف الحديث إذ جاء من المدينة رجل راح يقص عليهم أنباء المسلمين وكيف أصبحت كلمة محمد بن عبد الله هى العليا بعد أن أجلى بنى النضير وقتل المسلمون ابن الأشرف .

وراح الرجل يروى شعر كعب بن مالك فى إجلاء بنى النضير وقتل كعب بن الأشرف ورد سمَّاك اليهودى عليه :

أرقت وضاقنى هم كبير ... بليل غيره ليل قصير
أرى الأحبار تنكره جميعا ... وكلهم له علم خبير
وكانوا الدارسين لكل علم ... به التوراة تفطن والزبور
قتلتم سيد الأحبار كعبا ... وقِدْما كان يأمن من يجير

واستمر الرجل ينشد شعر ابن مرداس فى امتداح رجال بنى النضير وشعر خوات فى الرد على ابن مرداس ، وإذا بحكيم بن حزام يشرد ويتذكر ما كان من فراره يوم بدر ، إنه نجا من الموت ولو كان قد قتل فى ذلك اليوم لقام شعراء قريش بنعيه ولرد عليهم حسان بن ثابت وابن رواحة وشعراء المسلمين .

وأحس حكيم بن حِزام برودة تسرى فى بدنه ، فسهم واحد من

السهام التى صوبت إليه وطاشت لو استقر فى قلبه لكان اليوم ذكرى .
وراح يختلس النظر إلى أبى سفيان فألفاه قد ألقى إلى الرجل سمعه وقد لاح فى وجهه الاهتمام ، ولا غرو فأبو سفيان يطمع فى أن يكون سيد العرب ولا يقف فى سبيل تحقيق أمنيته إلا قيام ابن عبد الله بدعوته التى تتفاقم على مر الأيام .

وقرعت ذهن حكيم ذكريات عمته خديجة بنت خُويلد الطاهرة وسيدة نساء قريش ؛ إنما كانت فاضلة راجحة العقل وإن إيمانها بدعوة زوجها وتصديقه لشىء يحيره . إنه على يقين أن محمدا كان على خلق عظيم لم يشك طرفة عين فى أمانته ولم ينكر عليه إلا دعوته ، فما كان يستطيع أن يصدق أن بشرا يتلقى الوحى من السماء !

وشرد حويطب بن عبد العزى وغدا يفكر فى آلهة قريش ، إنه ليجدها كما يقول محمد بن عبد الله أصناما لا تملك نفعا ولا ضرا . وسرى إلى ضميره همس رقيق انبعث من أغواره : ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون * إلٰهكم إلٰه واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون * لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين * وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين * ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ﴾[1] .

وغشيته رقة وأحس مولد نور فى فؤاده ، وتذكر النضر بن الحارث وسخريته من محمد بن عبد الله وما حاق به من القتل فدثره خوف . إن

---

(١) النحل ٢٠ — ٢٥ .

الأيام تمر وإنه ليخشى أن يحيق به ما حاق بالمكذبين .

ونظر الحكم إلى وجه حويطب ففطن إلى ما يعتمل فى صدره فقد هم حويطب بالإسلام غير مرة ولكنه كان فى كل مرة يثنيه عن غرضه ، وفطن حويطب إلى أن الحكم يسترق إليه النظر فاستأذن وقام . وما ابتعد عن القوم خطوات حتى لحق به الحكم وقال له :

— فيم تفكر ؟

— فى الذهاب إلى المدينة لأعلن إسلامى .

فقال الحكم فى غضب :

— تضع شرفك وتدع دين آبائك لدين محدث وتصير تابعا ؟

وتذكر حويطب ما لقى عثمان بن عفان من الحكم حين أسلم فآثر السلامة ، وما كان من قريش أحد من كبرائها الذين بقوا على دين قومهم أكره لما هو عليه منه ، فلقد شهد بدرا مع قومه ورأى عبرا فقال فى نفسه :

— هذا رجل ممنوع .

وأراد أن يسلم ولكن الحكم عوقه ومنعه .

وراحت الأيام تمر وقريش تسلم رجلا رجلا وحويطب بن عبد العزى يميل إلى الإسلام والحكم يثنيه عن عزمه وينهاه ويعوقه فيستسلم له ، إنه يريد الإسلام ويأبى الله عز وجل إلا ما يريد .

٢٢

نزلت آية : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا * أولئك هم الفاسقون ﴾[1] . فقال سعد بن عبادة سيد الأنصار :

— أهكذا نزلت يا رسول الله ؟

فقال — ﷺ — :

— ألا تسمعون يا معشر الأنصار إلى ما يقول سيدكم ؟

— يا رسول الله إنه رجل غيور . والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرا وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته .

فقال سعد :

— والله يا رسول الله إنى لأعلم أنها حق وأنها من عند الله . ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاعا قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء . والله إنى لا آتى بهم حتى يقضى حاجته .

فما لبثوا إلا يسيرا حتى جاء هلال بن أمية عشيا فوجد عند أهله رجلا فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهيجه حتى أصبح وغدا على رسول الله — ﷺ — فقال :

---

(١) النور ٤

— يا رسول الله إنى جئت أهلى عشيا فوجدت عندها رجلا فرأيت بعينى وسمعت بأذنى .

فكره رسول الله — ﷺ — ما جاء به واشتد عليه ، فقال سعد بن عبادة :

— الآن يضرب رسول الله — ﷺ — هلال بن أمية ويبطل شهادته فى المسلمين .

وقال هلال :

— لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا فإن تكلم جلدتموه وإن قتل قتلتموه ، وإن سكت سكت على غيظ .

فقال — ﷺ — :

— اللهم افتح .

وجعل يدعو حتى نزل عليه الوحى ، وكان إذا نزل عليه عرفوا ذلك فى تربد جلده ، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحى ، فنزلت : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين * والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين * ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين * والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم ﴾[1] .

فسرى عن رسول الله — ﷺ — فقال :

— أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجا ومخرجا .

فقال هلال :

---

(١) النور ٦ — ١٠

— قد كنت أرجو ذاك من ربي .

فجاء هو وامرأته إلى رسول الله — ﷺ — فتلاعنا ، فشهد الرجل أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، ثم لعن الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فذهبت لتلتعن فقال رسول الله — ﷺ :

— مه .

فلعنت ، فلما أدبرت قال عليه السلام :

— لعلها أن تجيء به أسود جعدا .

فجاءت به أسود جعدا ليقام عليها حد الله .

وكان لعبد الله بن أُبيّ كبير المنافقين ست جوار كان يكرههن على الزنا ويأخذ أجورهن ، وهن معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقُتيلة ، فجاءت إحداهن ذات يوم بدينار ، وجاءت أخرى بدونه ، فقال لهما :

— ارجعا فازنيا .

فقالتا :

— والله لا نفعل ، قد جاءنا الله بالإسلام وحرم الزنا .

فأتيا رسول الله — ﷺ — وشكتا إليه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ﴾[1] .

كان القرآن ينزل بأحكام الله ، وكان رسول الله — ﷺ — في المسجد يبين للناس الحلال والحرام بعد إجلاء بني النضير ، وكان المسلمون آمنين . ولكن سادات بني النضير لم يسكتوا على ما نزل بهم من تحقير فبيتوا العزم على أن يثأروا لما نالهم من ضيم ، فخرج سيدهم حُيي بن

---

(١) النور ٣٣

أخطب وعظيمهم سلام بن مشكم ورئيسهم كِنانة بن أبي الحقيق هوذة ابن قيس وأبو عامر الفاسق إلى أن قدموا على قريش يدعونهم ويحرضونهم على حرب رسول الله — ﷺ — وقالوا :

— إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

فقال أبو سفيان :

— مرحبا وأهلا ، وأحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد .

وخرج من بطون قريش خمسون رجلا ، وتحالفوا وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة متعلقين بأستارها ألا يخذل بعضهم بعضا ويكونون كلهم يدا واحدة على محمد — ﷺ — ، وتحالفت قريش ويهود بني النضير على استئصال محمد والمسلمين ووطدوا النفس على أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

التذييل

حاول أعداء الإسلام فى كل العصور أن يوجهوا إليه اتهامات باطلة مغرضة لينالوا منه ، ولو نظروا إلى تلك المزاعم نظرة منصفة لوجدوا أن ما عدوه من مثالب الإسلام إنما هو مفخرة لهذا الدين الحنيف ؛ فقد قالوا إن الإسلام جاء بتعدد الزوجات ، ولو تعمقوا المسألة قليلا لوجدوا أن الإسلام إنما جاء ليحد من حرية الرجال فى اتخاذ ما يشتهون من النساء ، فقد كان للرجل أن يتخذ ما يشاء من الزوجات ما دام قادرا على الإنفاق عليهن ، وكان بلاط الملوك فى كل العصور يموج بمئات الزوجات والمحظيات . وإذا ما عدنا إلى التوراة التى بين أيدينا وجدنا أن جميع الأنبياء قد تزوجوا أكثر من واحدة ، وأن سليمان قد اتخذ له ألف زوجة !

كان للرجال حرية مطلقة فى أن يتزوجوا أى عدد من النساء قبل الإسلام ، وكان العرب فى الجاهلية يرهنون زوجاتهم لقاء كأس خمر أو دين قمار ، وما كان لهم شأن قبل أن ينزل الله فيهن ما أنزل . وإن حديث عمر بن الخطاب لخير دليل على ما كانت عليه المرأة فى جزيرة العرب قبل مبعث محمد — ﷺ — ، يقول عمر : « والله إنا كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم ... » فجاء الإسلام لينظم هذه الفوضى وليحد من هذه الحرية التى كانت تضع النساء فى مصاف الأنعام . فحدد عدد الزوجات بأربع

وشرط العدل بينهن : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾(١) . فكان الإنصاف يقتضى أن يقال إن الإسلام قد جاء ليحدد لا ليعدد ، ولكنها العداوة للإسلام ونبى الإسلام .

وقال خصوم الإسلام إنه أقر نظام الرق ، ولو أنصفوا لقالوا إنه شرع نظام العتق ليصبح الناس جميعا أحرارا ولتستقر فى النفوس عقيدة المساواة بين جميع الناس أمام الله وأمام شريعة الله .

عرف الرق منذ فجر التاريخ وقد امتزج فى كل العصور بنظام الثروة ونظام المعاملات ، ففى مصر الفرعونية كان الأرقاء ملكا للتاج أو المعبد وكانوا يتبعون الخزينة شأنهم فى ذلك شأن الأرض أو الماشية . وكان موظفو بيت الخزينة يتجولون مرافقين ضابطا ومعه جنوده لكى يسجلوا فى قوائمهم ويدمغوهم بخاتم إداراتهم . وكان الكتاب يعتبرون هؤلاء العبيد الأرقاء أشخاصا حقيرين لا « قلب لهم » أى لا « عقل عندهم » يجب أن يساقوا بالضرب كالأنعام .

وقد نظمت هذه الأبيات الشعرية عند العبيد الأرقاء فى مصر القديمة :

إن الولد ينشأ (فقط) . .
لكى ينتزع من بين ذراعى أمه .
وعندما يبلغ مبلغ الرجال .
فإن عظامه تدق .

وكان أكثر هؤلاء العبيد الأرقاء أسرى حرب يؤخذون من الغنائم والأسلاب ويسلمون إلى الجهات التى تكون فى حاجة إليهم وينتقلون من إدارة إلى إدارة كما لو كانوا ثيرانا أو حميرا . وكان يصيبهم نفس ما يصيب

---

(١) النساء ٣

الماشية والجمير أحيانا عندما تتبادلهم أيدى الموظفين المختلفين إذ كانوا يختفون ولا يتركون أثرا .

وقام اقتصاد بابل وآشور على أكتاف الأرقاء أسرى الحروب ، فكانوا يقومون بفلاحة الأرض ويخرجون إلى الأسواق . وكان للسادة أن يبيعوا عبيدهم ولهم أن يؤدبوهم أو يقتلوهم إذا ما بدر منهم ما يغضب ساداتهم فما كان لهم حقوق .

وكان أسرى الحرب يقتلون فى أول الأمر ، ثم تطورت الأفكار فى عهد الرومان واليونان إلى استرقاقهم عوضا عن قتلهم للانتفاع بهم ، وكانوا غالبا يكلفون بأشق الأعمال ولا يحسن إليهم فى مأكلهم وملبسهم ، وكان كل ما يكسبون ملك ساداتهم فما كانت لهم حرية مدنية تؤهلهم لعقد العقود وتحمل الالتزامات وتملك العقار والمنقول والتصرف فيما يملكون .

وجاءت اليهودية وكانت تعتبر أن اليهود هم وحدهم الناس وأن من عداهم أمم ، كلاب البشرية ، فلم تنظر إلى أسرى الحروب نظرة إنسانية ، فما اكتفت بقتل الأسرى وحسب بل شرعت قتل جميع النساء والأطفال والحيوان وكل ما يوجد فى المدن التى يقودها سوء طالعها لأن تقع فى أيديهم .

جاء فى التوراة التى بين أيدينا فى سفر التثنية ، الإصحاح العشرين على لسان موسى :

« حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ،

وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريما : الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفريزيين والحويين واليبوسيين لكى لا يعلموكم أن تعلموا حسب جميع أرجاسهم التى عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم » .

فشريعة التوراة التى كتبت فى بابل أيام الأسر تحرض اليهود على استعباد الأعداء إذا جنحوا للسلم ، أما الأعداء الذين يحاربون بنى إسرائيل فجزاء رجالهم ضرب الرقاب ، وأما النساء والأطفال فيصبحون عبيدا للمنتصرين وكل ما يقع فى أيديهم فهو غنيمة لليهود . ولم يستنكر أحد من المستشرقين ولا من أعداء الإسلام هذه الوحشية التى ابتدعها حكماء صهيون ودسوها فى توراتهم التى خطوها بأيديهم بعد أن حملهم نبوخذنصر إلى بابل أسرى !

وجاء حكماء اليونان وأيدوا نظام الرق ، فأفلاطون فى جمهوريته الفاضلة يكتب الذل على العبيد ويقضى بحرمانهم حق المواطنة وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من ساداتهم أو من السادة الغرباء ، ومن تطاول منهم مع سيد غريب أسلمته الدولة إليه ليقتص منه كما يريد .

ويزعم أرسطو أن فريقا من الناس مخلوقون للعبودية لأنهم يعملون عمل الآلات التى يتصرف فيها الأحرار ذوو الفكر والمشيئة ، فهم آلات حية تلحق فى عملها بالآلات الجامدة . ويُحمد للسادة الذين يستخدمون

تلك الآلات الحية أن يتوسموا فيها القدرة على الاستقلال والتمييز فيشجعوها ويرتقوا بها من منزلة الأداة المسخرة إلى منزلة الكائن العاقل الرشيد .

وشريعة قدماء اليونان لا تعترف بالحقوق المدنية كاملة لمن لا يحمل الجنسية اليونانية ، فأفراد الشعوب الأخرى — بحسب هذه الشريعة — مجردون من جميع الحقوق المدنية إذا كانوا من طبقة الرقيق أو من كثير من هذه الحقوق إذا كانوا من طبقة الموالى ، ولم تكن لهم منزلة فى البلاد اليونانية غير هاتين المنزلتين .

كان قدماء اليونان يعتقدون أنهم وحدهم كاملو الإنسانية قد زودوا بجميع ما يمتاز به الإنسان عن الحيوان من قوى العقل والإرادة ، على حين أن الشعوب الأخرى ناقصة الإنسانية مجردة من هذه القوى لا تزيد كثيرا على فصائل الأنعام ، وأنهم قد خلقوا ليكونوا عبيدا مسخرين لليونان .

وكانت قوانين الرومان ونظمهم الاجتماعية تجرد غير الرومانى من جميع ما يتمتع به الرومانى من حقوق مدنية أو من معظمها وتنظر إليه على أنه من فصيلة إنسانية وضيعة ، وأنه لم يخلق إلا ليكون رقيقا للرومان .

وتجرد شريعة الهنود البرهميين طبقة من طبقات الشعب وهى طبقة السودرا أو المنبوذين من معظم حقوقهم المدنية وتنزلهم منزلة الرقيق ، فتقرر كتبهم المقدسة « أن السيد الأعلى لم يعط هذه الطبقة إلا وظيفة واحدة وهى أن يكونوا خدما للبرهميين » . وهم فوق ذلك نجس ورجس فلا يصح لمسهم ولا مؤاكلتهم ولا مصاهراتهم ولا الارتباط بهم بأية علاقة غير علاقة السيد بالمسود .

وقال هيرودوت : إن الفرس فى زمانه كانوا يمنعون عقاب العبد على الهفوة الأولى ولكنهم يبيحون للسيد أن يقتل عبده أو يعذبه إذا أذنب مرة

بعد أخرى . وكانت شريعة الفرس أرفق بالعبد على الجملة من شرائع اليونان والرومان لأنها كانت ترخص له فى الراحة وتكره العدوان عليه ، وربما سرى إليهم أدب الشريعة هذا من عادة التسرى واقتناء الزوجات من الإماء . ووافق ذلك معيشة الحضارة فى المدن الكبيرة وقلة الحاجة إلى إرهاق الأرقاء لتحصيل ضرورات المعيشة .

وجاءت المسيحية ولم تحاول أن تصفى نظام الاسترقاق ، ولم يرد فى أى من الأناجيل الأربعة نص صريح يستنكر أن يستعبد الإنسان أخاه الإنسان ، بل كل ما جاء فى الأناجيل التى بين أيدينا : أن الناس كلهم إخوان وأنه يجب عليهم أن يحب بعضهم بعضا . ولم تعن هذه الأخوة القضاء على العبودية فإن الحواريين قد أيدوا نظام الرق ، فبطرس قد أوصى الأرقاء بطاعة ساداتهم وقال إن الرق كفارة عن ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم .

وكتب بولس الذى استولى على كرسى السيد المسيح وراح يشرع للمسيحيين رسالة إلى أهل « أفسيس » أوصى فيها العبيد بالإخلاص فى الولاء لساداتهم كما يخلصون فى الولاء للسيد المسيح ، قال : « أيها العبيد أطيعوا ساداتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب » .

وذهب كثير من القديسين إلى أن الرق فى الديانة المسيحية فكرة يتدين بها الرقيق ويتقرب بها إلى الله ، فقد قال القديس « أسيلوس » من آباء الكنيسة اليونانية فى بعض كتبه بعد أن أورد ما جاء فى رسالة بولس إلى أهل

« أفسيس » : « وهذا يدل على أن العبد يجب عليه طاعة مولاه بقلب سليم تمجيدا لله العلى العظيم » .

وقال بعض القساوسة مخاطبا أحد الأرقاء : « إنى لأنصحك بالبقاء فى الرق حتى ولو عرض عليك مولاك تحريرك ، فإنك بذلك تحاسب حسابا يسيرا لأنك تكون خدمت مولاك الذى فى السماء ومولاك الذى فى الأرض » .

وجاءت الكنيسة فأقرت نظام الرق واعتمده أحبار رومة ، وتغالى بعضهم فجعل فكرة الرق قانونا طبيعيا لا يمكن مخالفته وقال : « إن الطبيعة خصصت بعض الناس ليكونوا أرقاء » .

وأيد الرق توماس الأكوينى كبير فلاسفة النساك والقسيسين وتلميذ أرسطو الذى اشتهر بالعلم والتقوى فى القرن الثالث عشر للمسيح ، فاستند إلى أقوال رسل المسيحية كما استند إلى أقوال أرسطو فى كتابه عن السياسة أن الرق حالة من الحالات التى خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية ، وليس مما يناقض الإيمان ، أن يقنع الإنسان من الدنيا بأهون نصيب » .

وما كان يعترف للرقيق بحق الزواج ولا بحق أن تكون لهم أسرة ، وكان الاتصال بين ذكورهم وإناثهم لا يعتبر زواجا وإنما كان يتم باختيار مواليهم وفى صورة يقصد منها مجرد التناسل وتكاثر عدد الرقيق كما يحدث بين الأنعام .

وكان يحظر على المرء أن يتزوج من أمة وعلى الحرة أن تتزوج برقيق ، بل إن معظم هذه الشرائع كانت توقع على الحرة التى تتزوج رقيقا عقوبة شديدة وصلت فى القانون الرومانى إلى حد الإعدام .

كان الرق نظاما اجتماعيا فى كل مجتمعات العالم قبل ظهور الإسلام ، فالرقيق منتشرون فى البيوت والمزارع والمرافق العامة تقوم على سواعدهم الحياة الاقتصادية فى كل أنحاء الأرض . وقد زعم الفلاسفة ورجال الدين المسيحى أن الرق نظام طبيعى ، ومع وضوح هذه الحقائق لم يستح بعض المستشرقين المسيحيين وأعداء الإسلام من أن يوجهوا إلى الإسلام تهمة إباحة استرقاق بنى الإنسان !

إن الإسلام عندما جاء لم يتهيب النظام القائم فى المجتمعات القديمة كما تهيبته اليهودية والمسيحية وفلاسفة اليونان والرومان ، فلم يقل إن الرق نظام طبيعى ولم يخدع العبيد بأن يقول لهم إن طاعة ساداتهم كفارة عن ذنوب ارتكبوها فى الأرض ، بل واجه المشكلة بشجاعة وعالجها علاجا حاسما لو طبق فى أمانة لقضى على المشكلة قضاء مبرما فى أجيال قليلة . ولكنها الأهواء التى فسرت وأولت وحادت عن الجادة فطالت فترة الرق فى الإسلام دون سند من شريعة الله أو سنة رسول الله عليه السلام .

يقول الأستاذ العقاد فى كتابه « بلال داعى السماء » : كان فى وسع الدعوة الإسلامية أن تمر بنظام الرق فى العالم العربى وفى العالم بأسره ثم تتركه حيث كان فلا يحسب عليها ذلك — فى حينها — إغضاء معيبا تسأل عنه ، لأن مسألة الرق لم تبلغ يومئذ أن تكون من المسائل الناطقة التى يؤول السكوت عنها بالإغضاء أو المداراة .

ومن المحقق أن الدعوة الإسلامية لم تكن تخسر شيئا لو أنها أهملت مسألة الرق فى أول ظهورها ، لأن المسلمين على نقيض ذلك كانوا يتجشمون خسارة لا يطيقونها فى إعتاق العبيد والإماء ، كلما ساءت حالهم عند ساداتهم بدخولهم (فى الإسلام) ؛ وكان أبو قحافة يمثل الرأى الحصيف

وهو يأخذ على ابنه الصديق بذل المال الكثير فى سبيل رهط من الضعاف المهازيل يثقلون كاهله ولا يغنون عنه أقل غناء .

فلم يكن ثمة من باعث إلى النظر فى إنصاف الأرقاء وهدم نظام الرق القديم غير باعث الفضيلة المثالية التى تعنى بطلب الكمال ولا تحفل بالمصلحة المادية أقل احتفال » .

وهناك سؤال غالبا ما يثور فى رءوس الناس : لماذا لم يحرم الإسلام الرق تحريما قاطعا دفعة واحدة كما حرم الزنا والخمر والميسر وأكل الميتة ولحم الخنزير ؟ والرد على ذلك أن الإسلام لو كان قد شرع تحريم الرق تحريما فوريا لزلزل اقتصاد الدولة الإسلامية الناشئة ، فكثير من أوجه النشاط الاقتصادى كان ينهض به الأرقاء ، وكان ينزل فى نفس الوقت ضربة قاصمة بالأرقاء المسنين والإماء المسنات الذين لم يكونوا يعرفون سبيلا للعيش غير دور ساداتهم . فلو شرع الله سبحانه وتعالى تحرير العبيد طفرة واحدة لهام هؤلاء الناس على وجوههم فى دنيا الضياع ، ولكتب على طبقة من الرقيق الموت جوعا أو دفعهم إلى الفساد فى الأرض ، فكان من الحكمة ألا يقر الإسلام الرق فى صورة مطلقة دائمة وإنما أقره فى صورة تؤدى هى نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج ، ولو طبقت نصوص الشريعة الإسلامية تطبيقا أمينا لانمحى الرق فى الإسلام فى جيلين ، وما جيلان فى حياة الشعوب بشىء يذكر .

عمل الإسلام على أن يقطع السبل التى يتدفق منها سيل الرق وعلى أن يفتح كل السبل التى تفضى إلى العتق ، فحرم استرقاق المسلم أصلا ، ومحا التفرقة بين الأجناس والأقوام ، وعلم الناس أن المؤمنين إخوة وأنه لا فضل لمسلم على مسلم بغير التقوى .

وكانت بعض قبائل العرب تشن هجوما على قبائل أخرى فتخطف الرجال والنساء والولدان وتبيعهم فى الأسواق بيع الأنعام ، وكان الخطف والقرصنة والسبى وسائل مشروعة قبل الإسلام ، وكانت بعض الدول تمارس هذا النوع من سلب حرية الناس ، وقد حرم الإسلام هذا النوع من الاسترقاق ولم يقر النخاسة ، فإن كان بعض المسلمين قد شنوا الغارات على الآمنين وخطفوا الرجال والنساء والولدان وعرضوهم فى الأسواق عرض الحيوان ، فما ذلك من الدين فى شىء . وإن مثلهم مثل المسلم الذى يشرب الخمر أو يرتكب الفواحش ، فليس معنى شرب بعض المسلمين الخمر أن الإسلام يبيح المسكرات ، وليس معنى أن بعض المسلمين يقربون الزنا أن الإسلام يشجع الفساد ويقر البغاء .

وكان المدين فى بعض الشرائع قبل الإسلام إذا عجز عن سداد دينه فى ميعاد الاستحقاق يحكم عليه بالعبودية لمصلحة دائنه ، وكان ذلك شائعا بين اليهود واليونان والرومان . فلما جاء الإسلام نظر إلى المدين المعسر نظرة رحمة ، فقال تعالى فى محكم كتابه : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾[١] . ولم يكتف بذلك بل جعل للغارمين نصيبا من زكاة القادرين وصدقاتهم : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾[٢] .

وكانت بعض الشرائع تقر أن يبيع الوالد المعسر فى حالة عوزه أولاده ذكورهم وإناثهم فى بعض الشعوب ، أو إناثهم وحسب فى شعوب أخرى . ولكن العرب فى حالة الإملاق كانوا يقتلون أولادهم ويئدون

---

(١) البقرة ٢٨٠ (٢) التوبة ٦٠

بناتهم ، فجاء الإسلام ينهى عن قتل الأولاد خشية إملاق ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾(١) . ونهى عن الوأد : ﴿ وإذا الموءودة سئلت * بأى ذنب قتلت ﴾(٢) .

وكان القاتل فى بعض الشعوب يسبى ، وكذلك الزانى والسارق . فلما جاء الإسلام شرع النفس بالنفس إذا كان القتل عمدا ، أما إذا كان القتل خطأ فدفع الدية لأولياء القتيل ، وأمر بجلد الزانى ثمانين جلدة إذا لم يكن محصنا وبرجمه إذا كان متزوجا ، أما السارق فقد أمر بقطع يده .

وكان للإنسان أن يبيع نفسه لقاء ثمن يفرج به أزمته ، فلم يوافق الإسلام على هذا النوع من الاسترقاق الذى يحط من بشرية الإنسان ، فالإنسان فى الإسلام يولد حرا ، وقد قال عمر : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » . وأن ليس للإنسان حق التصرف فى حريته التى منحها الله له ، كما أنه ليس له حق التصرف فى روحه التى نفخها الله فيه .

ولم يكن الاسترقاق عند العرب عداء لعنصر أو عداء لجنس أو عداء للون ، فإذا قالوا العبد فهم لا يقصدون الزنجى ولا يخصون سواد اللون بالمهانة ، ولكنهم يقصدون كل أسير لم يفك إساره ، وكل جليب يباع ويشرى فى الأسواق ومنهم صفر الوجوه وبيض الوجوه .

كان عبادة بن الصامت زنجيا وكان صاحبيا جليلا شهد المشاهد كلها مع رسول الله — ﷺ — وأرسله رسول الله — ﷺ — يجمع بعض الصدقات ، وأرسله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعد فتح الشام إلى حمص ليفقه أهلها فى الدين ، وقد بعثه عمرو بن العاص لما فتح مصر إلى

---

(١) الإسراء ٣١ (٢) التكوير ٨ ، ٩

« المقوقس » عظيم القبط على رأس وفد ليفاوض المقوقس فى الصلح . فلما قدم عبادة على رأس أصحابه ، قال المقوقس :

— نحوا عني هذا الأسود وقدموا غيره ليكلمنى .

— إن هذا أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله .

— وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغى أن يكون دونكم ؟

— كلا ، إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعا وأفضلنا سابقة ورأيا وعلما . وليس ينكر السواد فينا .

وألقى المقوقس عظيم القبط إلى عبادة بن الصامت الزنجي سمعه وأذعن لشروطه .

وكان بلال مؤذن الرسول من أبناء الحبشة المولدين وكان آدم شديد الأدمة ، ولم يقف لونه ولا جنسه فى سبيل أن يصل إلى المكانة التى يستحقها فى دين فتح أبوابه للبشرية جمعاء لا فرق بين أبيض ولا أسود ولا عربى ولا أعجمى ، وأن الناس فيه يتفاضلون بالتقوى ، فقد كان بلال صحابيا جليلا وكان خازن الرسول — ﷺ .

لم يقر الإسلام القرصنة والخطف والسبى ولم يعترف بأن هناك طبقة منبوذة بالمولد كتب عليها القدر أن ترسف فى ذل العبودية حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، ولم يحكم بالرق على المدين المعسر ، ولم يقر سلطة الوالد فى بيع أولاده ، ولا حق الإنسان فى أن يتنازل عن حريته ، ولا حق الدولة فى أن تسلب أحدا حريته إذا ما ارتكب جريمة خطيرة كالقتل

أو السرقة أو الزنا . كل ما أقره الإسلام من أنواع الرق نوعين : رق الوراثة ورق الحرب ، وقد قيدهما بقيود لو اتبعها المسلمون بإخلاص لقضى على الرق فى الإسلام قضاء مبرما .

أراد الإسلام أن يقضى على رق الوراثة بالتدريج حتى لا يلقى بالعبيد فى الطرقات إذا ما شرع إلغاء الرق طفرة واحدة ، فقرر أن من تأتى به الجارية من سيدها يولد حرا ويلتحق نسبه بالسيد وتصبح الجارية مستحقة لحريتها بعد وفاة سيدها .

وقد قال — ﷺ — حينما ولدت منه جاريته مارية القبطية « إبراهيم » : « أعتقها ولدها » . وهذا التشريع يرد الحرية التى يقدسها الإسلام إلى الأولاد وأمهات الأولاد فى جيل واحد . ولهذه الحكمة لم يحدد الإسلام عدد ما كانت تملكه يد المسلم من نساء ، لأن تسرية رجل قادر بعدد مهما بلغ من النساء يفضى إلى تحرير أولاده منهن فى حياته وإلى تحريرهن جميعا بعد وفاته ، فإن كان فى هذا تضحية بجيل من النساء الضائعات فهى تضحية واجبة لإنقاذ أجيال من ذل العبودية التى كانت تفرضها عليهم الشرائع السابقة على الإسلام .

وقد كان هذا التشريع الحكيم كفيلا بأن يقضى على رق الوراثة بعد جيل واحد لو أن المسلمين ساروا على هدى شريعة الله وسنة رسول الله — ﷺ — الذى قرر فى وضوح أن ابنه إبراهيم قد أعتق جاريته مارية القبطية التى أهداها إليه المقوقس عظيم القبط ، ولو أن روافد الرق الأخرى قد جفت — وكان لا بد لها أن تجف لو أن أصحاب الأغراض من المسلمين قد اتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم دون أن يحللوا ما حرم الله .

قيد الإسلام رق الوراثة بقيود كانت كفيلة بالقضاء عليه ، وقيد رق

الحرب بقيود كانت هى الأخرى كفيلة بالقضاء عليه وإعادة الحرية التى يقدسها الإسلام إلى جميع البشر لا فرق بين عربى أو عجمى ولا مسلم ولا غير مسلم . وقد أباح الإسلام الحرب التى اصطلح فقهاء القانون الدولى أخيرا على أنها الحرب المشروعة وهى :

١ — حرب الدفاع عن النفس لدفع اعتداء واقع بالفعل وهو دفاع مشروع فى كل القوانين .

وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾(١) . ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾(٢) . وهذه الآية تقيد رد الاعتداء بالقدر اللازم لذلك دون مجاوزة أو تنكيل .

٢ — أن تكون الحرب لحماية حق ثابت للدولة انتهكته دولة أخرى دون مبرر ، وقد أقر الإسلام الحرب فى حالة نكث العهد والكيد للإسلام ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾(٣) . وفى حالة إثارة الفتن وتعرض الدولة لفتن تهدد سلامتها : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾(٤) .

وإن ما جاء به الإسلام سبق فقهاء القانون الدولى بأربعة عشر قرنا ، فهو أول من فرق بين الحرب المشروعة وغير المشروعة ، وأول من وضع للحرب آدابا وتقاليد . وكان أول من نادى بفكرة الحرب العادلة والحرب

---

(١) البقرة ١٩٠ (٢) البقرة ١٩٤

(٣) التوبة ١٢ (٤) البقرة ١٩٣

غير العادلة بعد القرآن وحكام المسلمين هو القديس توماس فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ثم تجددت الفكرة وتبلورت بإباحة الأولى وتحريم الثانية فى كتابات الفقيهين الدينيين فيتوريا وسوارس . ويعترف فيتوريا نفسه بأن الإسلام قد سبق كل المشرعين فى هذا المضمار ، ويعترف أيضا بأن مبدأ وجوب إعلان الحرب وعدم المباغتة مبدأ إسلامى نقله فيما بعد فقهاء القانون الدولى الأوروبى .

أبقى الإسلام على رق الحرب وقيده بقيود ، فهو لا يضرب على الذين يؤسرون فى حرب بين طائفتين من المسلمين سواء أكانوا من الطائفة الباغية أم من الطائفة الأخرى ، ولكنه يضرب على أسرى الحرب على شريطة أن تكون الحرب شرعية يعلنها غير المسلمين على المسلمين ، وذلك تخويفا لغير المسلمين من أن يشنوا على المسلمين حربا تكون مغبتها أن يفقدوا حريتهم وأن يصبحوا عبيدا . ومع ذلك لم يجعل الإسلام استرقاق أسرى الحرب قاعدة بل ترك الخيار للإمام فله أن يمن على الأسرى بدون مقابل أو يطلق سراحهم لقاء فدية أو عمل يؤدونه أو فى نظير أسرى للمسلمين قد وقعوا فى أيدى العدو . والقرآن الكريم لم يذكر الرق من بين الأمور التى يباح للإمام أن يعامل بها الأسرى واقتصر على المن والفداء : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾(١) .

كان أسرى الحروب قبل الإسلام يقتلون ، وكانت اليهودية لا تكتفى بقتل أسرى الحروب فحسب بل تأمر بقتل جميع النساء والأطفال والحيوان . وتطورت الأفكار فى عهد الرومان واليونان إلى استرقاق

---

(١) محمد ٤

الأسرى ، فلما كانت غزوة بدر أخذ رسول الله — ﷺ — من أغنياء الأسرى الفدية ومنّ على فقرائهم فأطلق سراحهم دون مقابل ، ومن كان يعرف القراءة والكتابة منهم جعل فداءه أن يعلم عددا من أولاد المسلمين القراءة والكتابة .

ومنّ رسول الله — ﷺ — على أهل مكة يوم الفتح وقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . وقد أتى الحجاج بن يوسف الثقفى بأسير فقال لعبد الله بن عمر : أقدم فاقتله . فقال ابن عمر : ما بهذا أمرنا . وتلا قوله تعالى : ﴿ فإما منّا بعد وإما فداء ﴾(١) .

ويقول الأستاذ المستشار على على منصور فى كتابه « الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام » : إن استرقاق الأسرى فى الإسلام كان من قبيل المعاملة بالمثل .

وجاء بعد ذلك عصر الصحابة رضوان الله عليهم واشتد الالتحام بين المسلمين والمجوس فى الشرق والمسلمين والروم فى الغرب ، وكان استرقاق الأسرى نظاما متبعا فى الحروب إذ ذاك وقد أسروا فعلا من المسلمين واسترقوهم وباعوهم ، فاضطر قواد المسلمين إلى السير على سنة المعاملة بالمثل . ولم يكن من المعقول أن يسترق أعداؤهم أسرى المسلمين ويمن المسلمون على الأسرى منهم فإن ذلك يدفع إلى كلب الأعداء فيهم واستمراء أفعالهم ، ولم يجد قواد المسلمين نصا قويا يمنع من الاسترقاق ولا نصا قرآنيا صريحا ينهى عنه ، ووجدوا قانون المعاملة بالمثل يوجب ذلك فى قول الله تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾(٢) وقوله تعالى : ﴿ والحرمات قصاص ﴾(٣) .

---

(١) محمد ٤ (٢) البقرة ١٩٤ (٣) البقرة ١٩٤

أقر الإسلام رق الوراثة ولم يصدر تشريعا يحرمه طفرة واحدة ، لأن الشارع الحكيم رأى أن القدرة تحقق الغاية دون أن يلقى بعبيد مسنين وأطفال رضع وفتيات جميلات فى عرض الطرقات فتهتز أركان مجتمع آخذ فى الاستقرار وتشيع فيه القسوة وغلظ الأكباد والفواحش التى جاء ليقضى عليها ، وقيده بقيود كانت كفيلة بالقضاء عليه . وأقر الإسلام رق الحروب وقيده بقيود وكان الهدف من إباحته تخويف غير المسلمين من أن يشنوا حربا على المسلمين ، وقد ترك للإمام أن يفدى أو يمن ، ولم ينص نصا صريحا على الاسترقاق ، فلو أن المسلمين قد اتبعوا روح القرآن لقضى على رق الوراثة ورق الحرب لو جنح أعداء الإسلام إلى السلم واحترموا العهود والمواثيق ولم يحاولوا أن يسترقوا أسرى المسلمين .

إن ريتشارد قلب الأسد قد قتل ثلاثة آلاف من أسرى المسلمين أمام بيت المقدس بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم ، ولم يدفع ذلك صلاح الدين الأيوبى إلى قتل أسرى الصليبيين واكتفى باسترقاق بعض وفداء بعضهم الآخر . وقد اضطر لاسترقاق الصليبيين لما وجد من قسوة قوادهم فى معاملة أسرى المسلمين .

وأين ما فعله ريتشارد قلب الأسد مما فعله رسول الإسلام والسلام — ﷺ — يوم بدر وما فعله المسلمون ؟ فقد كانوا يؤثرون الأسرى بالطعام على أنفسهم ، وقد قال أحد أسرى بدر : « كان المسلمون يقدمونا على أنفسهم فكانوا يؤثروننا بالأدم ويكتفون هم بالتمر » .

كان هدف الإسلام تصفية الرق وإشاعة الحرية ، فلم يدع سبيلا لتحرير العبيد إلا سلكه وحبب المسلمين فيه . وقد عدد الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه : « الحرية فى الإسلام » أسباب العتق فى

الإسلام فقال :

شرع الإسلام للعتق أسبابا كثيرة يرجع أهمها إلى الأمور الآتية :

١ — أن يجرى على لسان السيد فى صورة ما لفظ يدل صراحة على عتق عبده ، سواء أكان قاصدا معنى اللفظ أم لم يكن قاصدا له بأن جرى خطأ على لسانه ، وسواء أكان جادا فى إصداره أم كان هازلا ، وسواء أكان مختارا أم كان مكرها عليه ، وسواء أكان فى حالة عادية أم كان فاقدا الرشده بفعل الخمر وما إليها من المحرمات . وفى هذا يقول الرسول — صلوات الله وسلامه عليه : « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد ... » . وعد منها العتق . ومن هذا يظهر أن الإسلام يتلمس أوهى الأسباب لتحرير العبيد .

٢ — ومن أسباب العتق كذلك أن يجرى على لسان السيد فى صورة ما لفظ يفيد « التدبير » أى يدل على الوصية بتحرير العبد بعد موته ، فبمجرد أن تصدر من السيد عبارة تدل على هذا المعنى تصبح الحرية مكفولة للعبد بعد وفاة سيده . وقد اتخذ الإسلام جميع وسائل الحيطة لضمان الحرية لهذا النوع من العبيد ، فحظر على السيد فى أثناء حياته أن يبيع عبده المدبر أو يرهنه أو يهبه أو يتصرف فيه تصرفا ينقل ملكيته إلى شخص آخر . وإذا كان المدبر جارية فإن حكمها يسرى على من تلده بعد تدبيرها فيعتق معها بعد وفاة سيدها ، أقر ذلك ورثته أم لم يقروه .

٣ — ومن أسباب العتق فى الإسلام كذلك أن يأتى السيد من جاريته بولد ، ففى هذه الحالة يعتبر الولد حرا من يوم ولادته وتصبح الأم نفسها مستحقة للحرية بعد وفاة سيدها . وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام فى سرّيّته مارية حينما جاء منها بإبراهيم : « أعتقها ولدها » . أى أن مجيئها منه

بهذا الولد جعلها مستحقة للحرية بعد وفاته ، ويسمى الفقهاء هذا النوع من الجوارى « أمهات الأولاد » . وقد اتخذ الإسلام لضمان الحرية لهن الاحتياطات نفسها التى اتخذها حيال المدبرين ، فحظر على السيد فى أثناء حياته أن يبيع أم ولده أو يهبها أو يتصرف فيها أى تصرف ينقل ملكيتها ويعوق حريتها . وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام : « أم الولد لا تباع ولا توهب ، وهى حرة من جميع المال » .

ويقول عمر منكرا على من كانوا يحاولون بيع أمهات أولادهن : « أفبعد أن اختلطت دماؤكم بدمائهن ولحومكم بلحومهن تريدون بيعهن ؟! » . وإذا جاءت أم الولد بعد ذلك بولد من غير سيدها فإن حكمها يسرى عليه فيعتق بعد وفاة السيد .

ومن هذا يتبين أن معاشرة السيد لجاريته ومجيئه منها بولد كانا يؤديان فى الإسلام إلى حريتها وحرية جميع نسلها إلى يوم القيامة . ويبدو أن الإسلام قد أباح للموالى معاشرة إمائهن ليكون ذلك وسيلة إلى التحرير ، وأنه قد استغل ميول الغريزة للقضاء على أهم رافد من روافد الرق وإشاعة الحرية بين الناس .

ومن ثم تظهر لنا الحكمة فى أن الإسلام قد أجاز للسيد أن يتسرى جواريه بدون أن يقيد هذا التسرى بعقد ولا بعدد ، فلم يقيده بتعاقد ولا بإيجاب وقبول ، لأن وسيلة تؤدى إلى حرية الجارية وحرية نسلها إلى يوم القيامة لا يصح أن تتوقف على رأيها ولا على قبولها ، بل ينبغى أن تذلل سبلها وتنتهز بمجرد إقدام السيد عليها . ولم يقيده الإسلام بعدد بل أجاز للسيد أن يتسرى كل من يرغب التسرى بهن من جواريه بالغا ما بلغ عددهن ، لأن وسيلة تؤدى إلى حرية الجوارى واتصال نسب أولادهن

بالموالى وحرية جميع نسلهن إلى يوم القيامة لا يصح أن تقيد بعدد ، لأن تقييدها بذلك معناه تقييد منافذ الحرية والإبقاء على روافد الرق . بل إنه مما يتسق مع الغرض النبيل الذى يرمى إليه الإسلام ألا تدخر وسيلة لإغراء الموالى باتخاذ السرارى والإكثار من عددهن ، حتى تشمل نعمة الحرية أكبر عدد ممكن ويقضى على الرق فى أقصر وقت مستطاع .

٤ — ومن أسباب العتق فى الإسلام كذلك أن يكاتب السيد عبده ، أى يتفق معه على أن يعتقه إذا دفع له مبلغا من المال . وقد ذلل الإسلام لهذا النوع من العبيد جميع وسائل الحصول على المال فى صورة تدل أوضح دلالة على شدة حرصه على تصفية الرق وإشاعة الحرية بين الناس ، فأباح لهم أن يتصرفوا تصرف الأحرار فيبيعوا ويشتروا ويتاجروا ويعقدوا العقود حتى يستطيعوا أن يجمعوا المبالغ التى كوتبوا عليها فتتحرر رقابهم ، وحث جميع المسلمين على مساعدتهم والتصدق عليهم ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾[1] .

ويدل ظاهر القرآن فى هذه الآية على أنه لا يجوز للسيد أن يمتنع عن قبول المكاتبة متى أبدى العبد رغبته فى تحرير نفسه لقاء مبلغ يدفعه . وقد سأل ابن جريج عطاء بن أبى رباح : « أواجب علىّ إذا طلب مملوكى الكتابة أن أكاتبه ؟ » . فأجابه بقوله : « ما أراه إلا واجبا » . واستدل بالآية الكريمة السابقة .

وإذا كان المكاتب جارية فإن حكمها يسرى على ما تلده بعد مكاتبتها ، فيعتق معها بدون عوض بمجرد أدائها المبلغ الذى تعاقدت مع

---

(١) النور ٣٣

سيدها عليه .

٥ ـــ ذهب جماعة من الفقهاء على رأسهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن إيذاء السيد لعبده إيذاء بليغا يؤدى إلى عتقه فى صورة تلقائية بدون أي إجراء قضائى . بل لقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن مجرد ضرب السيد لعبده أو لطمه له يؤدى فى صورة تلقائية لعتقه ، مستندين فى ذلك إلى ما رواه ابن عمر عن الرسول عليه السلام أنه قال : « من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه » .

٦ ـــ عمد الإسلام إلى طائفة كبيرة من الجرائم والأخطاء التى يكثر حدوثها وجعل كفارتها تحرير الرقيق ، فبينما كانت الجرائم فى الشرائع السابقة للإسلام تؤدى إلى استرقاق الأحرار إذا بها فى شريعة الإسلام تصبح مؤدية إلى تحرير العبيد . فالإسلام ينظر إلى تحرير العبد على أنه قربة كبيرة يتقرب بها العبد إلى ربه ويكفر بها خطاياه ، فجعل الإسلام تحرير الرقيق تكفيرا للقتل الخطأ وما فى حكمه ، قال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ﴾[1] . وجعله كذلك كفارة للحنث فى اليمين . قال تعالى : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ﴾[2] .

وجعله كذلك وسيلة لمراجعة المرأة إذا أوقع عليها زوجها ظهارا بأن قال لها : « أنت علىّ كظهر أمى » . أو عبارة من هذا القبيل ، قال تعالى : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة

---

(١) النساء ٩٢ (٢) المائدة ٨٩ .

من قبل أن يتماسا ﴾[١] .

وجعله كذلك كفارة للإفطار العمد فى رمضان ، فعن أبى هريرة قال : « جاء رجل إلى النبى — ﷺ — فقال : هلكت يا رسول الله ! قال : وما أهلكك ؟ قال : وقعت على امرأتى فى رمضان ! قال : هل تجد ما تعتق به رقبة ؟.. » .

وتقرر الشريعة الإسلامية أن من وجبت عليه كفارة من هذه الكفارات ولم يكن يملك عبدا وجب عليه أن يشترى عبدا ويعتقه متى كان قادرا على ذلك ؟

٧ — خصص الإسلام سهما من مال الزكاة ، أى جزءا من ميزانية الدولة ، لشراء العبيد وتحريرهم ومساعدة من يحتاج منهم إلى المساعدة فى سبيل تحريره كالمكاتبين ومن إليهم ، قال تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب ﴾[٢] . أى فى فك قيود الرق عن رقاب العبيد .

والمقصود بالصدقات فى الآية : الزكاة التى كان يتألف منها أهم جزء من موارد الدولة ، فبينما كان بعض الشرائع السابقة للإسلام يفرض على المولى الذى يعتق عبده غرامة يدفعها إلى بيت المال ، إذا بشريعة الإسلام تخصص جزءا من ميزانية الدولة لإنفاقه فى تحرير الرقيق . وكانت الحكومات الإسلامية تحترم هذا المصرف وتخصص له نصيبه ، بل لقد كان ينفق فيه أحيانا أكثر من نصيبه ، فقد ذكر يحيى بن سعد أن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد بعثه على صدقات إفريقية ، أى على جمع الزكاة من أهلها ، فاقتضاها وطلب فقراء يعطيهم منها فلم يجد ، لأن عمر بن

---

(١) المجادلة ٣ (٢) التوبة ٦٠

عبد العزيز كان قد أغنى جميع الناس ، فاشترى بها كلها رقابا وأعتقها .

٨ — حبب الإسلام إلى الناس تحرير الرقيق وجعله أكبر قربة يتقرب بها العبد إلى ربه ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة ﴾(١) . أى أن اقتحام العقبة الكبرى التى لا بد من اقتحامها للوصول إلى الجنة تقتضى أن يتقرب المؤمن فى حياته إلى ربه بعمل جليل من أعمال البر كتحرير الرقيق . ولقد بلغ من تعظيم الإسلام لهذه القربة أن النبى — ﷺ — يضرب بها المثل فى جلال العمل وعظيم الأجر فيقول : « من فعل كذا فكأنما أعتق رقبة » . أو « يكون ثوابه عند الله ثواب من أعتق رقبة » .

جاء الإسلام وديانات تقر الرق وتوصى بقتل أسرى الحرب ، وفلسفات ترى أن الرق نظام طبيعى وأن الحرة إذا ما تزوجت عبدا كان جزاؤها الإعدام ، فلم يتهيب النظم القائمة فى المجتمعات القديمة بل قابلها وجها لوجه ، وأعلن رسول الله أن لا إلٰه إلا الله ولا مولى إلا الله وأن الناس جميعا لآدم وأن لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وراح الإسلام يعمل على إشاعة الحرية للناس جميعا وعلى محق الرق فى هوادة . وقد كان رسول الإسلام — عليه صلوات الله وسلامه — أول من طبق أوامر الله ليكون أسوة حسنة للمسلمين ، فأمر ابنة عمته زينب بنت جحش أن تتزوج ربيبه زيد بن حارثة ليقضى على ترفع السادة عن الزواج من العبيد . وما كان رسول الله — ﷺ — يفرض رأيه فى أمر الزواج فقد كان يستشير بناته فى أزواجهن ويترك لهن الخيار ، وقد أوصى بأن يؤخذ رأى البنات فى الأزواج . ولكنه أمر زينب بنت جحش أن تتزوج زيدا لحكمة

---

(١) البلد ١١ — ١٣

أرادها الله . ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾(١) .

وفضل الإسلام الزواج بالأمة المؤمنة على الزواج بالحرة المشركة :
وأوصى نبى الإسلام عليه السلام بالرقيق خيرا فكان يقول : « لقد أوصانى حبيبى جبريل بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » . وكان عليه السلام يشفق عليهم من الكلمة الجارحة فيقول : « لا يقل أحدكم عبدى ، أمتى .. وليقل فتاى وفتاتى وغلامى » .

وكان عليه السلام يؤاكلهم ويلبى دعوتهم إلى الطعام ويقول للمسلمين : « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

وكان يقول : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » .
وكانت وصية النبى — ﷺ — قبيل وفاته : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .

لم يقر الإسلام القرصنة والخطف والسبى وبيع الأسرى فى الأسواق بيع الحيوان ، فإن كان بعض النخاسين من المسلمين قد جابوا الصحراء وخطفوا الرجال والنساء والأطفال وباعوهم فى الأسواق فما ذلك من الدين ، فما أباح الإسلام اختطاف الناس من السود أو البيض ، وما جاء الإسلام إلا لإشاعة الحرية وتقويض ما يقيد حرية الإنسان .

ولم يقر الإسلام فرض الرق على أسرى الحروب ، بل إن القرآن الكريم

---

(١) الأحزاب ٣٦

قد وضع أساس معاملة أسرى الكفار فى وضوح ، فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منًا بعد وإما فداء ﴾[١] . فإن كان بعض أمراء المسلمين قد فرضوا الرق على أسرى الحروب التى شنوها فما ذلك من الدين ، فما ينبغى الاستدلال على صحة الدين أو فساده بما يفعل أهله . وقد يكون أمراء المسلمين قد اضطروا إلى استرقاق أسرى الحروب لما رأوا أن الأعداء قد استرقوا أسرى المسلمين كما يقول الأستاذ المستشار على على منصور فى كتابه « الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام » .

ولم يقر الإسلام مبدأ استرقاق المدين إذا عجز عن سداد دينه ، بل أوصى الدائن أن ينظر مدينه إلى ميسرة حتى يتمكن من السداد . ولم يقر حق الوالد فى بيع أولاده ذكورهم وإناثهم ولا حق الإنسان فى أن يتنازل عن حريته ويبيع نفسه .

وقيد الإسلام رق الوراثة ووسع منافذ العتق ؛ ولو اتبع المسلمون شريعة الله دون تأويل لصفى الرق فى جيل أو جيلين على الأكثر دون أن تحدث فى المجتمع الإسلامى هزات اقتصادية ونكبات إنسانية من جراء تحريم الرق طفرة واحدة ، ولكنها أهواء الناس وانحرافات الأمراء وجشع النخاسين التى أبقت الرق فى الإسلام دون سند من شريعة الله أو سنة رسول رب العالمين .

القاهرة فى ١٩٦٨/١٢/٢٢

---

(١) محمد ٤

المراجـــع

القرآن الكريم	
الكتاب المقدس	
صحيح البخارى	
السيرة النبوية	لابن هشام
السيرة الحلبية	لعلى برهان الدين الحلبى
الروض الآنف	للسهيلى
تاريخ الطبرى	
أسباب النزول	
الجامع لأحكام القرآن	للقرطبى
شرح نهج البلاغة	لابن أبى الحديد
المقدمة	لابن خلدون
الحرية فى الإسلام	للدكتور عبد الواحد وافى
الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام	للمستشار على على منصور .
المستشرقون والإسلام	للمهندس زكريا هاشم زكريا
أبناء أبى بكر الصديق	للمؤلف
بلال داعى السماء	لعباس محمود العقاد
حسان بن ثابت	للدكتور سيد حنفى حسنين
نساء النبى	للدكتورة بنت الشاطىء

أهل بيت النبى للمؤلف

الرسول . حياة محمد ر . ف بودلى ترجمة : محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار

A Literary History of the Arabs By Nichilson

Muslim Institutions By Maurice Gauderoy – Demombynes.

الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى

بلوغ الأرب للألوسى

نهاية الأرب للنويرى

المـــؤلف

		الطبعة الأولى
أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبى بكر الصديق		اكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)		يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل بيت النبى		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨

الطبعة الأولى

أرملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩
القصة من خلال تجاربي الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	أكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله واسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	أكتوبر سنة ١٩٧٢
هذه حياتي		فبراير سنة ١٩٧٥
مذكرات سينمائية		ابريل سنة ١٩٧٥

القصص الديني

(للأطفال)

قصص الأنبياء	في ١٨ جزءا
قصص السيرة	في ٢٤ جزءا
قصص الخلفاء الراشدين	في ٢٠ جزءا
العرب في أوروبا	في ٢٤ جزءا

محمد رسول الله ﷺ

والذين معه

في عشرين جزءا

١	ـــ إبراهيم أبو الأنبياء	أكتوبر ١٩٦٥
٢	ـــ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣	ـــ بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤	ـــ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥	ـــ قريش	مايو ١٩٦٧
٦	ـــ مولد الرسول	يولية ١٩٦٧
٧	ـــ اليتيم	أكتوبر ١٩٦٧
٨	ـــ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩	ـــ دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠	ـــ عام الحزن	مارس ١٩٦٨
١١	ـــ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢	ـــ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣	ـــ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤	ـــ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥	ـــ صلح الحديبية	يونية ١٩٦٩
١٦	ـــ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧	ـــ غزوة تبوك	نوفمبر ١٩٧٠
١٨	ـــ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩	ـــ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠	ـــ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠